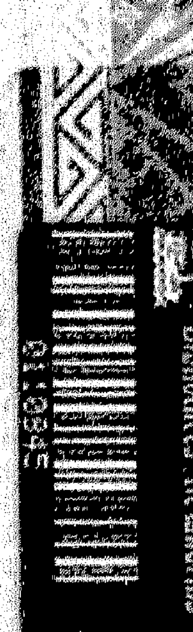
الإمام محمد أبو زهرة

الوحدة الإسلامية

الإمام محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي





الإمام محمد أبو زهرة

الوحدة الإسلامية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت: ٣٩٢٥٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى رسول الوحدانية ، وجامع الانسانية ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

١ — أما بعد ، فقد روى فى الصحاح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال : « بدأ الاسلام غريبا وعاد غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وأى غربة للاسلام أكثر من أن تتوزع أقاليم الأرض أهله ولا جامع يجمعهم ، وأن تمزقهم الجنسية والعنصرية ؟ ويقول خاتم النبيين « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » وأى غربة أشد من أن تحارب جماعة اسلامية أخرى من غير أى جريمة دينية ، بل أى غربة للاسلام أقوى من أن يستنصر أمير مسلم بأعداء الله وأعداء الاسلام وينسى قوله تعالى : ((**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم**)) .

ان الفرقة بين المسلمين هونت أمرهم ، وجعلتهم حجة على الاسلام ومبادئه ، حتى لقد قال الأعداء : لو كان الاسلام خيرا ، ما كان أهله على هذه الحال من الخلل والاضطراب والبعد عن أسباب القوة . وقد تحكموا فينا ، فان حاولنا أن نجتمع خذلونا ، خذلنا الرؤساء الذين يوالونهم ، ويستمدون القوة منهم ، ويسيرون فى مسارهم ، ويدورون حول قطبهم ، وأى غربة للاسلام أشد من أن من يدعو الى الوحدة الاسلامية تكون دعوته غريبة ، وصوته منكرا ، كأنه يهاجم الاسلام ، وفى كل الأحوال تكون دعوته صرخة فى واد .

٢ — لقد نادى الامام جمال الدين الأفغانى بضرورة انشاء جامعة دولية اسلامية ، وما كانت لدعوته استجابة ، الا حث الشعب الاسلامى

عليها ، وانهاض الأمة الاسلامية للاتجاه نحوها • وطوف فى أرض الاسلام ما طوف يحرض ويجمع ، وما دخل اقليما اسلاميا الا أيقظ أهله ، وأزال الغمة ، وحاول بعث الهمة ، ولكن لا يلبث حكام المسلمين أن يخرجوه من أرض الاسلام حتى ألجأوه الى دار الكفر ، فظن أنه يستطيع أن ينادى من أرض غير اسلامية ليجمع الأمة الاسلامية ، زاعما أن أهل أوروبا أحرار ، كما يوهمون المسلمين ، فاتخذ منبره هناك فى مجلة العروة الوثقى ، ولكن ضاقت صدورهم حرجا بها ، فألغوها بعد بضعة أعداد ، فأخذ يطوف ، وقد أعطاه الله قوة روحية مؤثرة ، فأراد أعداء الاسلام ، أو أعداء الوحدة الاسلامية أن يمنعوه فلم يجدوا الا أن يلجئوه الى ما كان يسمى دار الخلافة الاسلامية فى ملك آل عثمان ، فدخل القسطنطينية وكانت السجن لذلك الحكيم ، فانقطع صوته الذى كان يدوى ويعلن صوت الحق فى وسط جلجلة الباطل ، ومنع شخصه من التجول فى الأقاليم الاسلامية وبثت حوله العيون •

٣ ــ ولعل الزمن لم يكن مواتيا لدعوة الامام جمال الدين ، وان حاول التنبيه والايقاظ ، وحسبه ذلك شرفا ، فالأمة كانت خاملة ، وأعداء الاسلام هم المتحكمون فى مصاير المسلمين ، وهم يحولون بين كل داع للوحدة ودعوته ، ولا يريدون للمسلمين الا أن يكونوا قوما بورا •

والآن ، قد حالت الحال ، وكف أعداء الاسلام أيديهم • وان كانوا لم يكفوها الا بعد أن كان لهم من المسلمين من لا يزالون يتبعونهم نفسيا وعقليا • وليس للاسلام فيهم الا الاسم الاسلامى ، وذكره فى تعدادهم ، وكان للتحكم فى الاسلام أثره فى قلوبهم ، وقد كانوا يدنونهم ، ويقربونهم زلفى اليهم •

ومهما يكن من هؤلاء الذين خلفهم عدو الاسلام فى أرضه ، وكانوا هم المخلفين الذين يتكلمون فى اعلاء شأن من كانوا يتحكمون ، وخفض الحقائق الاسلامية ، وتجميد الشرائع غير الاسلامية •

ومهما يكن أمر هؤلاء ، فان فى المسلمين يقظة ابتدأ نورها خفيفا ، وسينبثق نورا وهاجا ، ولذلك لا نيأس من أن تعود الوحدة الاسلامية ، كما

بدأت قوية ، وتجعل من المسلمين جماعة واحدة تقف أمام الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وغيرهما من الكتل التى تتجمع وليس فيها للاسلام مكان ، وأن الجماعة الاسلامية ستكون مصدر خير للانسانية ، كما كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعصر الراشدين من بعده . بل عصر الملوك الذين كانوا يحكمون المسلمين ، وهم مجتمعون ، سواء كان الحكم ، كما جاء فى القرآن والسنة ، أم خالفوه فى مناهج قلت أو كثرت .

٤ — ولا يصح لنا أن نسكت ، لأن السكوت تخاذل ورضا بغير المقرر الثابت فى الاسلام ، ومادام القرآن قائما ، والسنة النبوية تروى ، فان الوحدة ممكنة لتوافر أسبابها ، وموانعها ليس من المستحيل ازالتها ، ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله تعالى وسنتى » وفى رواية الترمذى « وعترتى » .

ان الطريق لواضح ، وان كانت فيه عقبات فهى من المسلمين أنفسهم ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « تركتكم على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها » فالطريق واضح لا يضل فيه السارى .

وانا اذا اتجهنا الى الكتابة فى الوحدة الاسلامية ، كما يجب على كل مكلف أن يتكلم فيها بالقلم واللسان والمواجهة ، والانتقال واللقاء ، اذا اتجهنا الى ذلك يجب أن ندرس كيف تكونت بتوفيق الله للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتأليف الله لأهل الايمان ابتداء . كما قال تعالى : **« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ، يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »** .

٥ — وان الرجوع الى أصل تكوين الجسم ، هو السبيل لجمعه اذا تفرقت أعضاؤه بحيث يوضع كل عضو فى موضعه ، فيكون التلاؤم الأصلى والتناسق الوجودى ، فيجب أن نبين كيف تكونت الوحدة ابتداء . ولقد تتبعنا فى بحث

الوحدة أسباب الفرقة والانقسام ، ويظهر أنها قديمة من بعد عصر أبى بكر وعمر ، ففى عصر ذى النورين عثمان ظهرت الفتن الطاحنة ، وفى عهد امام الهدى على ، ظهر البغى مع الفتن .

وبذلك وجدت نابتة الفرقة ، وتغلغلت فى المجتمع الاسلامى ، وتحقق قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعرى « ستكون فتن النائم فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم » ونمت بذور الفرقة فى عهد ملوك بنى أمية حتى أن الامام زيدا يقول : لو علقت فى الثريا ، وقطعت اربا على أن تجتمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كما قال ثالث الشهداء من عترة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد وجدنا أن العصبية العربية ، ثم الشعوبية ، ثم الانحياز الاقليمى ثم احياء اللغات القديمة ، والملوك الذين أقاموها حربا بين المسلمين ، كانوا من أسباب الفرقة ، وقد حاولنا أن نعالج هذا .

دعونا الى احياء اللغة العربية ، وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الاسلامى ، ودعونا الى توحيد السياسة والحرب بانشاء جامعة اسلامية ، ودعونا الى محو العنصرية بين المسلمين .

واذا كان الناس يرون ذلك مستحيلا اليوم ، فانه بالايمان والعزيمة ، والرغبة فى حياة عزيزة كريمة ، يقرب البعيد ، ويتحقق المستحيل . اللهم هيىء لنا من أمرنا رشدا ..

٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ

٢٠ مايو سنة ١٩٧٦م .

محمد أبو زهرة

الوحدة الإسلاميّة

(تكوينها - قيامها - انقسامها - طريقة جمعها)

الوحدة الاسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فلا يعرف الاسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات ، وقد كانت حقيقة ثابتة فى الوجود ، كما هى مقررة فى النصوص ، وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعهد الراشدين ، وما والاه من العهود التى قاربته فى عهد ملوك بنى أمية ، وبنى العباس ، وان كانت العصبية الاقليمية ، أو الشعوبية كما سميت فى التاريخ الاسلامى ، قد أخذت تتسلل الى الجماعات الاسلامية ، وكانت فى الوجود وراء العصبية العربية التى انبعثت من مراقدها فى العهد الأموى ، فكانت العصبية الجنسية وراء العصبية العربية ، وكلتاهما جاهلى فى معناه ، ناف للحقائق الاسلامية ، والوصايا المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم •

والآن قد صار المسلمون إلى افتراق ، وفى بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديدا ، ووالى كثير منهم من لا يود للاسلام وأهله الا خبالا •

فكان لابد من جمع المتفرق ، ولم الشعث ، واتباع ما أمر به القرآن ، وقرره النبى صلى الله عليه وسلم فى وصاياه ، واعادة أمر المسلمين ، كما ابتدأوا جماعة واحدة يتضافرون كالبنيان المرصوص ، ولا يخذل بعضهم بعضا ، وأن يبتدأ بأقرب الخطوات ، ثم التى تليها من غير مواناة ولا قصور •

وان الفكرة الباعثة لانشاء مجمع البحوث الاسلامية كانت الاتجاه الى الوحدة العلمية الاسلامية ، وهو الغرض الأسمى من وجوده ، واذا لم يتحقق هدفه كاملا ، فانه لم يتخلف عن السير وان كان بطيئا ، وان القصد الى الهدف أمر حسن ، وان لم تتحقق الاصابة الى الآن •

واذا كانت الوحدة الاسلامية فى الناحية العلمية هدف المجمع ، فمن الحق عليه أن ندرس الوحدة التى تحققها فى هذا الزمان ، واذا لم تكن هى الكاملة ، فهى طريق الجمع الكامل .

ومن أجل هذا تقدمنا بهذا البحث ليلقى فى المؤتمر الاسلامى الجامع ، ونرجو أن يكون البحث نواة لغرض يؤتى أكله فى حينه ، وعندما يتكامل نموه فى ابانه .

ونحن فى بحثنا ، لا نأمل أن تعاد الآن الخلافة الاسلامية كما ابتدأت وارفة على الجماعة الاسـلامية ، وان كان يجب أن يكون غرضـا مقصودا وهدفا منشودا .

وانما نكتفى بالحد الأدنى من الوحدة ، ونبنى عليه ما بعده من أدوارها حتى يصل المسلمون الى أعلى مدارجها ، فى أمر جامع لهم ، تحت أى شـكل من الأشكال .

وانا نقسم البحث الى أربعة عناصر :

الأول : تمهيد فى بيان مقاصد الاسلام فى وحدة الانسانية ، وبيان أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، مبعوث للناس كافة .

والثانى : فى تكوين الوحدة الاسلامية فى عهـد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيامها فى عهد الراشدين ومكان الخلافة فى الاسلام .

والثالث : فى أسباب التفريق بعد الاجتماع ، وفى هـذا نبين أسبابه ، وما كان يرمى اليه المفرقون .

والرابع : فى بيان الوحدة الممكنة الآن .

تمهيد

١ – ينظر الاسلام الى الانسانية على أنها وحدة ، لا فرقة فيها بالأجناس أو الألوان ، أو الأقاليم ، فان توزعت الأرض بنى آدم ، فقد جمعتهم الانسانية ، فكلهم لآدم وحواء ، خلقوا من نفس واحدة ، ومن دابة واحدة ، وقد خاطب الله تعالى الناس بهذه الحقيقة ، فقال تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا** » .

فهذا النص القرآنى الكريم يوجه التالين له ، والمستمعين اليه ، الى أن هناك رحما يجب وصلها بين بنى الانسان ، شرقيهم وغربيهم ، وأبيضهم وأسودهم وأصفرهم وأحمرهم ، ومبتديهم وحضرهم ، وجاهلهم وعالمهم ، والمتكامل منهم والناقص .

وأن الاختلاف فى الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى فى الكون وقد أنشأها سبحانه من خلق السموات والأرض ، وخلق الأكوان ، والتباين فيما خلق من ظل ومن حرور ، وأرض خصبة هادئة ، وأرض قاسية غليظة ، ولذلك قال تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين** » .

واذا كانت الأرض قد توزعت أبناء آدم ، وفرقت بينهم أجواؤها ، وأحوالها ، وتباينت الألسنة ، وأشكال المعايش ، فان الأخوة ثابتة بحكم الاسلام وبما جاء به القرآن ، والتعارف واجب ، واذا فرقت الأرض فالمعانى الانسانية تقرب ، وتجمع . ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير** » .

وان التعارف هو تثبيت الوحدة الجامعة ، وتأليف القلوب المتفرقة هو أساس العلاقة ، هذا وان التعارف بلا ريب يقتضى المساواة والكرامة الانسانية

التى أعطاها الله للانسان بمقتضى كونه انسانا ، كما قال تعـالى : ((**ولقـد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)) .

وان التعارف الانسانى يوجب أن يفيض أهل كل اقليم بفائض خيرهم على أهل الاقليم الذى شحت أرضه بمثل ما عنـد الاقليم الذى يكون عنـده فائض الخير .

فالاقليم الذى يكثر فيه القمح لا يرمى فى البحار ، ويغالى فى الأسعار ، بل يفيض به على من ليس عنده قمح ، ومن عنده مواد الكساء يفيض بهـا على من ليس عندهم هـذه المـادة ، واذا كانت الأرزاق فى أرض الله تعالى متباينة ، فانها بحكم الانسانية الموحدة تتلاقى فى ثمراتها ، وتجتمع ، ولذلك ورد فى بعض الآثار المنسوبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « الناس بخير ما تباينوا ، فان تساووا هلكوا » .

وان التعارف يوجب التعاون فى رفع الحق ، وخفض الباطل ، وسيادة الفضـيلة والمسـاواة العـادلة بين بنى الانسـان ، وأن يدفع الظلم عن كل بنى الانسان ، وأن يقف أهل كل اقليم أنفسهم لمساندة الضعيف فى أى أرض من أرض الله ، حتى لا يفسد الظلم أهل الأرض ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : ((**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**)) .

٢ ــ وان القرآن اذ ينص على الوحدة الانسانية مـع تفرق الأقاليم والعناصر ، ينص على الوحدة فى الفطرة الانسانية ، فليس لأهل اقليم منزع فطرى غير منزع الآخر ، بل أصل النزوع النفسى واحد ، فيه أسباب الاستقامة والانحراف واحدة ، فليس الاختلاف ناشئا من طباع مختلفة . بل هو من فطرة واحدة فلا يقال طبيعة الزنجى غير طبيعة الأبيض ، ولا طبيعة الأصفر غير طبيعة الأسـود ، بل الطبائع فى أصلها واحدة ، ولكن يكون الاختلاف من التوجيه والتوجه لا من أصل الفطرة ، فهى واحدة ، ولذلك قال الله تعالى : ((**كان الناس**

أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » •

وان هذا النص الكريم يدل على وحدة الانسانية فى الغرائز والمنازع ، وأصل الفطرة ومنازعة الأهواء الجامحة والشهوات الدافعة ، وأن الاتحاد فى ذلك يؤدى لا محالة الى الاختلاف والتنازع ، اذ أنه لو كان الحاكم هو العقل وحده ما اختلفوا ، انما تحكم الأهواء والشهوات ، وسيطرتها على بعض النفوس ، فكان لابد فيها من التنازع بين الخير الذى يدعو اليه العقل ، والشر الذى يدفع اليه داعى الهوى والشهوة ، ولهذه المنازعات فى داخل النفوس وبين الناس كان بعث النبيين ، ولقد صرحت آية أخرى بأن الوحدة النفسية فى أصل تكوينها يترتب عليهـا الاختلاف لا محالة ، فقـال تعالى : **« وما كان الناس الا أمة واحدة ، فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيـه يختلفون »** •

ونرى من هذا أن النص يشير الى أن الوحدة يترتب عليها الاختلاف ، فانه اذا كانت كل النفوس متحدة فى وجود المنازع وأنها مستعدة للخير وللشر ، فانه لا محالة يترتب الاختلاف والتنازع بل التناحر ، فمن الوحدة النفسية كان الاختلاف ، ولقد قال تعالى :**« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها »** • وهكذا يصرح القرآن بوحـدة النفس الانسانيـة فى منازعهـا واتجاهاتها ، وانما التربيـة والبيئات الاجتماعية والتوجيهات هى التى توجد الاختلاف بين المجتمعات ، فلا يقال هذه نفس حر ، وتلك نفس عبـد ، ولا يقـال هذه نفس زنجى ، وتلك نفس أبيض ، ولا يقال هذه نفس بدوى ، وتلك نفس حضرى ، فالنفوس واحدة وانما يكون الاختلاف بسبب البيئات والمجتمعات •

ويظلم الحقائق ، والانسانية من يجعل لفريق نفسا ، وللآخر نفسا •

٣ ـ وان الاسلام لا يعد أهل جيل أمة واحدة ، بل يعد الأجيال كلها أمة واحدة ، تتحد فى معارضـة الأنبياء ، والاستجابة لهم ، لأن النفس البشرية واحدة فى المـاضى والحاضر ، والانسان ابن الانسـان كما كان يقرره بعض أساتذتنا الأجلاء رضى الله عنهم •

ولقد ذكر القرآن تلك الوحدة النفسية فى الأجيال كلها . فقال تعالى فى سورة (المؤمنون) : ((**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون**)) ، وقال تعالى فى سورة (الأنبياء) : ((**والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين ، ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**)) .

فهذا النص الذى تلوناه انما يدل على وحـدة الأقوام فى صدودها عن الحق أن قامت دلائله ، وايمان كثيرين به ، وقد ظهرت أماراته كالضوء فمشوا فيه ، وهم يعلمون .

الرسالة المحمدية للكافة :

٤ — ان الانسانية أمة واحـدة كما قرر القرآن الكريم معجزة الوجود الكبرى وأن وحدة الانسانية ثابتة لا فى جيل واحد ، بل الأجيال كلها متحدة فى نفوس المنحرفين ، ومتحدة فى نفوس المهتدين ، فالناس أولاد الناس منهم من ضل وغوى ، ومنهم من آمن واهتدى ، والانبعاث الى الهداية واحد فى الأجيال أيضا ، والله تعالى هو العليم بذات الصدور ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ومن سلك سبيل الضلالة وصل الى غايتها .

وان الرسالة المحمدية كانت للناس كافة لا لاقليم ، ولا لجنس ولا لفريق من الناس . بل كانت عامة فى دعوتها ، وعامة فى هدايتها .

خوطب بها الناس جميعا فى ابان نزول الوحى ، وخوطبت بها الأجيال كلها من بعـد محمد الى يوم الدين ، فدين محمد هو الدين الخالد الى يوم القيامة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم آخر لبنة فى صرح النبوة ، وهو خاتم النبيين ، ولا وحى من السماء من بعده ، فبه ختمت الرسالة ، ولم يبق للناس الا الكتاب الخالد الذى هو سجل الرسالات والسـنة النبوية ، وهو الحجة الباقيـة الى يوم زوال الأرض ومن عليـها ، وليس للناس من بعـد النبى صلى الله عليه وسلم الا فهم وتدبر فى الكتاب والسنة والبناء عليهما ، من غير أن يخرج من دائرتهما بل يدور حول محورهما وبهدايتهما .

ولقد وردت النصوص بعموم الدعوة المحمدية ، وجاءت أعمال النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، وان طبيعة الهداية المحمدية أن تكون عامة لا خاصة ، لان المبادىء الاسلامية هى الفطرة الانسانية ، والفطرة عامة لا خاصة ، ويقول الله تبارك وتعالى فى وصف الحقائق الاسلامية ، ((**فطرة الله التى فطر الناس عليهـا لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)) فلا تبديل لخلق الله تعالى لاختلاف اقليم عن اقليم ، ولا جنس عن جنس ، ولا عنصر عن عنصر ،بل كلمات الله تعالى عامة فى حكمها وفى موضوعها ، فلا تبديل فيها ولا تغيير ، بل فيها الشمول الكامل ، والعموم الذى لا يتخلف ، ولا يخرج عنه بخصوص الا اذا استمد التخصيص من نص عام يجيز قاعـدته ويؤكد معنـاه .

ولقد صرح القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية ، فقال عز من قائل : ((**وما أرسلناك الا رحمة للعالمين**)) . وقال تعـالى : ((**وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) فان هذين النصين يدلان بصريح العبـارة على عموم الرسالة المحمدية التى خوطب بها الناس وكلف أن يقوم محمد بها عامة لا يخص اقليما ، ولا جنسا ، ولا لونا ، ولا عنصرا .

ويقول تعالى آمرا نبيه : ((**قل يا أيها الناس ، انى رسول الله اليـكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض**)) وأن أوصاف الرسـول الكريم فى القرآن الكريم تدل على عموم رسالته ، فالله تعالى يقول فى محكم آياته : ((**يا أيهـا الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله من فى السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما**)) فالرسول جاء بالحق ، والحق هو الأمر الثابت الدائم الذى لا تختلف فيه العقول ، والأمر به لا يكون الا عاما .

ويقول سبحانه وتعالى فى مخاطبة أهل الكتاب بالدعوة المحمدية : ((**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شىء قدير**)) .

واذا ذكر للعرب على أن الدعوة فيهم ابتداء • ذكر أنهـا للنـاس كافة انتهاء ـ فالله تعـالى يقول : ((**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتـلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين**)) ثم يقول من بعد ذلك ما يدل على عموم الدعوة والرسالة : ((**وآخرين منهم لمـا يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم**)) •

ويقول تعالى : ((**ولتنذر أم القرى ومن حولها**)) •

٥ ـ ولقد صرح القرآن الكريم بأن رسالة محمد ظاهرة على ما سبقها من الرسالات ، وأنها الخالدة دون ما سبقها ، وهذا معنى قوله تعالى : ((**هو الذى أرسـل رسوله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا • محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعـا سـجدا يبتغون فضلا من الله ورضـوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التـوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**)) •

وان هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن دين محمد هو الدين الحق ، بعـد أن بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا حق عند أهل العصور التى جاءت بعد الرسالة المحمدية ، وبعـد أن يبلغوها الا دين محمـد لأنه الحق ، وأن ديانة موسى وعيسى قد انتهتا • وما لأحد أن يستمسك بهما الا فيما قررته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال عليه السلام : ((لو كان موسى حيا ، ما وسعه الا أن يتبعنى)) •

ثانيا : ان الرسالة المحمدية هى الظاهرة بمقتضى الأمر الأول على الديانات كلها ، لأنها الحق الثابت الباقى وحدها بعد أن جاء بها الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى فى زمانها هى وحدها الحق •

ثالثها : أن أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم هم الذين حملوا أمانة التبليغ للكافة من بعده ، فهم أشداء فى دعوة الحق ، متراحمون فيما بينهم ،

وأن الدعاة بالدعوة الاسلامية بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين يتولون نشرها للأقرب فالأقرب ، وأنها بين أيديهم كزرع أخرج شطأه ، والله يؤازره ، حتى يستغلظ ويقوى ويثبت فى الوجود ، وقد استوى على سوقه .

٦ ــ والقرآن الكريم قد ذكر الله تعالى فيه بأن هدايته عامة ، لا تخفى فقد وصفه الله تعالى بأنه « **هدى للعالمين** » ، ووصفه سبحانه بأنه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، فقال تعالى : « **الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد** » . ويقول تعالى : **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نورا مبينا** » .

ويقول سبحانه فى وصف الهداية المحمدية : « **يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين** » .

ويلاحظ هنا أن الخطاب فى شأن القرآن الكريم وبنصه كان للناس . وهذا نص شامل لكل من يتصف بالانسانية ، وبأنه ناس فلا يختص بعربى دون أعجمى ، ولا بأحمر أو أبيض ، دون الأسود والأصفر ، اذ أن الجميع ناس من النـاس .

ويقول تعالى : « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا** » .

هكذا نجد التصريح من القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية ، وبيان القرآن فى الهداية وهو حجة النبى صلى الله عليه وسلم وسجل شريعته ، فهو ما كان الا للناس كافة .

النبى عربى ونزلت الشريعة فى العرب :

٧ ــ ومع عموم الرسالة المحمدية ، فان المبعوث رحمة للكافة كان عربيا تطبيقا للقاعدة الكريمة التى قررها القرآن الكريم « **وما أرسلنا من رسول**

الا بلسان قومه » ، فقد كان المخاطبون الذين حملوا هذه الرسالة العامة هم العرب ، ولقد قال تعالى : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم** » .

وان النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى العرب الأميين ، كما قال تعالى فيما تلونا : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** » .

ولقد كان القرآن الكريم ، لأن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم عربى ، وبعث فى العرب ، كان القرآن عربيا ، فقد قال تعالى : « **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا** » .

وقال تعالى فيه « **حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون** » ، وقال تعالى فى القرآن الكريم : « **وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين . وانه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** » .

فهذا يدل على أن القرآن نزل بالعربية لكى يفهمه العرب ، وأنه لا يفهمه الأعاجم ، لأنه بلسان عربى مبين . ولقد قال تعالى فى ذلك أيضا : « **انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** » .

لقد ذكر سبحانه أنه أنزل القرآن عربيا لكى يفهمه العرب فوق أن النبى عربى ، وقد قال سبحانه وتعالى : « **ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد** » .

وهكذا نجد الرسالة المحمدية أخذت الصفة العربية ، ولكنها ليست مقصورة على العرب بل هى للنـــاس كافة ، وذلك لأن ابتداءها عربى ، وغاياتها عامة شاملة ، لأنها جاءت لاصلاح بنى الانسان أيا كانت لغتهم وأيا كان لونهم أو جنسهم •

ولكنها فى ابتداء الدعوة اتجهت الى العرب ، ليكون منهم الرعيل الأول الذى يحمل أعباء الرسالة المحمدية ، ولذلك عندما أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر به وأن يعرض عن المشركين قال له عز من قائل : ((**وأنذرك عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**)) •

فالدعوة ابتدأت موضوعية فى دائرة ضيقة ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت العرب ، ابتدأت فى أسرة النبى صلى الله عليــه وسلم ، وهم عشيرته المقربون ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت قريشا ، وانبثق نورها الى ما حول أم القرى من الأرض العربية حتى اذا تجاوبت أصداؤها فى ربوعها ما بين جاحد مخالف ، ومؤمن موافق ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى خارج الديار العربية ، فأرسل الكتب الى الملوك ليمكنوه من أن يدعو أقوامهم الى الاسلام ويبلغوهم الرسالة التى حملها الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ، الى كسرى فى فارس ، والى هرقل فى بلاد الروم ، والى المقوقس فى مصر ، والى غيرهم يدعوهم بدعاية الاسلام ، وأن يخلوا له طريق الدعوة لتسير الى أقوامهم، فمن استجاب لها واهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها •

ولكن منهم من أجاب مترفقا فى الرفض ، ومنهم من خشن فيه ، ومنهم من قتل من أسلم من رعيته ، فكان حتما على النبى صلى الله عليه وسلم أن يحمى التابعين للرسالة المحمدية من أن يفتنوا فى دينهم ، ولقــد جرد لذلك جيشا لملاقاة الروم ، لأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام •

وخلاصة القول فى هذا المقام تستبين من قول النبى صلى الله عليه وسلم ، عندما خاطب عشيرته ، اذ قال صلى الله عليه وسلم : ((انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة)) •

العرب حملة الرسالة المحمدية الى الناس كافة :

٨ — اختص الله تعالى العرب بأن يكونوا هم المبلغين — التبليغ الأول بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، على أن يعلنوها للناس كافة ، وينشروها بينهم ، ويشـقوا الطـريق لدفع الظلم عن المظلومين ، المرهقين من حكامهم الطاغين ، ولكنهم لم يختصوا بموضوعها ، بل هى للناس كافة واختصاصهم اختصاص فى عبء التبليغ الأول لأنهم تلقوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين شافهوه ، وعاينوه ، فكان أول واجب للتبليغ عليهم •

وذلك لأن الشريعة المحمدية ، كما ذكرنا ، الى الناس كافة ، وليس من المعقول ، ولا من طبائع الأشياء أن يخاطب صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وحده بها الناس ، بحيث يذهب الى أهل كل اقليم ، وكل جنس ، يذهب اليهم فى ربوع ديارهم وأن يخاطبهم بلغاتهم المختلفة ، وأن يبعثر جهوده فى الناس قاطبة اقليما اقليما ، وجنسا جنسا ، وقد يتضافرون جميعا ضـده متألبين على دعوته ، وبمكاثرتهم له يقضون على الدعوة فى مهدها ، ولا تخرج الى أى مسار فى سيرها •

انما المعقول أن تبتدىء دعوته بعدد من الناس يكونون حوارييه وصفوته المختارة بين من بعث اليهم ، حتى اذا أشربوا الدعوة حملوها لمن وراءهم ، كما قال تعـالى : ((**فلولا نفـر من كل فرقة منهم طائفـة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون**)) •

لذلك كانت الدعوة المحمدية التى بعث صاحبها محمد صلى الله عليه وسلم فى العرب ابتداء ، وسار بها الدعاة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم انتهاء ، وابتدأت فى أضيق دائرة حتى كان المؤمنون الأشـداء فى دينهم ، وان كانوا قليلا ، لأنهم بقوة ايمانهم يصبرون على الدعوة والجهاد فى سبيلها ، ويصابرون المعاندين ، ويتحملون الأذى فى سبيلها ، غير وانين ولا مقصرين ، والدعوات لا تأخذ طريقها بكثرة أتباعها ، ولكن بقوة ايمان الدعاة ، واخلاصهم وقوة أخلاقهم •

وما زالت الدعوة من بعد ذلك تسـير فى الطريق ، حتى حملها الجمـوع المتكاثرة ، ولكن الصبر دائما يكون فى الصدمة الأولى ، كما قال محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقـد تجاوزت الدعوة أرض العرب الى الفرس وما وراءهم ، والشام ومصر وما وراءهما ، حاملة النور والهداية والقوة التى تقف فى وجوه الظالمين ، تأطرهم الى الحق أطرا ، ثم عمت الرسـالة المحمدية ، ووصلت الى الكافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت بمبـادىء الحق والعدل على العـالم كالغيث ، فنهل منه من نهل ، وأصاب خصب النفوس وجدبها .

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

٩ ــ لماذا اختص الله تعالى العرب بأن يكون فى أرضهم مشرق النور الذى انبعث الى كافة الخليقة ؟ ونقول فى الاجابة عن ذلك : ان هـذا اختيار الله تعالى العليم الخبير ، وما كان لنا أن نعال اختيـار الله تعالى ، فهو لا يسأل عما يفعل ، ولكن نلتمس الحكمة ، ونتعرف المآلات التى ظهرت فى الماضى وكانت تظهر آنا بعد آن .

ونقول ابتداء ان أرض العرب كانت مهدا للنبوة الأولى ، فقد قال الثقات من المؤرخين ان ادريس عليه السلام ، وقد كان صديقا نبيا ، وهو أقدم من نوح ظهر بدعوته فى أرض العرب ، وعاش بها ، ونوح عليه السلام قالوا ان دعوته كانت بالبلاد العربية ، ويرجح ابن جرير أنه دفن فى البلاد العربية .

وهود ، وصالح ، وشعيب ، كل أولئك كانوا عربا ، وبثـوا دعوتهم فى البلاد العربية ، وموسى عليه السلام لم يبعث الا فى أرض عربية ، فاذا كان قد ربى فى قصر فرعون ، وعاش فى جنبات مصر وخصبها ، فانه لم ينزل عليه الوحى الا فى أرض مدين ، ولم يتلق كلماته الا فيها ، ولما استنقذ الله تعالى به بنى اسرائيل كان مأواهم فى سيناء ، حيث مشارف الأراضى العربية .

واذا كانت رسالة الكافة التى حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، قد كان مهبطها فى البلاد العربية ، وفى أوسط ديارهم وأكرمها عند الله تعالى ، فان ذلك لم يكن بدعا بين الرسالات الالهية ، وخصوصا أن مهبط دعوته كان فى مكة التى بها حرم الله الآمن فى الجاهلية والاسلام ، وهى بناء أبى الأنبياء ابراهيم وأبى العرب من ولد عدنان ٠

لذلك نقول ان أرض العرب فيها آثار النبيين التى تدعو الى الاعتبار وفيها العبر وفيها المثلات لأنها أرض الرسالات الالهية التى بعث بها النبيون الذين دعوا الى الله تعالى مبشرين ومنذرين ٠

١٠ — وأن العرب فى طبيعة أرضهم ، وفى طبيعة نفوسهم ، ما يجعلهم أصلح الناس لحمل عبء الرسالة المحمدية بمبادئها العامة الشاملة ٠

فأرضهم لا مطمع فيها لمتحكم أو مسيطر ، أو كما كانت ابان الدعوة المحمدية وهى لم يغلب عليها قوى ، واذا كانت فيهم عيوب ، فانها لا تتعلق بالنفس العربية ، وانما تتعلق بالمعرفة التلقينية ، اذ كانت أمة أمية ، وعرفوا فى التاريخ باسم الأميين ، وقد عبر القرآن الكريم عنهم بذلك التعبير ٠

ولم يجر على نفوسهم الذلة التى يفرضها حكم الطغاة من الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال تعالى حكاية عن بلقيس :

« ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » ٠

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هى التى حملت رسالة العزة ، وهى أرض الحرية والشجاعة ، ولا يمكن أن ينقل الى الناس دين العزة والكرامة والاقدام الا الذين أبوا ذل الملوك والذين تحملوا شدائد أرضهم وقسوة الحياة فيها ٠

وانه لا ينقل دين الكرامة الانسانية والعمل الصالح الا الأحرار الذين يأبون الدنية ، ويرضون ببذل النفوس فى دفعها ، وليس ذلك الا فى العرب وأرض العرب •

ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام وخرجوا من ديارهم دعاة بدعوته الى الحق الا شقوا طريق النور والحرية والعدالة فكانوا يهدون الى الحق من غير مواناة ، ولا فرار من شدة أو بأس ، ولا يتركون الشدة ، الى الدعة والرخاء ، لأنهم تحملوا آلام الصحراء ، وعاشوا فى حرورها •

وترى لو تصورنا أن تكون النبوة العامة الشاملة فى غير أرض العرب أتكون فى أرض القياصرة حيث يتطامن العامة لحكم القيصر ، ويدينون نفوسهم بالصغار ، حتى يحسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث لا يحكم فيهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجاثمة على النفوس لهوى الحكام ، والخروج عن مبادىء السلوك الانسانية •

واذا لم تكن أرض الرومان صالحة لدعوة الكافة الى دين تمحى فيه العصبية والعنصرية والتعصب للجنس واللون والقومية ، أفتكون أرض فارس هى أرض النبوة ، حيث فرض كسرى الذلة على الشعب ، وتوزعتهم سيادة الأشراف اذا تزايلت أو وهنت سلطة الملك ، وانتقل الشعب من الذل والهوان الملكى الى ذل الارستقراطية • وهوان الناس فى ظلها •

وفى الحالين قد لانت نفوسهم ، وضعفوا وهانوا واستكانوا • وما كان هذا الشعب فى ذلته هو الذى يحمل الدعوة الى العزة والكرامة الانسانية التى قررها الاسلام فى قوله تعالى : ((**ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)) •

لا يمكن أن يحمل عبء الدعوة الى الحق والعزة والكرامة من أمات الظلم والتحكم نخوتهم وألفوا الخضوع المطلق للحاكم ، ورضوا بالحياة الدون ، والمنزل الهون ، فانه لا يدعو الى العزة الا الأعزاء ، ولا الى الكرامة الا الكرماء •

١١ — وهل يتصور أحد أن تكون أرض الفراعنة هى التى تدعو الى اسقاط حكم الفراعنة وبيان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وما انتقلوا من حكم الفراعنة الا الى حكم لا يقل عنـــه طغيانا وعتوا وفسادا ، انتقلوا الى حكم اليونان ، ثم الى حكم الرومان ، فهم يسارعون فى الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جانب الى جانب وينغضون رؤوسهم على من يحاول أن يبث فيهم روح العزة والكرامة قال لهم فرعون : أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم : أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، فلم يكذبوه ، وقال لهم : ليس لكم من اله غيرى • فقالوا : أنت الاله •

ان موسى عليه السلام ، بعث فى غير أرض مصر ، ولما دعا فرعون وملأه الى دخول الحق ما آمن معه الا قليل وخرج باليهود ناجيا بهم ، وكانوا قد تمرسوا بالذل فى أرض فرعون ، وهانت نفوسهم ، وماتت الهمة عندهم •

١٢ — ولو تجاوزنا شرقى الجزيرة العربية وشمالها وغربها ، واتجهنا الى ما وراء ذلك حيث خراسان ، وحيث البراهمة فى الهند فاننا لا يمكن أن نتصور أيضا أن تكون الهند صالحة الأن تترعرع فيها المبادىء التى أتى بها الاسلام من مساواة بين الناس ومحو الطبقات بينهم ، وأن يكونوا سواسية كأسنان المشط كما قرر الاسلام ، وكما دعا الى ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، فان الديانة البراهمية كانت تجعل الناس طبقات ، طبقة العلماء البراهمة ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الاله براهما ، وطبقـــة الجند ويزعمون أنهم خلقوا من ساعديه ، وطبقة الزراع والتجار ويزعمون أنهم خلقوا من ســاقيه ، وطبقة الخدم ، ويزعمون أنهم خلقوا من قدميه ، ووراء ذلك أنجاس الناس الذين ينجس لمسهم كل شىء •

وقد ارتضى الشعب تلك الطبقية ، وتغلغلت فى نفسه ، لأنه حسبها دينا واجب الاتباع وأوامر واجبة الطاعة ، فهـــل كان يتصور أن هؤلاء هم الذين يدعون الى مبادىء المساواة والعدل الاجتماعى ، وأن الجميع سواء أمام الله تعالى وأمام القوانين والنظم التى شرعها الله تعالى ، والناس أمامها سواء ،

وقد يتفاضل الناس فيهما بينهم ، ولكن معاملة القانون لهم واحدة ، فمن أساء فعليه اساءته ، ومن أحسن فلنفسه ، وما ربك بظلام للعبيد •

العرب أصلح الناس لتلقى الرسالة الى الكافة :

١٣ — العرب هم الذين يستطيعون تعميم الرسالة الى الأجناس كلها ، والى الأقاليم فى شتى الأرض ، لأن الرسالة العامة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تعم بقاع الأرض فى الأجل القصير الذى عاشه فلابد أن يحمل تبعة التبليغ من بعده قوم شداد ، وليسوا غلاظا لكن أقوياء متراحمون ، وقد توافرت عدة عناصر فجعلتهم المختارين لتحمل عبء التبليغ بالرسالة العامة :

أولها — أن العرب لم يخنعوا ولم يذلوا لملك أو طاغيــة كما ذكرنا ، بل كانت الحرية طبعا فيهم ، ولم تتكون فيهم الطاعة للحكام التى كانت فى غيرهم ، وصحراؤهم عودتهم قوة النفس والجلد ، وتحمل الشــدائد ، مع ضمير نقى خالص وقوة شكيمة ، وأن الحضــارات وترفها تولد فى النفس رخاوة لا يكون معها قدرة على التحمل والصبر على الشدائد •

وثانيها — أن الأرض العربية ابان ذلك لا مطمع فيها لمستعمر كما أشرنا ، ولا يستطيع مسيطر أن تستغرق سيطرته جميع العرب ، فكانت الأرض العربية حصنا يمنع الغزاة ، وكانت النفس العربيــة حصنا آخر لمبــادىء الحــرية والمساواة والعدل ، ولم تركن النفوس بذل الملكية ، ولا بطغيان الأشراف ، واعتبر ذلك بحال العرب مع الدولتين اللتين كانتا تصاحبانهم ، فما استطاعت واحدة من الدولتين أن تتغلغل فى داخل الأرض العربية ، وما تجاوز سلطانهما نفوذا على بعض الأطراف العربية كنجران ، فى الجنوب وغسان فى الشمال •

وثالثها — أن العرب فيهم قوة شــكيمة وقوة خلق طبعتها فيهم أرضهم وامتــاز العربى بالسماحة والجود ، وحسن تأت للأمور ، اذا وجد الموجه ، ووجد القائد الحكيم ، فان العربى أنف ، وان أبلغ كلمة فى وصف العربى قول الامام عمر رضى الله عنه اذ يقول « مثل العرب مثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » •

وبذلك اجتمع فى العرب قوة فى النفس تقاوم ولا تستسلم ، وصفاء نفس وقوة مدارك ، احتفظوا بها فى جاهليتهم ، كمـا حافظوا عليها فى اسلامهم ، وذلك مع صدق النفس ، والصدق فى القول ، وصدقهم فى القيام بالعمل الذى يوجهون اليه ٠

وكانوا مع ذلك ذوى أنفـة ، لا يطيقون أن يعيشوا فى ذلة ، بل يتبعون فى هداية ورشد مختارين غير مجبرين ، ولقـد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهـذبت نفوسهم وبدت سجاياهم ، وشقوا بها طريق النـور فى وسط الظلمات ٠

١٤ ــ ان الدعوة الاسلامية تحمل فى مغزاها ، أمرين جليلين ، والعرب أصلح الأقوام فى عصر الرسالة المحمدية لحملها :

أولهما : العقيدة الاسلامية ، وهى عقيدة التوحيد ، وأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ٠

ثانيهما : الشريعة الاسلامية التى تقوم على مبادىء العدل والمساواة ، والعزة والحرية ، والكرامة الانسانية ، وقد أشرنا فيما مضى من قولنا الى أن أصلح الناس فى عصر البعثة المحمدية لتلقى مبادىء الحرية والعزة والكرامة والمساواة هم العرب الذين لم يرهقهم ذل الطاعة للطغاة ، بل اقتضى مطلب العربى أن يعيش حرا فى خبائه آمنـا فى سربه ، لذته فى أن يستقبل الحر ، ويستبرد بالظل والريح ، وما دام عنده قوت قومه فعنده الدنيا بحذافيرها ٠

ولم يكن العربى قد خضع لعادات أهل الحضارات من رخاوة فى العيش أورثتهم رخاوة فى الجسم والنفس ، ولم يكن عندهم تقاليـد وعادات حضرية تقف محاجزة بين الدعوة وتغلغلها فى النفوس ، وسيطرتها على القـلوب ، فنفوسهم على الفطرة أو أقرب اليها ، فهى كالصفحة البيضاء صالحة لأن تخط فيها خطوط العدل والمساواة ، والحرية بكل ضروبها ٠ ومثل البدوى والحضرى المحكوم بالملوك والطغاة أو من يتشبه بهم ، كمثل ــ صفحتين احداهما خالية

بيضاء تسر الناظرين ، تخط فيها خطوط الشريعة السماوية من غير محو وازالة أولا • وهى متقبلة لكل ما يرسم ، والأخرى صفحة مملوءة بالرسوم المختلفة لا يرسم فيها الجديد النقى الا بعـد محو وازالة ، وبعدها تبقى مغبرة ، حتى يصقلها الزمان ، ويمحو منها ما أبقاه الماضى السحيق ، وما له من أثر عميق •

تلك مثل للصفحة العربية ، وهذه مثل الصفحة الرومانية أو الفارسية أو المصرية أو الخراسانية • وأن الجزء الأول ، وهو العقيدة ، وقد ذكرنا أنها الوحدانية ، وحدانيـة الله سبحانه وتعالى والايمان به سبحانه ، ونقول ان العرب فى عصر البعثة المحمدية كانوا أصلح الناس قاطبة لحمل دعوة التوحيد لذات الله تعالى وصفاته ، لأن الشرك كان يعم النفوس ، فالرومان كانوا على مقربة من عبادة التماثيل ، ولمـا دخلت النصرانية أرضهم شوهوها قبـل أن يدخلوا فيها ، فعبدوا الثالوث المقدس فى زعم النصـارى ، ولم يعرفوا الله الا وله ولد ، ومعهما روح القدس ، ومثلهم فى ذلك أهل مصر ومن وراءها من غرب أفريقية •

والفرس كانوا يعبدون النار ، ويتصورون أن المعبود فى النار المشتعلة وكان من ورائهم فى مشارق الأرض الديانة البراهمية التى آل أمرها الى أن كانت تعبد كرشنو ، على أنه مولود براهما ، وذلك مع ما ذكرنا من أن الطبقية متغلغلة فى اعتقادهم على أنها جزء من الدين لا ينفصل عنه •

والبوذية التى انبعثت من البراهميـة ، وفارقتها ، وخلصت الى مبـدأ المساواة وهجرت الطبقية وقامت على الزهد المانع لما تتقاضاه الفطرة وتتطلبه ، ولكن آل أمرها الى وثنية ؛ فقد صار بوذا يعبد فيها على أنه ابن الاله ، كما كان الأمر بالنسبة لكرشنو •

ويلاحظ أن هذه الديانات كانت فى بلاد لها حضارة وفيها تقاليد ، فالعقائد فيها راسخة ثابتة عميقة فى النفوس متغلغلة فى أجزائها ، والقلوب مملوءة بها ، لا سبيل لتغييرها بيسر ، بل انها تأشبت فى النفس واستغرقتها ، وتحتـاج

لاخراجها منها الى زمان قد يمتد ، لأن الزمان قد ثبتها ، فتحتاج الى زمان لازالتها .

١٥ — والنفس العربية كانت أقرب الى الاستجابة لدعوة التوحيد من غيرها من الذين ذكرناهم ، وذلك لأن العرب وان كانوا وثنيين ، كانوا أقرب الى التوحيد من الفرس والرومان والمصريين ، البراهمة وغيرهم .

اذ أنهم لم يكن لهم عقيدة مستقرة ، كما لم يكن لهم عادات وتقاليد فى نظم الحكم لا تتسع للحرية والنظم الاجتماعية التى جاء بها القرآن ، بل كانت عقائدهم فى الأوثان غير متغلغلة فى أعماق نفوسهم ، كعقائد النصارى فى الثالوث ، وعقائد الفرس فى النار ، وعقائد الصابئة فى النجوم ، وعقائد البراهمة فى براهما ، وكرشنو ، وعقائد البوذيين فى بوذا ، بل كان الغشاء الذى يغشى صفحة الاعتقاد فى نفوسهم واهيا غير صفيق ، وغير ملاصق للنفوس بحيث يصعب فصله عنها .

وذلك فوق أنهم يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شىء وحده ، وأنه الفاعل المختار ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وكانوا اذا حزبهم أمر لا يلجأون الا اليه واذا مسهم مرض لا يدعون غيره ، كما قال الله تعالى : ((**واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون**)) ويقول تعالى : ((**هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون**)) .

ويقول سبحانه وتعالى آمرا نبيه بمخاطبة العرب المشركين : ((**قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل** .

أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون »
وان هذه الآيات الكريمات تدل على أن العرب كانوا يؤمنون بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ، وهو المدبر ، وهو المنجى عند مشارفة النفس الى التهلكة ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه لا أحد من شركائهم ، وهم الأوثان ، فى قدرته أن يفعل ما يفعل الله الحكيم العليم ، وأنهم يتجهون اليه وحده فى شدائدهم ، وما ينتابهم من كوارث .

ويدل أيضا على أن عقائدهم فى الأوثان تصيب صفحة النفوس ، ولا تتغلغل فى أعماقها ، ولذلك قال الله تعالى عنهم « **وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » .

وعقيدة الوحدانية فى كمالها تتضمن عناصر ثلاثة ، وهى وحدة التكوين والخلق ، فالله وحده الخالق المدبر لكل شىء ، ووحدة الذات فلا يماثله فى ذاته وصفاته أحد « **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » والعنصر الثالث من الوحدانية ألا يعبد سواه سبحانه وتعالى .

والعنصران الأولان ثابتان عند العرب ، فهم يذعنون لارادة الله وحده فى الخلق والتكوين ويعلمون أنه لا شىء يشابه ذاته الكريمة .

ولكن مع اقرارهم بوحدانية الخلق والتكوين والذات والصفات يشركون فى العبادة مع الله تعالى الأوثان « **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** » ولكنهم يقولون مع ذلك : « **وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »

١٦ ـــ وعلى ذلك نقرر أن العرب دون غيرهم من معاصريهم كانوا يعرفون

الله سبحانه ، ويعرفون أنه وحده الخالق ، الفعال لما يريد ، وأن ذاته الكريمة منزهة عن مشابهة الحوادث ، وأن صفات الذات العليـة منزهة عن أن تكون كصفات الناس أو الأشـياء ، واذا كانوا منحرفين الى الوثنية فان ذلك فى العبادة .

ومن السهل أن تثبت لمن يعرف الله بطلان عبادة غيره ، فان ذلك أسهل بلا ريب عن حمل من لا يعرف الله تعالى على الايمان به ، لأن الأول لا يحتاج الا الى خطوة واحدة وهى بطلان عبادة الأوثان مع الله الخالق المدبر السميع البصير ، وأن هذا يؤيده الحس لأن الحجر لا ينفع ولا يضر .

أما الآخر ، فانه يحتاج الى السير فى خطوتين : احداهما — أن تعرفه بالله تعـالى أنه وحده الخالق ، لا الشمس ولا النجم ولا النـار ، وليس لواحد من هـذه الأشـياء قدرة على الخلق والتـكوين ، وليس ذلك سـهلا على الواعظ المرشـد ، ودخوله الى العقول الجاحدة أشد صـعوبة ، والخطوة الثانية اثبات وحدانية المعبود ، وليست فى صعوبة الأولى ، ونقرر هنـا أن الذين يقولون أن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولون أن لله ولدا ، لا يعرفون ذات الله تعالى ، ولكى يقنعهم المرشد الى وحدانية الله تعالى يحتاج أولا الى التعريف بالله تعالى وصفاته ، وتلك خطوة ، ويحتاج ثانيا الى نفى البنوة ، ثم يثبت الوحدانية .

وأن العرب كانت فيهم بقية من الحنيفية ديانة ابراهيم ، وقد وصلتهم به الكعبة ومناسك الحج ، فان البيت الحرام الذى كان مثابة للناس وأمنا قد بناه ابراهيم وابنه اسماعيل ، وقامت مناسك الحج على أساس من شريعة ابراهيم عليـه السلام ، فكانت بذلك لهـا نوع من الاستمرار ، ولقد كانوا يقومون بالاحرام ، كما فرض فى شريعة ابراهيم التحريف فى بعض ألفاظه . ليقاربوا بهذا التحريف القليل بين ما أثر عن ابراهيم عليه السلام ، وما اعتراهم من انحراف فى الاعتقاد توجه بهم الى الشرك .

واذا كانت الأصـنام قد أحاطت بذلك المعبد الذى هو أول بيت وضـع للناس كما قال الله تعالى : **« ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا »** ،

فان هذه الأصنام لم تقطع العلاقة النفسية بينهم وبين ابراهيم عليه السلام ، وان انحرفت بها عقولهم وأفكارهم وحادوا عن الجادة المستقيمة بها ٠

وان ابراهيم أبا الأنبياء هو أبو اسماعيل الذى يعتز به العرب ، وأبو اسحاق ومن جاء من ذريته من الأنبياء ، فكان الاتصال النسبى موجدا لهم عزة ، وملقيا فى نفوسهم بالتأثر الى حد بعقيدته ، وقد كانت عقيدة التوحيد الخالصة ملته ، وقد ذكرهم القرآن بذلك ، فقال تعالى :
ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » ٠

وأخيرا ان العرب بوجود الاعتراف بالخالق المنزه عن مشابهة الحوادث وبانفرادهم بمعرفته مع وجود الوثنية فيهم ، عن غير اعتقاد جازم وعلم قاطع ، بل على أنه وهم وظن لم يستغرق النفوس ، ولم يصل الى أعماقها ٠ ان العرب بهذه الحال التى كانوا عليها ، كانوا أقرب الناس لفهم عقيدة التوحيد التى هى الدعامة الأولى للايمان ، فلا ايمان بغيرها وذلك مع استعدادهم لكل مبادىء الاسلام ، فلا غرابة اذا انبثق نور الاسلام فى أرض العرب ، وهبط الوحى بين ظهرانيهم ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ٠

تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

١٧ ــ فى التمهيد بينا أن دين محمــد كان دين الانسان فى كل بقــاع الأرض ، وأن العرب قد انبعث فيهم نور الاســلام لأنهم كانوا أكثر الناس قابلية لمبادئه ، وأصلحهم لحمل أعباء التبليغ بعد محمد صلى الله عليه وسلم •

وأن صاحب الرسالة الالهية هو خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن تكون دعوته متضمنة معنى الوحدة الاســلامية ، وأن يكون خطابه الناس كافة لا للعرب وحدهم ، وان كان بلسان قومه العرب ، وأول من تلقى الدعوة العرب أنفسهم ، وكانوا أول المخاطبين بها كما قال عليــه الســلام فى خطابه لعشيرته الأقربين « انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة » •

ولنقرأ قوله تعالى : « **لقــد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » ، وانك لتجــد النص الكريم يخص ويعم ، يخص العرب بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من أنفسهم وأوسطهم وأعلاهم شرفا ، وأنه عليه السلام يعز عليه أن يضلوا بالاستمرار على وثنيتهم وأنه حريص على أن يؤمنوا ، ويرفع عنهم جبت الجاهلية • ويعم المؤمنين أجمعين بأنهم أهــل رحمته ورأفتــه ، لا فرق بين أعجمى وعربى ، ولا أبيض ، ولا أسود ، ولا أحمر ، ولا أصفر ، لأن الجميع طبق عليهم وصف الايمان ، فالرحمة والرأفة بكل مؤمن •

وان أول من أجابوا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم كانوا من أجناس مختلفة ، لا من العرب وحدهم • روى الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : « أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخديجة ، وبلال ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، والمقداد بن الأسود » وليست رواية الامام أحمد فى بيان أول

الناس اسلاما ، انما هى فى بيان أول من أظهر الاسلام وأعلنه جهرة أمام قريش مصابرا لأذاهم .

ويلاحظ أن أولئك يمثلون عناصر انسانية مختلفة ، ففيهم الرجال والنساء، وفيهم الأشراف والضعفاء ، وفيهم الأحرار ، ومن كتب الله تعالى عليهم الرق ، وفيهم العربى والحبشى الأسود ، والرومى من بنى الأصفر ، فيهم بلال الحبشى وفيهم صهيب الرومى الذى قال فيه محمد صلى الله عليه وسلم : « صهيب سابق الروم » .

وورد فى بعض الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل نبى بعث فى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأن بلالا أول ثمار الحبشة ، وأن صهيبا أول ثمار الروم » .

وعندما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة التقى بأول ثمار فارس سلمان الفارسى الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت » .

فمحمد عليه الصلاة والسلام لا يكتفى باعلان الوحدة فى شكلها الاسلامى العام ، بل يعمل على ادماج الناس بعضهم مع بعض بالموالاة ، فكان سلمان بحكم الموالاة لمحمد من آل البيت .

وهكذا نجد عموم الدعوة فى الواقع المحسوس ، ولا يكتفى بالقول المكتوب ، أو الخطاب المسموع ، بل يكون العمل هو الميزان الثابت .

١٨ ــ والنبى صلى الله عليه وسلم لم يحقق الوحدة بدعوته فقط . بل نبتها وأكدها وقواها طول حياته عليه الصلاة والسلام بعد البعث وذلك أولا ــ باتصاله عليه الصلاة والسلام بالدول المختلفة ، ولقد ذكر ابن القيم للدعوة المحمدية خمس مراتب :

أولاها : النبوة ، وثانيتها : انذار عشيرته الأقربين ، وثالثتها : انذار قومه ، والرابعة : انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة ،

ويقول ابن القيم : الخامسة : انذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس الى آخر الدهر ، وأقام صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يدعو الى الله تعالى مستخفيا ، ثم نزل عليه ((**فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين**)) فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة وجاهر بها قومه فقابلوه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن الله لهم بالهجرة .

ولنشر بكلمات مبينة لهذه المراتب ، وصلتها بالوحدة الاسلامية الجامعة :

فأولاها : النبوة — كما سمى ابن القيم المرتبة الأولى ، وهى التى أعلم فيها محمد صلى الله عليه وسلم مبعثه من الله تعالى لخاصته ، وصفوة أصدقائه من أمثال أبى بكر ، ومن دخلوا معه فى دين الله تعالى ، من ذوى الثقة بالنبى صلى الله عليه وسلم الذين أدركوا موضع الحق فى دعوته عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم من نفوسهم الطاهرة المخلصة ما أدركوا الحق بمجرد التنبيه اليه ، وبيان نوره بين أيديهم من غير تلكؤ ، بل كان يكفى لأمثالهم أن ينبهوا الى أن ما هم عليه من عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ليعلموا الهدى من الضلال ، والحق من الباطل ، وكان هؤلاء الذين استجابوا للحق لذات الحق ، مطرحين الباطل الذى علموا بطلانه .

وكانوا يستخفون بعبادتهم ، وبما أخلصوا به لله تعالى ، وكانوا يجتمعون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، واسمه عبد مناف ، ويقول علماء السيرة الشريفة أن عدتهم لم تكن تجاوزت الأربعين أو ذرفت نحوها .

وكان يتمثل فى هؤلاء الأربعين — أو من دونهم عددا الذين آمنوا بالحق بمجرد انبلاجه — المجتمع الاسلامى المؤتلف فكان فيهم قرشيون من كل بطون قريش ، وكان فيهم الأعاجم ، فكان صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وكان فيهم الأشراف كأبى بكر وعثمان وطلحة بن عبيد الله ، وكان فيهم

الضعفاء الذين اختبرهم الله تعالى بالرق للذى استذل أجسامهم ، ونفوسهم أعلى من نفوس الأحرار كصهيب وبلال ، وعمار بن ياسر وأبيه وأمه سمية الذين أوذوا فى الله من بعد ، حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا مر عليهم يقول : « صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » .

أولئك كانوا المجتمع الأول للاسلام ، وهو مجتمع صغير يصور المجتمع الكبير بعد أن دخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا ، وبعد أن شرقت الدعوة الاسلامية وغربت .

وأولئك هم الذين كانوا الأبدال الأطهار الذين كان علو الاسلام بايمانهم .

١٩ — المرتبة الثانية من مراتب الدعوة ، جاءت بعد الأولى ، وكان فيها عدد المؤمنين ينمو قليلا ويقوى كثيرا ، وقد مكث الاستخفاء كما يقول ابن القيم نحو ثلاث سنين ، الدعوة فى كن ساتر ، وخلايا تتولد فيها النفوس ، حتى اذا قوى الاسلام فى خليته الأولى بقوة النفوس ، أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع بالحق ، ليشق بنوره ظلمات الجاهلية ، فقال عز من قائل : ((**فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**)) .

وقد ابتدأ النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عشيرته الأقربين استجابة لقوله تعالى : ((**وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع العليم**)) .

وان هذا النص الكريم مع ما سبق يدل على أمرين :

أحدهما — أنه تكونت جماعة الحواريين الذين كانوا يستخفون بعبادتهم

ولا يستعلنون ، وان كانوا مستيقنين مذعنين مؤمنين ، أخـذ يتجه الى الأقرب فالأقرب من المتصلين ، لتكون الدعوة سارية بسنة التدرج فتكون للأقرب ، وتتسع دائرتها شيئا فشيئا ، حتى تعم العالم كله .

الأمر الثانى — أن الابتـداء بالعشيرة لا ينفى أن الأولين هم قوام الدعوة ، وان كان فيهم ضعفاء ، ولذا قال سبحانه : ((**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**)) وكررها فى الآيات الثانية ، والآيات الاولى ليبين سبحانه أن دعوة الأشراف لا تنسى الضعفاء ، وأنه يجب تأليف القلوب عامة . وتقريب النفوس كما قال تعالى : ((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**)) .

والمرتبة الثالثة قريبة من المرتبة الثانيـة ، لأنهـا لقومه ، والقوم هم الأسرة الأوسع ، كما أن العشيرة هى الأسرة الأقرب ، وبذلك تتدرج الدعوة من الأسرة الصغرى الى الأسرة الكبرى ، وقال تعالى : ((**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم**)) .

وفى الأمر بالتوكل من قوله تعـالى : ((**وتوكل على العزيز الرحيم**)) وقوله تعالى : ((**عليه توكلت**)) اشـارة الى أن الابتداء بالعشيرة وقومه ، لا للنصرة بهم ، لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم ، انما هو للتدرج فى الدعوة من القريب الدانى الى البعيد النائى ، ولتأليف الجماعات المتنافرة .

ففى دعوة قومه من قريش يحاول تأليف البطون المختلفـة من بطون قريش المتنافرة ، وفى اتباع بعض هؤلاء متناسين تنافر العصبية الأولى — انشاء للوحدة ، وتأليف للقلوب .

وفى المرتبة الرابعة كانت الدعوة للعرب الذين ما أتاهم من نذير من قبل محمد صلى الله عليـه وسلم ، وليس المعنى أنهم لم يأت اليهم نبى من قبل لأن الله تعالى يقول : ((**وان من أمة الا خلا فيها نذير**)) ، وانما المعنى أن

النبى صلى الله عليه وسلم جاءهم على فترة من الرسل ، ونسوا التوحيد والبعث والنشور ، وان لم ينسوا الله .

وقد كانت الدعوة حينئذ للعرب أجمعين الذين فرقتهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم العصبيات المتنازعة ، وكان لابد أن يلتقى بالقبائل ، ويخرج من حيز مكة الى حيث مختلف القبائل والمنازع .

التقاؤه بقبائل العرب فى موسم الحج :

وبعد أن آمن من آمن بمكة ، وعادى دعوة الاسلام من عادى ، وتحمل المؤمنون الصادقون ما تحملوا ، وآذى المشركون الضعاف من قريش الذين ليس لهم عصبية تحميهم ، ولا قرابة تدفع عنهم حتى أنه لم يمنع الأذى الشديد والاستهزاء العنيد عن بعض الكبراء ممن آمن من قريش ، وكانت الهجرة الى الحبشة مرتين ، بل مع هذا الايذاء المتضافر ، والاستهزاء المتلاحق لم ين محمد صلى الله عليه وسلم عن الدعوة ، وتكوين الائتلاف العربى الذى تمحى فيه العصبيات الظالمة والعنجهيات الجاهلية ، وأخذ يعمم الدعوة بعد التخصيص ، ويجمع القلوب المتنافرة ، والأهواء المتناحرة ، أخذ عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، ابتدأ فذهب الى الطائف فردوه عليه السلام ردا نكرا ، وبعد ذلك عاد عليه السلام الى مكة ليواجه الأذى بعد أن كلبت عليه قريش ، وأعلنت خلافه ، وناوأته وأخذت تكيل الأذى للمستضعفين ، بل لغير المستضعفين أيضا ، من أمثال أبى بكر وغيره ، من الذين آذاهم الشرك بقوة طاغوته ، وان لم يكونوا فى عشائرهم فى أنفسهم الضعفاء .

أخذ عليه السلام يتعرض للقبائل المختلفة فى موسم الحج يدعوهم الى الله تعالى ، ويثبت صدق دعوته للقبائل قبيلة قبيلة ، فيقول لكل قبيلة : « يا بنى فلان ، انى رسول الله تعالى اليكم يأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله تعالى ما بعثنى به » .

وبينما النبى يدعو القبائل بدعاية الله تعالى ، ويخاطب القبائل بدعوته

كان من ورائه من يصد عن سبيل الله تعالى ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب .

أتى عليه السلام كندة فى منازلهم فى الحج ، وأتى بنى حنيفة ، ولم يكن من هؤلاء ولا أولئك سميع يستمع الى الحق ، ويجيب داعيه ، ولم ييأس عليه السلام ، فلم يكن اليأس من ديدن الرسل المبعوثين رحمة للعالمين ، الجامعين لوحدة الانسانية ، بل استمر دائبا قاضيا بدعوته على المنازع الجاهلية والأثرة التى تفرق ولا تجمع .

يروى فى ذلك أنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم : لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب . ويظهر أنه كان ذا فراسة ولكن لم يكن موفقا .

قال مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله تعالى على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعد ، قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، قال الرجل : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، فلا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

كانت هذه الاجابة من الرجل دالة على العصبية المفرقة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء لجمع القلوب . ودالة على الأثرة القاطعة ، والأثرة تفرق ما بين الأحبة وتنأى بالأثرين عن الاستجابة للحق .

وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته الى القبائل يرغبهم فى دين الحق ، ويرغبهم فى الوحدة الجامعة للمؤمنين ، ويجابه العصبية فى مرابطها .

٢٠ — ولنذكر طرفا مما يدل على دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الى الائتلاف بدل الاختلاف ، والى الوحدانية بدل الوثنية ، جاء فى الروض الأنف فى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بنى ذهل بن ثعلبة يقول فيما روى :

دفعنا الى مجلس ، عليهم السكينة والوقار فتقدم أبو بكر ، وكان مقـدما فى كل خير ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بنى شيبان بن ثعلبـة ، فالتفت أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر فى قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك (رجال منهم) وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمـالا ولسانا وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر .

فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال له مفروق : انا لنزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

قال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

فقال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : انا لأشد ما نكون غضبا حين نلتقى ، وانا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقـاح ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ، ويديل علينا ، لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فها هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك يا أخا قريش .

فتقدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فقال : أدعو الى شـهادة أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأنى رسول الله ، والى أن تؤوونى وتنصرونى . فان قريشا قد ظاهرت على أمر الله تعـالى ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال مفروق : والام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** » .

قال مفروق : والام تدعو أيضا ؟

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والله لقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال هانىء : قد سمعت مقالتك وانى أرى ان تركنا ديننا ، واتبعناك على دينك ، لمجلس جلسته الينا — زلة فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة ، وانما الزلة تكون مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا .. ولكن نرجع وترجع ، وننظر ، وتنظر ... وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانىء ، فى تركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلسته الينا ، ليس له أول ولا آخر ، وانا بين صريان اليمامة وسماوة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذان الصريان ؟ » .

فقال المثنى : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى

فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من ميــاه العرب فذنبه مغفور ، وعذره مقبول ، وانما نزلنا على عهــد أخذه علينا كسرى أنا لا نحدث حدثا ، ولا نؤوى محدثا ، وانى أرى هذا الأمر الذى تدعونا اليه هو مما تكرهه الملوك ، فان أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى ميــاه العرب فعلنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسأتم فى الرد ، اذ أفصحتم بالصدق ، وان دين الله ان ينصره الا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم ان لم تلبثوا الا قليــلا ، حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويفرشــكم نساءهم ، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟ » .

فقال النعمان بن شريك من كبرائهم : اللهم لك ذا .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا** » .

٢١ — وقد ذكرنا هذا الخبر مع طوله ، كما ذكرنا غيره من قبله . لنعلم أن النبى صلى الله عليــه وسلم انتقل بالدعوة من حيز قريش الى العرب قاطبــة ، بدعوة عامة ، لينذر أولئك الأقوام الذين ما أتاهم على قريب من زمنه نذير من قبله ، ولأنه يريد أن يجمع على الرســالة المؤمنين جميعا ، لا فرق بين قرشى ، وغير قرشى ، ولتعم دعوته القــاصى والدانى ، ليوحد ابتداء أهل الجزيرة ما كان منهم مصاقبا للروم ، وما كان مصاقبا للفرس . وحتى تصل اليهم أخبــار النبى صلى الله عليه وسلم ، همسا ، أو حديثا بين الأهلين ، قبل أن تأتيهم الدعوة الجهيرة من شخص الرسول صلى الله عليــه وسلم ، اذ تكون بعد أن تكون النفوس قد استشرفت لها ، وتسللت اليهم أخبارها .

ولنعلم أن السبيل أمام الرسول الذى هو من أولى العزم من الرسل ،

لم يكن ذللا ، بل كان وعثا تدعثره العصبية ، والأنانية ، وغلبة الشقوة عند بعض من يدعوهم .

فقد دعا أهل الطائف فعاندوه ، ودعا بعض الوافدين الى الحج ، واختلط بالقبائل فى أسواقها فمنهم من أعرض ونأى بجانبه ، ومنهم من غلبت عليه الأثرة ، فاشترط لاتباعه أن يكون الأمر من بعد محمد فى الجزيرة العربية له ولقومه ، ومنهم من استقام للحق ، وأدرك مغزى الدعوة ومراميها وغايتها ، وقرر أن الملوك لا يقبلون مثل هذه المبادىء ، وتحفظوا فى الاجابة ذلك التحفظ لأنهم أعطوا كسرى عهدا ، ألا يحدثوا أمرا ، أو يجيبوا محدثا الا بعد أن يعرض عليه ، وقد بين لهم النبى صلى الله عليه وسلم أنه داعية يمثل دعوته وأنها دعوة عامة لأنها رسالة الله تعالى لا يعلو عليها ملك مسيطر ، ولا تجفو عن رعايا مستضعفين ، وعندئذ أحسوا بمرارة السيطرة ، وبحبوحة العزة والارادة الحرة المختارة .

وان ذلك يزكى عموم الدعوة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم على جمع الفريقين المتنابذين والمتناحرين . ولقد مكث عليه السلام يدعو العرب فى جموعهم فى أثناء موسم الحج زهاء سنتين أو تزيد ، حتى عمت الدعوة وتذاكرت بها الركبان ، وسرى أمرها فى البلاد العربية سريان النور ، ومع هذه الدعوة النبوية كانت الدعوة الى الوحدة من القرشى الذى كانت قبيلته فوق القبائل فخارا وشرفا ومحتدا ، ولكن محمدا الداعى يرى الجميع أمام الله تعالى وأمامه سواء ، لا فرق بين قبيل وقبيل ، ولا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ولا بين حر وعبد ، ولا عربى ولا كسروى .

ولقد قال ابن اسحاق فى السيرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل الى الله تعالى : والى الاسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، وهو

لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ، الا تصدى له . فدعاه الى الله عز وجل ، وعرض عليه ما عنده » .

فكان عليه السلام ما كان ينتظر موسم الحج فقط بل يتتبع الوافدين طول العام ، ولا يجد امرءا مسموع الكلمة فى قومه الا التقى به لينبىء من وراءه من الأشراف والضعفاء ، لا ينى عن جمع العرب حول كلمة الله تعالى بعد أن حملها معه الحواريون الأولون .

الى يثرب

٢٢ — فى أثناء عرض النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل كان المعارضون له أكثر من الموافقين ، والمناوئون أشد عليه ممن سالموه ، ولكن قوما من يثرب كانوا أسرع الى الايمان من المناوأة والاعتراض .

ذلك أنهم كانوا فى فرقة وانقسام ، كان الأوس فيهم والخزرج يتقاتلون ، وكانت الحرب بينهم شديدة تفرق جمعهم ، وتذهب بوحدهم فجاءوا الى مكة يعقدون حلفا ، ليعين القرشيون الأوس على الخزرج .

وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فرأى أن يستمعوا اليه بدل أن يعقدوا حلفا يزيد العداوة بينهم ، ويؤرثها ، ولا يطفئها ، فدعاهم الى الاسلام الموحد لجمعهم ، وتلا عليهم القرآن الذى نزل رحمة للعالمين .

فوجد سميعا من عدد ضئيل منهم ، ولكنه عليه السلام لم ييأس منهم لأنهم كانوا قد أوتوا بعض العلم بالنبوات ، مما جاء على ألسنة أعدائهم اليهود الذين كانوا اذا اعتركوا معهم ، وعضتهم الحرب بنابها هددوا أولئك المشركين بنبى حان حينه وأدركهم ابانه ينصرهم على المشركين .

وكان عليه الصلاة والسلام يترقب وفود الحجيج ، ويأنس بالوافدين من يثرب ويستشرفهم . ويقول ابن اسحاق : « فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع فى كل موسم ، وبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيرا .

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، فقال عليه السلام : ألا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

ويقول ابن اسحاق : كان مما صنع الله تعالى عليهم فى الاسلام أن يهود كانت فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم على الشرك واصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم ان نبيا مبعوث الآن قد أطل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعا اليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا له : انا تركنا قومنا ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله تعالى بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله تعالى ، فلا رجل أعز منك .

عادوا الى قومهم من الخزرج ، وحاولوا أن يتصلوا بأعدائهم من الأوس لأنهم جاءوا بأمر جامع لا يفرق بين العناصر بل يجمع الأخوة فى الاسلام ، فلا تكون ثمة الدعوة الجاهلية .

العقبة الأولى :

٢٣ — فى الموسم التالى جاء قوم من يثرب فيهم من الخزرج الكثيرون ، ومن الأوس من دون ذلك عددا ، وان كانوا جميعا أقوياء فى دينهم ، وكان

على رأسهم جميعا اثنا عشر نقيبا ، وقد بايعهم النبى صلى الله عليه وسلم على الأخذ بمبادىء الاسلام • وقد سمى علماء السيرة هذه البيعة « بيعة النساء » • عن عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر البيعة الأولى ، وكنا اثنى عشر ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، قبل أن يفترض علينا الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا . ولا نسرق ولا نزنى . ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا ، ولا نعصيه فى معروف • ويقول الرسول : « فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شيئا . فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء غفر وان شاء عذب » •

وعلل صاحب الروض تسمية البيعة فى العقبة الأولى ببيعة النساء . لأنها تتشابه مع ما طالب الله به من مبايعة النساء من بعد ذلك عام الفتح ، فقد قال تعالى فى سورة الممتحنة :

« يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف فبايعهن ، واستغفرلهن الله ان الله غفور رحيم » •

ويظهر على هذا أن تلك التسمية لم تكن وقت البيعة ولكن جاءت بعد ذلك لانعقاد المشابهة بين البيعتين • وذلك لأن بيعة النساء كانت بعد الهجرة اذ أنها كانت عند الفتح •

ولقد كانت تلك البيعة الطريق الى نفوذ الاسلام الى يثرب ، واتجاه أهلها اليه ، ولقد أرسل معهم صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير يعلمهم الاسلام وأركانه ويقرئهم القرآن ، ولذلك كان أول من سمى مقرئا : وشاع الاسلام فى الأوس والخزرج ، حتى أنه ما كان بيت من بيوت الأوس والخزرج الا دخله الاسلام ، فكان لمحمد صلى الله عليه وسلم تابعون يدعون بدعايته بعد أن استجابوا لندائه •

.. وهنا نجد الظاهرة الكبرى التى رحم الله تعالى بها أهل يثرب ، فقد اجتمعوا بعد افتراق وحرب ونزاع بين الأوس والخزرج ، وكان يوم بعاث الذى قتل فيه بعضهم بعضا ، والاتصال بالنبى صلى الله عليه وسلم يأخذ طريقه ، وهم يأخذون طريقهم الى الشرع الاسلامى ، فكان نور الاسلام مؤلفا للقلوب ، ومزيلا لكل العصبية الجاهلية .

وظهر على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام الجامع المؤلف للقلوب الموجه للمجتمع .

العقبة الثانية أو بيعة المنعة والحرب :

٢٤ — وتسمى البيعة الكبرى ، لأنها التى حتمت الاتصال بأهل يثرب قبل انتقال النبى صلى الله عليه وسلم ، وهجرته الى المدينة ، وقد علمنا أنه عقب البيعة الأولى أرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى أهل يثرب مصعب ابن عمير يشرح لهم الفرائض الاسلامية ، ويقرأ القرآن ويدعو الى الاسلام دينا وآخذا بقول الله تعالى « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » ومضت سنة على وفادته واقامته ، ثم عاد الى النبى صلى الله عليه وسلم ليتزود منه بزاد التقوى ، وخرج من خرج من المسلمين الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله — صلى الله عليه وسلم — من الأنصار ، وكان معهم حجاج من قومهم الذين بقوا على الشرك . ولكن اختص المسلمون منهم أنفسهم بالعمل على لقاء النبى صلى الله عليه وسلم فوعدهم عليه الصلاة والسلام أن يلقاهم بالعقبة فى أوسط أيام التشريق بمنى . وكانوا ثلاثة وسبعين .

واجتمع بهم عليه الصلاة والسلام ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذى فرض على نفسه حمايته من أذى قريش بعد عمه أبى طالب ، فقد ذهب معه يستوثق ، فلما كان اللقاء كان أول من تكلم العباس رضى الله عنه .

قال العباس : يا معشر الخزرج (يريد الخزرج والأوس) ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز

من قومه ، ومنعة من أهله ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليـه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك • وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه • فانه فى عزة ومنعة من قومه وبلده ، فقالوا : قد سمعنا ما قلت • فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت •

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا القرآن الكريم ، ودعا الى الله تعالى ، ورغب فى الاسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم » •

قال البراء بن معرور من كبرائهم : « نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرا عن كابر » •

وقال أبو الهيثم بن التيهان من كبرائهم : « يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا (يعنى اليهود) وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، ترجع الى قومك وتدعنا » •

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال « بل الدم الدم ، والهدم الهـدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » • قال ابن هشام فى سيرته « يقال الهـدم الهـدم ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم » •

وقد طلب رسول الله أن يخرجوا من بينهم اثنى عشر نقيبا ، فأخرجوا منهم أولئك النقباء ، وكان من الخزرج تسعة لكثرتهم ومن الأوس ثلاثة ، لأنهم كانوا فى الحج دونهم عددا •

وقد قال ابن اسحاق : كانت البيعة فى العقبة الأولى بيعة النساء وكان فيها « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة

علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » .

وفى البيعة الثانية ، قال ابن اسحاق : بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرب الأحمر والأسود ، وأخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل على الوفاء بذلك الجنة .

بايعهم النبى صلى الله عليه وسلم على الايواء والنصرة والمعونة ؛ وكان أول من مد يده للبيعة البراء بن معرور ثم تتابع الإثنــا عشر نقيبا ، ومن وراءهم ، حتى تمت البيعة ، واستوثق صلى الله عليه وسلم لنفسه ولدينه .
وجمع الله تعالى المختلفين ، وألف بذلك بين قلوبهم .

الهجرة

٢٥ — أخذ المسلمون يذهبون أرسالا الى المدينة (يثرب) زرافات ووحدانا فارين بدينهم من الأذى والفتنة ، وتتابعوا فى ذلك ، والأنصار من الأوس والخزرج يؤوونهم وينصرونهم •

وقد هاجر الكثيرون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم من هاجر مستخفيا ومنهم من هاجر فى غير خفاء ، ولكن غير معلنين ، الا عمر بن الخطاب ، فانه استعلن هجرته ، وخرج الى ظاهر مكة وقد لبس لأمته وشد عنزته ، وقال : شاهت هذه الوجوه ؛ وأرغم الله تعالى هذه المعاطس ، من أراد منكم أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى • كما قال عنه على كرم الله وجهه فى ذلك •

والنبى قد علم أنه مهاجر لا محالة ، ولكنه ينتظر اذن ربه ، وكان صاحبه أبو بكر يهم بالهجرة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يؤجله فيستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فيها فيحجزه ، وقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا » فطمع أبو بكر فى أن يكون صاحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك استأنى ، حتى أذن للنبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة عقب اجتماع الملأ من قريش ليتشاوروا فى أمره بعد أن تسامع العرب بدعوته ، ووجد المستجيبين وخصوصا من الأوس والخزرج ، وكانت بعض القبائل تتسارع اليه ، وان لم تكن فى قوة أهل يثرب الذين أحسنوا له المقام ، وآووا ونصروا •

اجتمع الملأ من قريش فى دار ندوتهم ، ودارت بينهم المناقشة : أيقتلونه أم يخرجونه ، أو يثبتونه (يحبسونه) ؟ وانتهى أمرهم الى أن يقتلوه بأن يضربوه ضربة رجل واحد ، حتى تتوزع القبائل دمه • فتعجز عن الثأر

أسرته وتقبل الدية ، ويذهب ما أهمهم من أمره ، وهذا هو ما أشار اليه الله تعالى فى قوله : ((**واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين**)) كانوا يدبرون فى أمر القضاء على الدعوة بأى طريق من طرق القضاء ، والله سبحانه مدبر أمر رسالته وحافظ رسوله الأمين ، ليؤدى الرسالة .

وقد هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أن أخذوا فى تنفيذ ما استقر رأيهم عليه واعتزموه الى آخر ما هو مذكور عن الهجرة النبوية ، وما اكتنفها من صعوبات ، فى تنفيذها وما انتهت اليه من استبشار المؤمنين بمقدمه المبارك على أهل يثرب .

وان الذين يقرنون الأزمان بالوقائع التى كانت فيها يحسبون أن السبب هو ارادة القتل ، لأن الهجرة اقترنت بها .

ويجب أن نقول أن الاقتران الزمنى هنا لا يفيـــد أن ارادة القتل هى السبب الباعث المباشر ، بل انه مجرد اقتران زمنى ليس فيه سبب ومسبب وأن السبب هو أن أرض مكة ، وان كانت صالحة لتربية الخلية الأولى لأنصار الدعوة ، فليست صـــالحة لحياتها وقوتها وسيطرتها بحيث تتكون منها دولة الاسلام الأولى ، فان الخلية الأولى تكونت لأنه كان بمكة ضعاف أقوياء فى ايمانهم ولكنهم قليل بجوار أهل مكة ، فكانت غير صالحة لأن تقوم فيها دولة اسلامية ، لأن السيطرة عليها كانت للوثنيين .

وكان زعماؤها قد سيطرت عليهم العصبية والرغبة فى بقـــاء سيطرتهم وألا يحكمها دين غير ما ألفوا مما عبد الآباء .

هذا هو الأمر ، ولذلك اتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى الخروج من البلد الحرام . وان كان أحب بلاد الله تعالى اليه وآلفها له ، وهى فى نفسها أرض مباركة وان كان الشرك يقيم فيها .

أخذ النبى صلى الله عليه وسلم فى السنتين اللتين سبقتا الهجرة يدعم

دعائم تكوين الهجرة بل تكوين دولة أخرى خارج مكة ، واتجه الى يثرب ، وما كانت البيعتان الا تمهيدا للهجرة النبوية ، فكانت البيعة الأولى لبث النظم الاسلامية ، التى يقوم عليها بناء الدولة القويمة المانعة للفواحش فان هذه الفواحش التى تمت البيعة على أساس ابعادها ، انما هى انهيار للأخلاق ، والدولة الفاضلة لا تقوم على بنيان منهار تخر قواعده من الأخلاق الفاسدة .

والبيعة الثانية كانت لتكوين الدولة بالذود عن حياضها ، وفى الحق أن البيعتين كانتا لتكوين الدولة الفاضلة ، أو المدينة الفاضلة ، كما يعبر الفلاسفة ، فان الدولة تقوم على الحماية الذاتية : وأن تكون لها شوكة ، وأن محاربة الفساد فى الداخل ، والعدو فى الخارج هما الدعامة لتكوين دولة لها قوة تحمى الذمار .

وأن الهجرة كانت أمرا لازما لتنفيذ أحكام الاسلام الشرعية فى المدينة والأسرة ، وما يمكن محمدا صلى الله عليه وسلم والسلطان ليس فى يده أن يقيم دولة تنفذ الأحكام الشرعية فتمنع شرب الخمر وتعاقب عليه وتحد الزانى والسارق والقاذف ، وتقتص من الجانى فى عدالة من غير وكس ولا شطط .

٢٦ — كانت الهجرة اذن أمرا لا بد منه ، وهى دور من أدوار الدعوة الاسلامية ، ودور من أدوار تكوين الوحدة الاسلامية ، يجتمع المسلمون جميعا فى دولة اسلامية لا تحكمها العصبية الجاهلية ولا الغطرسة الجاهلية ؛ ولكن يحكمها عدل الأحكام الشرعية القائم على المساواة فى الحقوق والواجبات .

ولقد أوجب القرآن الكريم على كل مسلم أن يهاجر الى حيث المجتمع الاسلامى الذى يحكم بحكم الله لا بحكم الطاغوت ، وأن الأقليات الاسلامية التى تكون بعيدة عن المجتمع الاسلامى الموحد يجب عليها الهجرة اليه لتعتز بعزته ، ويقوى هو بانضمامها ، وهجرتها ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك يحث على الهجرة المستضعفين :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا • الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا • فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا • ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » •

وان هذه الآية الكريمة توجب على المسلم الهجرة الى الجماعة الاسلامية حيث النصرة والمنعة ليعيش فى عزها ويستظل بظلها ، وأنه يظلم نفسه ان لم يهاجر الى حيث الجماعة الاسلامية الا أن يكون من الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا • وتدل الآية أيضا عن أن من خرج مهاجرا الى الله تعالى لنصرة الجماعة الاسلامية ثم أدركه الموت ، فان الله مجازيه على نيته التى صحبها العمل ، وأجره عليه سبحانه •

وأن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، علمت كل مستضعف من المسلمين الطريق الى الجماعة ، وهى الهجرة ، حيث الوحدة ، والعزة المانعة •

وأن الدخول فى الولاية الاسلامية التى هى الجماعة الاسلامية وحكومتها سبيله الهجرة ، وانها واجبة ، ويقول سبحانه وتعالى : **« والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق »** •

وأن الميثاق يجب أن يكون متناولا حماية المسلم ، فليس لحاكم مسلم أن يعقد ميثاقا مع أى جماعة اسلامية يكون فيها تسليم المؤمن أو خذلانه ، والا نبذ عهده ، ورد اليه ميثاقه ، فالاستثناء لكيلا يكون القتال قبل التذكير بالميثاق فان لم يمتنع عن ظلم المسلم ، رد اليه عهده ، ونصر المسلم « فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يسلمه ، ومن كان فى عون أخيه كان الله تعالى فى عونه » •

ومن هذا نجد أن الهجرة التى ابتدأها النبى صلى الله عليه وسلم انما هى لتجميع المسلمين فى ظل دولة الاســلام ليحمى المؤمن ، ولينفــذ أحكام الله تعالى ، وليطرح حكم الطاغوت قويا أمينا .

فكانت هجرة النبى وهجرة من اتبعــه ، كانت فى سبيل تكوين الوحدة الاسلامية وحمل راية الجهاد مجتمعة مؤيدة بروح من الله تعالى وبعزة الوحدة التى لا تفرق ، ولذلك دعا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم المؤمنين الى الهجرة حيث النصرة والمنعة ، فقال تعالى : « **الذين آمنوا وهاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون** » .

وبهذا يتبين أن التجمع الاسلامى فى ظل دولة الاسلام هو أساس العزة الاسلامية للمستضعفين فى الأرض حيث ينقلون الى دولة التوحيد ، وهذا كله يدل عليه ظاهر القرآن ، ويدل عليه مقصد الاسلام من تجميع المسلمين .

٢٧ — وقد وردت الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم بأنه منع من اقامة المسلم بين المشركين ، فقد جاء فى كتاب (زاد المعاد فى هدى خير العباد) لابن القيم ما نصه :

« منع رسول الله من اقامة المسلم بين المشركين اذا قدر على الهجرة ، وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قيل : يا رسول الله ، ولم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تراءى ناراهما » وقال عليه الصلاة والسلام « من كان مع المشرك وسكن معه فهو مثله » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تنقطع الهجرة ، حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجرا ويبقى فى الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقذرهم نفس الله ، ويحشرهم مع القردة والخنازير » .

وأن هذه الآثار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم تبين مع الآيات الكريمات الدالة على وجوب الهجرة للقــادرين عليــها . والا كانوا ظالمين

لأنفســهم ، ولا يرفع الاثم الا عن المستضعفين الذين لا يســتطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا •

وقد يقول قائل : كيف يأمر القرآن بالهجرة المستمرة وبالخروج من بين غير المسلمين والاقامة بين المسلمين لمعاونة جمعهم ، وليستظل بلوائهم ولتكون موالاة المسلم وحده ، وقد ورد فى بعض الأخبار عن النبى صلى الله عليــه وسلم أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » ونقول فى الجواب عن ذلك : ان ذلك الخبر لا يمكن أن يكون معارضا للأخبار المتضافرة عن النبى صلى الله عليه وسلم التى روينا ، ولا معارضا للقرآن الكريم وانه لكذلك غير معارض ، لأن الفتح فى الخبر المراد به فتح مكة ، وأن الهجرة التى نفاها النبى صلى الله عليه وسلم هى الهجرة من مكة الى المدينة ، وهى بلا ريب منفية فى موضوعها وذاتها ، لأن الهجرة من مكة الى المدينــة كانت من أرض الشرك الى أرض التوحيد ، ومن أرض الفتنة الى أرض الأمن ، وبعد الفتح صارت مكة أرضــا اسلامية خاضعة للولاية الاسلامية فى المدينة ، والاسلام قد أرز اليهــا ، واطمأن بها ، وبقى أنها حرم الله تعالى الآمن ، وقبلة المسلمين الى يوم القيامة، فكيف تكون منها هجرة من بعد الفتح ، الا أن يراد تخريبها ، هى أحب أرض الله تعالى اليه سبحانه ، والى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، فالنفى الذى ورد فى الخبر عنه عليه الصلاة والسلام مقرر لأمر ثابت ، وهو أنه لا يتصور بعد الفتح هجرة من مكة الى المدينة •

وخلاصة القول فى باب الهجرة الذى لا نقصره على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من بسط القول • وانما نقصد هجرة المسلم الى أرض الاسلام ليكون التجميع الاسلامى الذى تقتضيه الوحدة المقررة الثابتة، والتى عمل لها النبى عليه الصلاة والسلام • من وقت مبعثه الشريف الى أن قبضه رب العالمين اليه •

ما بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم :

٢٨ ــ ونعود كما بدأنا الى هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأينا أنها كانت لتجميع المسلمين ولاقامة دولة اسلامية تنفذ أحكام الاسلام ،

وتقيم الحدود ، وتأخذ من الظالم للمظلوم ، وانها سنة التجميع التى سنها النبى صلى اللّٰه عليه وسلم • ونعود الآن الى آثار الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم •

وهنا نجد أن أول أثر لها كان جمع العرب فى صعيد واحد متآلف بالوحدة الاسلامية • فقد كان المسلمون من عناصر عربية مختلفة من كل بطون مكة • ففيهم من يمثل كل بطن من بطون قريش ، وفيهم من قبائل العرب الذين دخلوا فى الاسلام فى أثناء عرض النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل ، فكان كل مسلم من أى قبيلة يجد أن من كمال ايمانه أن يعيش فى بيئة الاسلام ، ومدينة يثرب التى صارت مدينة الاسلام ومجتمعه الذى أرز المسلمون جميعا من بلاد العرب شمالها وشرقها وجنوبها • وقد رأيت خبر الذين يجاورون كسرى فى أرضهم ، وأنهم ارتبطوا معه بالمواثيق ، وما تحللوا منها أو هموا بالتحلل منها الا أن علموا أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة • وتلا عليهم الرسول النص القرآنى الذى يصرح بأنه مبعوث للناس كافة بشيرا ونذيرا •

وقد جاء الى المدينة من أسلم من غير العرب ، وحسبك أن يكون سلمان الفارسى الممثل لأهل فارس فى الاسلام ، وقد روينا لك قول النبى صلى الله عليه وسلم الذى يفيد أن أول ثمرة من ثمار الروم صهيب ، وأول ثمرة من ثمار الحبشة بلال ، وانا بالقياس نقول ان أول ثمرة من ثمار الفرس بل ما وراء خراسان وما وراء النهر وسمرقند هو سلمان الفارسى ، وحسبه شرفا وفضلا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، ألحقه بأسرته اذ كان قد ترك أسرته المجوسية ، ودخل فى الاسلام الأسرة الكبرى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » ، وهما من اضافة النبى صلى الله عليه وسلم ، ونعما ذلك التكريم لسلمان الذى كان فى صدر الاسلام أمة وحده •

المؤاخاة :

٢٩ — كان لابد من جمع العناصر المختلفة ، والمزج بينها ، ليخرج من تلك العناصر مزيج متحد فى خواصه وأوصافه ، ويختلف عن أوصاف كل عنصر

من عناصر ذلك الممتزج ، والأوصاف الجديدة لهذا المزيج هى أمة اسلامية موحدة فى الغاية والمقصد والاتجاه الى الله تعالى ، والقيام بالاصلاح فى الأرض . ومنع الافساد فيها ، وأن يكونوا أهل المدينة الفاضلة الانسانية .

وأول عمل قام به عليه الصلاة والسلام هو مزج هذه العناصر بعضها ببعض وايجاد قوة متآلفة من بينها الاخاء أو المؤاخاة بين المسلمين جميعا ، عربهم ، وأعاجمهم ، وأبيضهم وأسودهم .

فلم يكن الاخاء لمجرد المؤانسة بينهم ، وايناس الغريب بمن آواه ، وان كان ذلك فى ذاته غرضا مقصودا ، ولكن المراد من الاخاء وضع الدعامة لبناء وحدة اسلامية متجمعة غير متفرقة ، ومتحدة غير منقسمة ، ومؤتلفة غير متنافرة . وفوق ذلك فيه بث روح المعاونة بين أولئك المؤتلفين ، وذلك بتكوين أخوة دينية تقارب الأخوة النسبية .

اجتمع فى بيت أنس بن مالك المهاجرون والأنصار ، وقد أحصى ابن القيم عددهم فقال انهم تسعون ، منهم من المهاجرين خمسة وأربعون ، ومن الأنصار مثلهم ، ونحسب أن الاحصاء مقرب لا معين ، لأنهم قد يزيدون .

وقد ألف بين كل واحد من المهاجرين ، وأخ له من الأنصار بأخوة تكون مثل أخوة النسب ، وكان الأخ الأنصارى يشاطر أخاه ماله ، وتغلغلت الأخوة فى النفس ، حتى هم بعض الأنصار ممن له زوجتان أن يطلق احداهما ويزوجها لأخيه المهاجر . كما تذكر كتب السيرة أن تلك المؤاخاة كانت تجعل الأخ بالمؤاخاة فى رتبة الأخوة النسبية .

واستمرت حالة الميراث على ذلك الى أن نزل قوله تعالى : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** » .

ونحسب أن آيات المواريث مع هذه الآية كانت هى المنهية للتوارث بالمؤاخاة .

٣٠ — المؤاخاة رويت فيها روايتان ، أولاهما : أنها كانت بين المهاجرين والأنصار فقط ، ولم تكن فى المهاجرين فيما بينهم ولا فى الأنصار فيما بينهم ، وهذه الرواية تجعل المؤاخاة كانت موضعية فيما بين الأنصار والمهاجرين لكى يتم الايواء ، وليتحقق قول الله تعالى فى الأنصار والمهاجرين : « **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون** » •

الرواية الثانية أن النبى صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض ، وقد ضعف هذه الرواية ابن القيم فى زاد المعاد ، وقال فى ذلك : قيل انه آخى بين المهاجرين بعضهم وبعض مؤاخاة ثابتة واتخذ فيها عليا أخا لنفسه •• والثابت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد المؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين لكان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه رفيقه فى الهجرة وأنيسه فى الغار ، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال فيه : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الاسلام أفضل » وفى لفظ : « ولكن أخى وصاحبى » •

وهذه الأخوة فى الاسلام ، كانت عامة ، كما قال النبى « وددت أن أرى اخواننا ، قالوا : ألسنا اخوانك ! قال : أنتم أصحابى ، واخوانى قوم يأتون من بعدى ، يؤمنون بى ولم يرونى » ، فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، فالصحابة لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، ولأتباعه من بعده الأخوة دون الصحبة •

وقبل أن نراجع بين الروايتين ، ونناقش منطق ابن القيم رضى الله عنه نقول : ان النبى صلى الله عليه وسلم عد المتبعين له الى يوم القيامة اخوانا

له ، واذا كان المؤمنون من أتباعه الذين عاصروه ، خصهم بفضل الصحبة ، فالذين جاءوا ولم يروه ، واتبعوه شرفهم بفضل الأخوة ، ولا شيء أدل على وحدة الأمة الاسلامية فى ماضيها وحاضرها أقوى من هذه ، فالوحدة الاسلامية وحدة الاسلام ، ووحدة الأخوة المحمدية .

ولنتجه بعد ذلك الى الموازنة بين الروايتين ، وكنا نود لو أن الامام ابن القيم ، وهو امام حافظ فى السنة كان يتجه الى المراجعة بين سند الروايتين ، ولا يتجه الى مجرد الترجيح بالفرض .

ونقول ان المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض لا يغنى عنها النسب ، لأنهم لم يكونوا جميعا من قبيلة واحدة ، يجمعها نسب ، بل كانوا من قبائل متفرقة ، ولم يكونوا جميعا من قريش ، وان كان أكثرهم من قريش ، فكان لابد من ازالة كل ما عساه يكون من نفرة جاهلية ، والمؤاخاة التى يباركها النبى صلى الله عليه وسلم تزيل العصبية الجاهلية وهى كما تقيم التعاون بين الأنصارى والمهاجرى تقيمه بين العرب الذين كانوا من قبائل مختلفة ، والأنصار كانوا خزرجا وأوسا وكان بين بعضهم مع بعض جاهلية ، وما يوم بعاث ببعيد عن الأنظار ، وقد كان النزاع على أشده والنبى يلتقى بالخزرج فى عقبة مكة ، فكان التأليف بينهم بالمؤاخاة أمرا تقتضيه ضرورة التوحيد النفسى ، والتآلف الروحى الذى يذهب بأحقاد الجاهلية ، ويفتح قلوب أهل الاسلام على تقوى من الله تعالى ورضوان ، ومحبة بعد البغضاء ، ووئام بعد النزال ، واذن فالاخاء كان له باعث وغاية ، ولا استغناء عنه ، وتكذيبه لهذا السبب مردود .

بقى ما تصدى له من الموازنة بين أبى بكر وعلى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لو كان قد اختار فى المؤاخاة أخا لاختار أبا بكر ، لأنه لو كان يريد أن يتخذ أحدا خليلا لاتخذ أبا بكر ، كما أثر عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن القيم رضى الله عنه .

واننا نقول : ان للامامين مناقب ، وكل من رسول الله قريب فى نفسه وحسه وجهاده ، وللصديق فضله ولعلى فضله ، واذا فرض أن أبا بكر أفضل

لكثرة ثنـــاء النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، ولما له من مناقب فى الاسلام عالية فان المؤاخاة لا تقتضى اختيار الأفضل ، وان كان لعلى مناقب فى الاسلام فهو الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم فارس الاسلام ، واذا كان أبو بكر قد صاحب الرسول فى الهجرة ، وهو صاحبه فى الغار الذى أشار اليه القرآن الكريم فعلى نام فى منام النبى صلى الله عليه وسلم ، والمشركون يترصدون صاحب هذا المنام ليتناولوه بالسيف ، فكان على المقدم لفداء رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وما لنا والمفاضلة بين امامين نجد أنفسنا لا تعلو الى الموازنة بينهما فى الفضل ، ولكن نقول ان المؤاخاة مواساة ، ومعـــاونة وليست للفضل ، ولكن للحاجة ، ولا شك أن حاجة على فى صباه وفى مرباه فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقبل على حياة تحتاج الى المعونة ، وكان فقيرا ولم يكن ذا تجارة فى ماضيه ولا حاضره ، حتى أنه عندما أراد أن يقدم معجل صـــداق لفاطمة رضى الله عنها وعن زوجها وصلى الله تعالى على أبيها وسلم — لم يكن فى يده منه شىء فتقدم الى الصحراء ليحتطب ويجمع من جهده ما يكون صداقا لابنة ابن عمه سيدة نساء العالمين •

ولذلك كان أحق بالمواساة من أبى بكر ، وان لم يكن أفضل منه •

وبذلك ينتهى الى أن الرواية التى نأخذ بها لم تكن مقصورة على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ولكنها كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض ، بل كانت عامة شـــاملة ، لتحصل الوحدة ، وتتم المعـــاونة والمساواة •

ولقد ذكر ابن اسحاق فى سيرته المؤاخاة بين المهاجرين فى أنفسهم مع المؤاخاة بين المهـــاجرين والأنصـــار ، وبذلك تعتضد تلك الرواية بالســـند والدراية معا •

٣١ — وان المؤاخاة عمل نبوى معقول المعنى ، وليس تعبديا ، ولا هو من خصوصيات النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقم دليل على ذلك ، واذا

كان معقول المعنى ، فانه يجوز بل يحسن اتباعه فى كل حال تتشابه مع حال المؤمنين بعد الهجرة ، فتصبح المؤاخاة ، بل يجب عند وجود طائفـــة نفرت من بلد غير اسلامى فارة بدينها •

وتجوز المؤاخاة بين الطوائف الاسلامية لازالة معنى الطائفية ، واحلال المذهبية محلها ، فهى سنة متبعة ، وقد وجدت مقتضياتها فى هذا الزمان ، ففى الأرض مسلمون أكلتهم الأقاليم غير الاسلامية ، ولو أنهم خرجوا من ديارهم مهاجرين الى أقرب تجمع اسلامى لكان للمؤاخاة موضـــع ، لأنه معـــاونة ومواساة ، ومزج ووحدة • وان فى أوربا جماعات اسلامية ليست حرة فى تدينها فلو فتح لهم باب المؤاخاة خرجت الى أرض الاســـلام لتكون قوة ، ويعتزون بعزة المسلمين ، ولكن المسلمين غلب عليهم التفرق ، فغلبت عليهم الشـــقوة ، وكان أمرهم فرطا •

واننـــا نجد الاسلام ينشر نفسه فينشر عنـــد بعض نادر من الأوربيين والأمريكان وغيرهم • وأولئـــك الذين يسلمون يخرجون من أهليهم ، وقد يخرجون من أرضهم وديارهم ، ويحتاجون الى المعاونة والمواساة ، فكان الاخاء معهم أمرا لا بد منه ، وأن المسلمين من بعد ذلك عندما دخل الفرس والروم والمصريون فى الاسلام كان عقـــد فى معنى المؤاخاة ، وهو عقد الموالاة الذى سنتكلم عنه عند الكلام فى الوحدة الاسلامية عند ما قوى الاسلام بغير العرب ، ودخل الناس فيه افواجا ((**اذا جاء نصر الله والفتح**)) •

التأليف بين العرب جميعا :

٣٢ ـــ نشبت الحرب بين المدينة الفاضلة ، وبين قريش ابتداء لمنع الفتنة فى الدين ، ولدفع الأذى عن المؤمنين بعد أن أذن الله تعالى للمؤمنين أن يجاهدوا فى سبيل الله تعالى ، كما قال تعالت كلماته :

((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقـــدير ، الذين أخرجوامن ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لهدمت صـوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » •

جاهدت المدينة الفاضلة فى سبيل الله ، وابتدأ الجهاد بسرايا ، ثم بغزوة بدر الكبرى ، التى كانت التقاء الجمعين ، جمع الشرك وجمع الايمان فى يوم الفرقان ، وهو ذلك اليوم المشهود ، وهنا شعر المشركون بأنه تكونت للايمان قوة تخضد شوكة الشرك ، وترفع كلمة التوحيد ، وتجعلها العليا ، وكلمة الشرك هى السفلى •

ثم كانت غزوة أحد ، وفيها قويت كلمة الكفر الى حد ما ، ولكن لم يهن المؤمنون ، وشعروا مع ذلك بأمر الله تعالى أنهم الأعلون بميزان الحق ،وميزان القوة معا •

ولقد شعرت قريش بأنها وحدها لا تقوى على المدينة ، وأنها لا تقوى على أن تقتلع الايمان من جذوره ، ولذلك استعانوا بالقبـائل العربية ، وجمعوا الأحزاب فى الغزوة التى سميت غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، ولنذكر طرفا يسيرا من قصـة هذه الغزوة لنرى كيف تجمع العرب لقتـال النبى صلى الله عليه وسلم •

لقد جاء زعماء قبائل عربيـة وقد رأوا الشرك تنهار دعائمه ، ولم يكن الا قريش قطبـا له ، فأخذوا يحرضونهم على غزو المدينـة بعد أن خافت قريش ، فأجابتهم قريش ، ثم خرجوا الى غطفـان ، فاستجابت ، ثم طاف أولئك الزعماء فى قبائل العرب يدعونهم الى قتال محمد صلى الله عليه وسلم فاستجاب لهم الأكثرون •

خرجت قريش الذين كانوا قطب الشرك فى أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم وخرج بنو أسـد وفزارة ، وأشجع ، وبنو مرة ، وجاءت غطفـان وقائدهم عيينة بن حصن •

تجمع أهل الشرك من كل البلاد العربية عشرة آلاف ، وقد أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقاتلهم كافة ، كما أذن قبل بقتال أهل مكة ، اذ أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، كما تلونا ، وقال تعالى فى ذلك : **((وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين)) .**

واذا كان الشرك فى أرض العرب قد اجتمع لأهل الايمان فى تلك الغزوة فان الله قد جمع أهل الايمان ، وأضاف الى العرب عنصرا جديدا ليس منهم هو سلمان الفارسى ، ولعل هذه أول مرة يبدو فيها جهاد سلمان ، فقد كان من بين أهل شورى النبى صلى الله عليه وسلم عند ما استشار المؤمنين فى لقاء هؤلاء الذين جاءوا اليه متضافرين . فأشار سلمان الفارسى رضى الله تبارك وتعالى عنه بحفر خندق يحول بين أهل الايمان وأهل الشرك ، ويمنع المدينة من الغزو الداهم ويعوق المهاجمين ، وكان ما كان من أمر هذه الغزوة ، وهزيمة الشرك بالريح العاصف والرعب الهالع .

٣٣ ـ وقد يقول قائل : ان العنوان وهو تأليف النبى صلى الله عليه وسلم العرب يتجافى عن الحرب والغزوات المتوالية ، فالموضوع غير العنوان ، ونقول فى الجواب عن ذلك : ان طريق التأليف ليس هو السلم وحده دائما ، وان كان السلم والتأليف صنوين لا ينفصلان ، بيد أن التأليف قد يكون طريقه وعرا ، فان الحرب قد تجر الى السلم والتأليف ، وقد كانت غزوة الخندق فى ذاتها منهية لحرب قريش المعتدية ، فلم يعد لها طمع قوى فى أن تنقض على المدينة لتقلع منها الاسلام ، ويعود العرب الى شركهم الذى اطمأنوا الى ضلاله .

وأن غزوة الخندق كانت فيها دعوة قوية الى أن يلتف العرب حول الاسلام ، اذ رأوا من آيات الله ما رأوا ، اذ رأوا فى تدبير الحرب من جيش محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يكن عندهم فيه علم ، وهم الكرارون دائما ، ورأوا من آيات الله تعالى الكبرى ما بهر النفوس ، وما استرعى الأنظار ، رأوا أن السماء تنصر جيش الاسلام ، وتهزم جيش الكفر ، ورأت الأحزاب العربية

المجتمعة على الضلال نذر السماء تأتيهم كما أتت عادا ، اذ أتتهم ريح صرصر عاتية .

وأن هذه من دلائل النبوة وتأييد الله لدعوة الحق الذى أنكروه .

وأن النبى من بعد أن أذن الله تعالى له فى قتال المشركين كافة كما يقاتلونه كافة انطلقت سراياه من الجزيرة العربية داعية الى دين الحق ، منتصرة بنصر الله تعالى وتأييده ، وهى تبث فيهم روح الايمان وتدعوهم الى الوحدانية ، ولا شك أن الايمان كان يدخل الى قلوبهم لا من حر السيف ، ولكن من اللقاء فى ذاته ، وخصوصا أن الحرب الاسلامية المقدسة كانت تدعو أولا الى الاسلام ، فان أبوا طلب اليهم العهد والذمة على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فان لم يكن فالقتال ، وكانت وصية النبى لجنده ألا يقاتلوهم حتى يقتلوا من المسلمين ، فان قتلوا من المسلمين واحدا ، قال القائد المسلم لهم : أما كان خيرا من هذا أن تقولوا : لا اله الا الله ؟ .

فكانت الحرب فى ذاتها طريقا التأليف ، وبعث المحبة من وراء الجيش .

ولما تسامع العرب بحرب النبى صلى الله عليه وسلم ، وانبثت سراياه فى الجزيرة العربية وذهبت جيوشه اليها ، ومعها السيف والسلم ، ومعها عداوة أهل الباطل ومسالمة الشعوب ، كان ذلك فى ذاته تأليفا للقلوب المؤمنة التى وراء المحاربين من أنصار الأمراء والرؤساء .

وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليخاطب الا الشعوب ، ويزيل عنهم رق الأمراء ، وذل المتحكمين فيهم ، ولذلك كان التأليف مع تلك الحروب اذ كان من نتائجها ظهور وجوه الضعفاء ، وتأليف قلوبهم .

ولذلك كان من وراء هذه الحروب ، أو التسامع بها ، والدعوة الى الاسلام أن وفدت الوفود الى النبى صلى الله عليه وسلم وهى كانت لعقد عقود الوحدة المؤلفة وازالة العداوة المفرقة .

الوفـــود :

٣٤ — وفدت الوفود الى النبى صلى الله عليه وسلم من وسط الجزيرة العربية ، ومن أطرافها ، وهى تعرض حال أقوامها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتلطف بهم فى اللقاء ويلين رحمة لهم ويحقق قوله تعالى : ((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**)) •

وكانت رسالة الوفود الى النبى صلى الله عليه وسلم شرحا لحال أقوامهم ابتداء ، وكان لقاء النبى تأليفا لقلوبهم ، فكانت الوفود ملاقاة للنبى صلى الله عليه وسلم مع من لم يلاقهم من ممثلى القبـائل العربية ، ومواجهة لصاحب الدعوة الاســلامية بمن يدعوهم ، وبذلك تألفت قلوبهم ، وتآلفوا على هدى الاسلام بعد المنافرة والمنازعة والمقاتلة •

ولقد كانت الوفود فى الســنة التاسعة من هجرة النبى صلى الله عليــه وسلم ، ولذلك سمى العــام التاسع عام الوفود • وذلك بعد أن عركتهم سرايا النبى صلى الله عليــه وسلم وغزواته وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعــالى الا اليه ، وخصوصا أنهم رأوا أن قريشا قد أسلمت وسلمت للنبى صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا ، وخصوصا أن الاسلام أخذ يغزو قلوبهم وفقدت الأصنام هيبتها التى تخيلوها لها •

ويقول ابن اسحاق فى ســيرته : أن قريشا كانوا أمام الناس ، وهاديهم وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل وابراهيم عليهما السلام • وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها جيش الاسلام ، وعرف أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال الله عز وجل أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه •

جاءت الوفود من البــلاد العربية من المجاورين للفرس فى الجنوب الى

المجاورين للشام فى الشمال ، والنبى صلى الله عليــه وسلم يبث فيهم معنى الاســلام ، ويؤلفهم حول التكاليف الشرعية ، والأخذ بهــا ، ويدنى أهل المشاكسة والشماس ، ويأخذ بلين القول ، حتى يأتلف الوفد ، ويكون رسول النبى صلى الله عليه وسلم منهم من يبعثه الى قومه ليؤلف قلوبهم .

ونختار من هــذه الوفود وفد ثقيف بالطائف الذين كانوا أشد القبــائل العربية شماسا وعنفا فى خصومتهم ، كيف لان النبى صلى الله عليه وسلم معهم فى القول فى بيان الأحكام الشرعية ، ويقطع عليهم فى محاولة تغيير بعضها كل ارادة حتى ضم بعضهم اليه ، فنقلوا الى أقوامهم .

جاء فى كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد فى وفد ثقيف ما نصه :

« قدم عروة بن مسعود الثقفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فقدم وفدهم ، وفيهم كنانة بن عبد ياليل ، وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبى العاصى ، وهو أصغر الوفد » .

قال المغيرة بن شعبة : « يا رسول الله أنزل قومى على فأكرمهم ، فانى حديث الجرح فيهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمنعك أن تكرم قومك ، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن » .

وكان من جرح المغيرة فى قومه أنه كان أجيرا لثقيف ، وأنهم أقبلوا من مصر ، حتى اذا كانوا ببعض الطرق عدا عليهم ، وهم نيام فقتلهم ، ثم أقبل بأموالهم على رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فقــال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما الاسلام ، فنقبله ، وأما المال فانا لا نغدر » .

وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف فى المسجد وبنى لهم خياما لكى يسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب لا يذكر نفسه ، فلما سمعه وفد ثقيف ، قالوا يأمرنا

أن نشهد أنه رسول الله ، ويشهد به فى خطبته ، فلما بلغه عليه السلام قولهم قال : « فانى أول من شهد أنى رسول الله » .

وكانوا يغدون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخلفون عثمان ابن أبى العاصى على رحالهم الأنه أصغرهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد اليه ، وقالوا (أى ناموا فى القيلولة) بالهاجرة عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، فاختلف اليه مرارا ، حتى فقه فى الدين . وكان اذا وجد رسول الله نائما عمد الى أبى بكر وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله وأحبه .

ومكث الوفد يختلفون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بدعوهم الى الاسلام فأسلموا .

قال كنانة بن عبد ياليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا .

قال عليه السلام : نعم ان أنتم أقررتم بالاسلام ، والا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم .

قال كنانة بن عبد ياليل : أفرأيت الزنى ، فانا قوم لا بد لنا منه .

قال النبى عليه الصلاة والسلام : هو عليكم حرام ، فان الله يقول : **« ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا »** .

قالوا : أفرأيت الربا ، فانه أموالنا كلها .

قال « عليه الصلاة والسلام » : لكم رؤوس أموالكم ، ان الله تعالى يقول : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين »** .

قالوا : أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا ، فلابد لنا منها .

قال « عليه الصلاة والسلام » : ان الله حرمها ، وقرأ قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم الى بعض ، فقالوا : ويحكم اننا نخاف ان خالفنـــاه ، فيوم كيوم مكة ، انطلقوا نكاتبه على ما سألنا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نعم لك ما سألت .

ثم قالوا : أرأيت الأصنام (أى التى يعبدونها) .

قال « عليه الصلاة والسلام » : اهدموها .

قالوا : هيهات ، لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها .

تدخل فى الحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال « ويحك يا ابن عبد ياليل ما أجهلك ، انما الربة حجر » .

قالوا : لم نأتك يابن الخطاب .

قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تول أنت هدمها ، فأما نحن ، فاننا لا نهدمها .

قال رسول الله « صلى الله عليـــه وسلم » : سأبعث اليكم من يكفيكم هدمها . فكاتبوه .

هذا ما نقله ابن القيم من كتب السيرة وقـــد كان اخلاص النبى عليـــه الصلاة والسلام فى حديثه وتصميمه على هدى الاسلام مليئا قلوبهم ومؤلفا لنفوسهم ، وقد انضموا الى الاسلام شريعة وعقيدة ، وأخلصوا من بعـــد ؛ وأراد زعيمهم أن يحملهم على اعتناق الاسلام وعرض على النبى صلى الله عليه وسلم أن يسبق هو رسول رسول الله الذى أوفده عليه الصلاة والسلام لهدم ربتهم ، حتى يمهد لذلك . ولنعد الى ما نقل ابن القيم .

قال كنانة بن عبد ياليل (زعيم الوفد) ، ائذن لنا قبل رسولك ، ثم ابعث فى آثارنا فانا أعلم بقومنا ، فأذن لهم ، وقالوا : يا رسول الله أمر علينا رجلا مؤمنا من قومنا ، فأمر عليهم عثمان بن أبى العاصى ، لما رأى من حرصه على الاسلام ، وكان قد تعلم سورا من القرآن قبل أن يخرج .

فقال كنانة بن عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثقيف ، فاكتموهم القصة ، وخوفوهم بالحرب والقتال ، وأخبروهم أن محمدا سألنا أمورا أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم اللات والعزى ، وأن نحرم الخمر والزنى ، وأن نبطل الربا فى أموالنا .

خرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم ، فلما رأوهم قد ساروا العنق ، وقطروا الابل ، (أى جعلوها قطارا) وتغشوا ثيابهم ، كهيئة القوم قد حزنوا ، وكربوا ، ولم يرجعوا بخير ، فقال بعضهم لبعض : ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به .

وترجل الوفد ، وقصدوا اللات ونزلوا عندها ، واللات وثن كان بين ظهرى الطائف يعبد ، وتهدى له البدن كما تهدى لبيت الله الحرام .

جاء كلا من أعضاء الوفد خاصته من ثقيف ، فسألوهم : ما جئتم وبماذا رجعتم .

قالوا : أتينا رجلا فظا غليظا يأخذ من أمره ما يشاء ، قد ظهر بالسيف ، وداخ له العرب ودان له الناس ، فعرض علينا أمورا شدادا : هدم اللات والعزى وترك الأموال فى الربا الا رؤوس أموالكم وحرم الخمر والزنى .

قالت ثقيف : والله لا نقبل هذا أبدا .

قال الوفد : أصلحوا السلاح ، وتهيأوا للقتال ، وتعبأوا له ورمموا حصونكم .

فسكتت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب ، وقالوا : والله ما لنا به طاقة ، وقد داخ له العرب كلها . فارجعوا اليه ، فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه .

فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا ، واختاروا الأمان على الخوف والحرب . قال الوفد : فانا قد قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببناه . وشرطنا ما أردنا . ووجدنا أتقى الناس ، وأوفاهم ، وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم في سيرنا اليه ، وفيما قاضيناه عليه .

قالت ثقيف : فلم كتمتمونا هذا الحديث ، وغممتونا أشد الغم ؟

قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان .

فأسلموا مكانهم . ومكثوا أياما .. انتهى المراد من القصة .

٣٥ ـ هذه صورة من صور الوفود التي جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم .

جاءت ثقيف ، وهي أشد القبائل العربية شماسا ، وأبعدها عن الاسلام ، ولقد لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم بالبشر وأكرم ضيافتهم ، وأنزلهم في المسجد ، وبنى لهم الأخبية وربطها بالأوتاد ، وأمنهم في ضيافتهم تأليفا لقلوبهم ، وربطا لهم بالمحبة ، والمحبة من شأنها أن تلين القلوب ، ولو كانت قاسية كالحجارة أو أشد قسوة .

وعلم مكان الاعتزاز فيهم فما هدمه ، ومكان الباطل فما تركه .

وبذلك استفدنا من تأليف النبي للعرب فائدتين :

احداهما : أن التأليف يكون بالبشر وحسن اللقاء ، والنفاذ الى النفوس في سهولة ولين لا عنف معه .

الثانية : أن التأليف لا يقتضى اهمال الحقوق ، واسقاط بعض التكليفات فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف قلوب أولئك الذين لا يخلون من غلظة ، وفى نفوسهم شماس وفى عقولهم انحراف واستمساك بالهوى ، لقد جعلهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يميلون الى الاسلام ويعتنقونه ويتحايلون ليهتدى قومهم •

السماحة والعــدالة :

كانت أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم سمحة يألف ويؤلف ، يؤثر على نفسه ، فأخلاقه فى معاملاته كانت السماحة هى أظهر الأخلاق فيها ، ما غضب لنفسه قط ، الا أن تنتهك حرمات الله تعالى ، والأعرابى الذى أغلظ فى القول . فطلب العطاء ، يرفق به النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعطيه ويكون العطاء حتى يرضى ، ويطلب منه فى رفق من بعد ذلك أن يرضى أصحابه عليه السلام ، واليهودى الذى يتقاضاه دينه ، فيغلظ فى القول ، ويهم عمر رضى الله تعالى عنه أن يقتله ، فيقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناة المترفق هلا أمرته بحسن المطالبة ، وأمرتنى بحسن الأداء ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فالسماحة تجذب القلوب النــافرة وتهــدى النفوس الحائرة ، وترد العقول الشاردة •

وبجوار هذه السماحة كانت العدالة التى يفرضها على نفسه ، من نفسه ، فكان لا يعتدى على أحد ، ولا يظلم أحدا ، ويقدم نفسه ليقتص منه ان ظن أن عليه قصاصا •

٣٦ ــ ولم تكن سماحته وعدالته ومعاونته ، واغاثته للملهوف مقصورة على معاملاته الشخصية ، بل انها كانت تتعدى الى كل المعاملات الاجتماعيــة والسياسية ، فمن آذاه لا يكون اذا أدال منه المنتقم الجبار ، ولكن يكون العفو الرحيم ، يأخذ بقوله تعالى : ((**خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**)) وقوله : ((**ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقــاها الا ذو حظ عظيم**)) •

ويأخذ بقوله تعالى فى أوصاف المؤمنين : ((**والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، أنه لا يحب الظالمين • ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور**)) •

كان يأخذ بهذه الآداب القرآنية فى السلم وفى الحرب ، فى المعاملات الشخصية وفى معاملته لأعداء الاسلام ، فهو ينتصر على الباغى ، واذا انتصر لا يقول : ويل للمغلوب • ولكن يقول : رحمة وعفوا ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم • وبذلك تتألف القلوب ، بعد أن تدمى الأجسام •

واعتبر ذلك بحال الحديبية ، وبحال فتح مكة فقد كان له الغلب على قريش من بعد نصر الله تعالى بالريح والرعب فى غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، اذ تجمع عليه العرب من كل آفاق البلاد ليقتلعوا الاسلام فاقتلع الله تعالى الشرك من النفوس ، حتى المعادين المعاندين •

السماحة فى الحديبية :

٣٧ — خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام السادس من الهجرة ليعتمر ، صلى الله عليه وسلم ، هو وأصحابه • وكان معه جيش كثيف عدده خمسمائة وألف ، وما كانوا يريدون الا بيت الله الحرام •

وان النبى بث العيون ، ليعرف حال قريش ، فعلموا أنهم جمعوا الجموع وأضافوا اليها الأحابيش ، فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقال السمح الكريم رسول رب العالمين : أترون أن نميل الى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فان قعدوا — قعدوا موتورين محزونين ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه • وقد وافقه أبو بكر الصديق على ما ارتأى وكان ذلك هو الرأى •

ولما رأى عليه السلام جموعا من قريش تتجمع ، ومعه جيش أغلب خاطبهم خطاب السماح ، لا خطاب من يريد الانتقام •

أرسل اليهم عثمان بن عفان ، وأمره أمرين ، أولهما أن يدعو قريشا الى الاسلام ويخبرهم أن الرسول لم يأت لقتال ، ولكن جاء وصحبه معتمرين •

وثانيهما : أن يتصل بالمستضعفين من المؤمنين ويبشرهم بالفتح القريب •

ذهب عثمان ، وخاطب قريشا ، وغاب وظن المسلمون الظنون ، فظنوا أنهم قتلوا عثمان ، فبايع النبى المؤمنين على القتال ، وكان ذلك تحت الشجرة التى سميت شجرة الرضوان لأن الله تعالى قال : ((**ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم**)) •

ولما بلغ الرسول السمح ، ومعه الجيش القوى ، انهم استعدوا للقتال، قال : اننا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وأن قريشا قد نهكتهم الحروب ، وأضرت بهم ، فان شاءوا ماردتهم ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فعلوا وان أبوا الا القتال فوالذى نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمرى ، حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره •

عاد رسولهم اليهم ، وقال لهم : انى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولا ، فان شئتم عرضته عليكم ، فقال السفهاء منهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء ، وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا ، ونقل لهم ما قال صلى الله عليه وسلم •

قال عروة بن مسعود الثقفى : انه قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعونى آته ، فأذنوا له فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فكرر عليه ما قال ابتداء •

ولننقل لك ما جرى من حـديث بين الثقفى العنيف ، والنبى السمح ، لتعرف أن السماحة علاج النفوس الشامسة •

قال عروة بن مسعود الثقفي : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وان كانت الأخرى فانى لا أرى وجوها ، وانما أرى أوشابا ، أخاف أن يفروا ويدعوك •

وأخذ يكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلما تكلم أخذ بلحية الرسول ، والمغيرة بن شعبة عنـد رأس النبى صلى الله عليـه وسلم ، ومعه السـيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب بيده بنصل سيفه • وقال : أخر يدك ، ورفع رأسه وقال : من هذا ؟ قالوا المغيرة بن شعبة ، فقال له : أى غدر ، أو لست أسعى فى غدرتك • وكان المغيرة قد صحب قوما فى الجاهلية وأخذ مالهم ، فذهب الى النبى مسلما ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم اسلامه ، ورد المال لأنه أخذ بغير حله •

ومع سماحة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتجرؤ الثقفى حتى مد يده الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم •

وكان يرى طاعة المسلمين له ، فاذا أمرهم ابتدروا أمره بالطاعة ، واذا تكلموا فى حضرته خفضوا أصواتهم وما يحـدون النظر فيـه تعظيما له • رأى الثقفى ذلك وعرض على قومه ما رأى •

وأرسلوا رجلا آخر من كنانة ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ومعهم البدن يقدمونها هديا ويلبسون محرمين ، فرجع الى أصحابه من قريش ، وقال : سبحان الله ، ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت • وجرت المراسلات بالرجال ، حتى كان الاتفاق وكتابة الهدنة عشر سنين •

واذا كانت السماحة قد أظلت معاملة النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن جاء الحديبية حتى لانت قلوب قاسية ، وفيها نفوس فاسقة ، فان كتابة العهد قد سيطرت عليها السماحة المحمدية •

ابتدأ الكتاب فأملى النبى صلى الله عليه وسلم الافتتاحية بقوله : « **بسم الله الرحمن الرحيم** »

فقال سهيل الحاضر عن قريش : أما الرحمن فوالله ما ندرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم .

فقـال الحاضرون من المسلمين : **والله لا نكتبها الا باسم الله الرحمن الرحيم** .

قال النبى السمح : **اكتبها باسمك اللهم ، ثم اكتب هـذا ما قضى عليـه محمد رسول الله** ،

فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال النبى : **انى رسول الله وان كذبتمونى ، اكتب محمد بن عبـد الله . على أن تخـلوا بيننا وبين البيت** ، قال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العـام المقبل . فكتب الكاتب برضا النبى صلى الله عليه وسلم .

فقال سهيل : على ألا يأتيك منا رجل وان كان على دينك الا رددته .

ضج المسلمون ، وقالوا : سبحان الله كيف يرد الى المشركين ، وقد جاء مسلما ؟

فبيناهم كذلك اذ جاء أبو جنـدل بن سهيل يرسف فى قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انا لم نقض الكتاب بعـد .

قال سهيل : والله لا أقاضيك على شىء .

قال سـهيل : ما أنا بمجيزه لك ، ومـع ذلك أقضى الكتاب على هـذا الشرط .

فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ، أرد الى المشركين ، وقد جئت مسلما، ألا ترون ما لقيت . وقد غضب عمر رضى الله عنه غضبا شديدا وقال فى غضبه : يا رسول الله ، ألست نبى الله ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعـدونا على الباطل ، قال : بلى ، قال : علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انى رسول الله وهو ناصرى ولست أعصيه .

قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت ونطوف به .

قال الرسول السمح : بلى ، أنا أخبرتك أنك تأتيه هذا العام ؟ قال عمر : لا . قال الرسول : فانك آتيه ومطوف به .

وكان العقد على صلح توضع فيه الحرب عشر سنين .

وكان المسلمون محرمين ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتحللوا من الاحرام بذبح الهدى ، وقال لهم : قوموا فانحروا ، ثم احلقوا .

فما قام رجل واحد حتى قال ثلاث مرات .

فلما لم يقم أحد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت أم سلمة : يا رسول الله اخرج ، ثم لا تكلم أحدا كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أشارت به أم سلمة .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا .

٣٨ ـ هذه سماحة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد ظهرت فى هـذه القصة أمور :

أولها : أنه كان قادرا على أن يدخل مكة ، ويطوف ويسعى ، وينفـذ احرامه ، ومعه جيش يزيل كل عقبة تقف ضده ، ولكنه آثر السلم ، والعافية وحقن الدماء بسماحة النبوة لتأليف القلوب ، وان السماحة تجذب نفوسـا والسيف يقطع رقابا ، وما يأخذ من الرقاب شيئا ، ولكن يأخـذ بالسماحة النفوس الى الايمان •

وثانيها : أنه قبل أن يذكر اسم الله بقولهم باسمك اللهم ، وسكت عن **بسم الله الرحمن الرحيم** ، واذا كان قد ترك هذه البسملة سماحة وكرما ، فقد ألان بذلك نفوسا كانت متعصبة ، وانها لسائرة فى طريق الهداية •

ثالثها : أنه قبل ألا يذكر وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول حقا وصدقا ، وقبل أن يقال ابن عبد الله ، وقد فتح بهذا التسامح القلوب لتدخل اليها رسالته ، وما كانت الجفوة والغلظة لتفعل ذلك •

ورابعها : أنه قبل أن يعطيهم ، ما لم يعطوه ، قبل منهم أن من يجىء اليه مسلما من غير اذن وليه يرده . ومن يخرج من عنده مرتدا لا يردونه اليه •

وان ذلك لا يخلو من سماحة ، ولكن فيه حكمة ظاهرة قد بدت نتائجها منه ، فان من ارتد عنه لـماذا يعاد اليه ليكون عينا عليه ، انه قذاة أخرجت من العين ان كانت •

ولقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحا ، وما كان فتحا الا بتقدير الله سبحانه وتعالى ، وسماحة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد قال تعالى فى هذا الصلح : **« انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنـود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما »** •

وان الشرط الذى أغضب الفاروق عمر رضى الله عنه ، وكثيرين من المؤمنين المجاهدين ، وهو أن من جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم مسلما رد ، تبين أن نتيجته لم تكن شرا ، بل كانت خيرا ، ولقد طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يقبل من يجيئه مسلما .

وذلك أن الذين كانوا يخرجون من مكة مسلمين ، ولا يقبلهم النبى لا يعودون الى مكة ، بل يبقون يقطعون على قريش طريق تجارتها ، وتلاحقوا وتجمعوا ، حتى تكونت منهم عصبة أولو قوة ، فكانوا لا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام الا اعترضوها فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال .

آذى ذلك قريشا ، وأرسلت الى النبى صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن ، وبذلك ألغى الشرط بطلبهم وتلك من دلائل النبوة .

هذه كانت سماحة النبى صلى الله عليه وسلم وقد ألفت القلوب ، وجمعت النفوس الشاردة.

وفى فتح مكة كانت السماحة أوضح :

٣٩ — اذ لم يعرف تاريخ الانسانية أن قائدا منتصرا عامل المغلوبين بمثل ما عامل به محمد صلى الله عليه وسلم قريشا ومن حالفهم ، وقد آذوه ثلاث عشرة سنة دأبا لم يتركوا فيها بابا من الايذاء والتنكيل والسخرية الا اتخذوه ، حتى هموا بقتله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كان صلى الله عليه وسلم أجمع من قبل أمر الهجرة واتخذ أسبابها ، وكان الله تبارك وتعالى قد أيده ، فكان أعظم التدبير ، وأكرم التوفيق .

ومكثت الحرب بعد ذلك ست سنين دأبا ، ما تركوا طريقا من طرق الشيطان الا سلكوه ، حتى اذا كان الصلح والنبى صلى الله عليه وسلم معه جند الله الذى يستطيع ابادة خضرائهم ، وكان الصلح كما أرادوا ، وفيه

فرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم شروطا ظالمة ، وقبلها عليه الصلاة والسلام فى سماحة راحمة ، وحكمة نبوية من غير صغار ، ولكنها نبوة مقربة للنفوس وليست منفرة للقلوب ، جامعة وليست مفرقة .

ولكن مع ذلك غدروا ولم يوفوا .

وذلك أنه كان فى ضمن شروط الصلح التى ارتضاها الطرفان ، وأرادها النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يريد الجمع العربى الذى لا تفرق فيه — كان من الشروط أن من أراد أن يدخل مع محمد صلى الله عليه وسلم دخل ومن أراد أن يدخل فى عقد قريش دخل .

اختارت خزاعة جانب النبى عليه الصلاة والسلام ، واختار بنو بكر عقد قريش ، فكان من يعتدى على خزاعة كأنما اعتدى على النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد عادت الحرب جزعا بين خزاعة وبنى بكر كما كانت الاحن بينهم فى الجاهلية ، فاقتتل الفريقان وما تدخل جيش الاسلام فى القتال ، ولكن قريشا تدخلت ونصرت بنى بكر على بنى خزاعة ، وأمدت بنى بكر بالسلاح ، وقاتل من رجالها من قاتل .

عندئذ كان الغدر ، ومهما تكن سماحة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلن تكون فى غدر قط ، ولا مع غادرر أبدا .

بل تجاوز الأمر مع بنى خزاعة حد الغدر المجرد ، بل لقد حاول بنو بكر النيل من خزاعة فى البيت الحرام بتحريض من بعض القرشيين .

كان لابد لخزاعة أن تستنصر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان للنبى الا أن يجيب الدعوة . ذهب عمرو بن سالم الخزاعى الى المدينة . حيث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قتلنا وقد أسلمنا .

أصبحت الحرب ضرورية ، ولا موضع للسماحة • أولا : لأنهم غدروا فى العهد ، وثانيا : لأنهم نكثوا فى أيمانهم نكثا كاملا ، فقتلوا قوما مسلمين ، فنقضوا الصلح من أساسه ، ولا صلح مع من يخون العهود •

ولقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أكد نية الحرب بالقسم فقال : « والله لأغزون قريشا » •• قالها ثلاث مرات تأكيدا للقسم •

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة ، ومعه العباس الذى كان قد أسلم من قبل ، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وخرج يلتمس أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأمنون النبى صلى الله عليه وسلم •

ويلتقى وهو يتوسم الوجوه بأبى سفيان ، فيركبه فى عجز بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورآه عمر وقد كان حارس الجيش ، وهم عمر أن يقتل أبا سفيان ، قال له موعدا مهددا : الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد • ولكن العباس استحث البغلة فركضت لكيلا يمكن الفاروق من قتل أبى سفيان قبل أن يلقى صاحب السماحة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

والتقى الفاروق مع أبى سفيان فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم مع العباس عمه ، وعمر يهز السيف ، ويستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى قتله ، ولكن ابن عبد المطلب شيخ قريش يجيره ويؤمنه •

فيقول رسول الله السمح قابلا للأمان لعمه : « اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به » •

وهذا أول مظاهر السماحة ، فلم يتركه بغير من أمنه ، حتى لا يلقاه أحد من جيش الله فيقتله ، كما هم عمر •

التقى النبى مع أبى سفيان فى الغداة ، فعرض عليه النبى الاسلام فتردد

بعصبية الجاهلية . فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأسلم وشهد شهادة الاسلام .

ولكن السماحة لا تقف عند قبول الاسلام بعد تلبث ، بل انها تزيد الى التكريم .

يقول العباس : ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

وهنا السماحة تعم ولا تخص ، وان كان الباعث ابتداء تكريما لأبى سفيان زعيم الشرك العنيد ، ولكنها سماحة النبوة المؤلفة .

وكان جيش الاسلام مؤلفا من كثير من قبـائل العرب ، اجتمعت على كلمة الله تعالى وتأييد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكانت الكتائب تمر على أبى سفيان بن حرب ، وقد وقف بمضيق الوادى .

وكانت كتيبة النبى صلى الله عليه وسلم فيها المهاجرون والأنصار .

وكان يحمل راية الأنصار سعد بن عبادة ، فلما مر على أبى سفيان قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، أذل الله قريشا .

أطمعت سماحة النبى أبا سفيان بن حرب أن يشكو ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وماذا قال ؟ قال : كذا وكذا .

قال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة .

قال النبى السمح الكريم : اليوم يوم المرحمة ، بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا .

هذه واحدة فى سماحته المؤلفة ، وأخرى فى سماحته وحكمته أنه نزع اللواء من يد سعد بن عبادة ، وأعطاها ابن سعد قيسا ، ليرى سعدا أن اللواء لم يخرج منه الا الى ابنه الذى هو امتداد لشخصه .

مضى أبو سفيان بعد أن طابت نفسه بسماحة النبى صلى الله عليه وسلم .

قسم رسول الله جيشه أربعة أقسام كل يدخل من جانب ، فبعث الزبير بن العوام الى جانب ، وأبا عبيدة فى بطن الوادى ، وخالد بن الوليد على جانب آخر ، ورسول الله فى كتيبته .

وقد نهى رجاله عن القتال ، الا أن يضطروا ، وشدد فى النهى ، ومن بينهم خالد بن الوليد ومعه من جيوش القبائل سليم وغفار ومزينة وجهينة ، وقبائل أخرى من العرب .

ولم يقاتل أحد من القواد المسلمين الا خالد بن الوليد ، فقد تعرض له عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمر ، وكان بعض بنى بكر الذين اعتدوا على خزاعة ، قد أعدوا السلاح ليقاتلوا جيش محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت معركة صغيرة ، قتل من المشركين فيها نحو اثنى عشر رجلا ثم انهزموا .

وقد لامه النبى صلى الله عليه وسلم أن قاتل ، وقد نهاه ، فذكر له خالد اضطراره فقبل عذره .

اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما اتجه الى المسجد الحرام ، فطاف ، واستلم الحجر الأسود ، وأخذ يحطم الأصنام ويقول : ((**جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا**)) والأصنام تتساقط بين يدى محطم الأوثان فى الأرض ، وقد رأى تماثيل فى جدران البيت الحرام فحطمها .

وخرج رسول الله ، وقد وقف بباب البيت ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينظرون ماذا يصنع بهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو مال أو دم تحت قدمى هاتين ، الا سدانة البيت ، وسقاية الحاج » . ثم وجه خطابه لقريش التى كانت تتفاخر بالأنساب قائلا :

« ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »** .

يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم .

قال الرسول الكريم : فانى أقول لكم كما قال يوسف لاخوته « لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هى السماحة العظمى ، وقد آمن الناس جميعا ، الا نفرا ، ثم عفا عن بعضهم ممن تاب وآمن وعمل صالحا كعكرمة بن أبى جهل .

٤٠ — بهذه السماحة الكريمة التى ابتدأت فى الفتح .

أولا : بتأمين أبى سفيان وتكريمه بتأمين كل من يدخل بيته .

ثانيا : بتأمين كل من لا يخرج من بيته مقاتلا .

ثالثا : بعزل سعد بن عبادة عن لواء الأنصار ، لقوله : اليوم يوم الملحمة ، الذى تذل فيه قريش ، واستبدالها بقوله اليوم يوم المرحمة الذى تعز فيه قريش .

رابعا : بنهى قــواده عن القتــال ، وقد اســتجابوا الا خــالدا ، اذ اضطر اليه ٠

خامسا : بذلك العفو الكريم : اذ يحكى معهم مقــالة يوسف لاخوته : « لا تثريب عليكم » ٠

وهناك فوق هذه السماحة النهى عن التعصب للآباء ، والمنع من العصبية الجاهلية ، وبين لهم أن الناس جميعا على سواء ٠

التأليف الالهى :

بهذه السماحة النبوية ، والاطار الاسلامى ، والالتقاء على مائدة الاسلام الروحيــة ، وبالحزم والعزم والرفق والعفو تألفت قلوب كانت متنــافرة ، وتقاربت نفوس كانت متباعدة ٠

وكانت الوحدة العربية التى تعد معجزة ، وقد كانت وحدة اسلامية فى حدود العرب ، اذ لم يكن الأمر قد خرج من الديار العربية ، ولم يكن قد دخل غير العرب فى ظل الدولة الاسلامية ووحدة الاسلام ٠ الا نفر قليل ٠

وان ذلك التأليف معجزة من عمل الله تعالى : ولذلك قال سبحانه :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعــا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم » ٠

وان التأليف فى كل الأمور المادية سهل يسير ، وأما تأليف النفوس فصعب عسير ، وخصوصا اذا كانوا متنازعين متقاتلين متدابرين ، فحق أن يكون ذلك بعمل الله القادر القاهر فوق عباده الذى يملك النفوس ، ويسيرها ٠

٤١ ــ ولقد دعا القرن الى الوحدة بين بنى الاسلام ، فقال تعالى :

« يا أيهـا الذين آمنـوا اتقوا الله حق تقـاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون • واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شـفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئـك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد ايمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » •

ونقف عند هذه الآيات وقفة قصيرة فهى تدل أولا على الوحدة الاسلامية دلالة صريحة اذ يقول تعالى : « **واعتصموا بحبل الله** » وحبل الله تعالى هو القرآن الكريم فهو حبل الله الممدود ، الى يوم القيامة ، وهذا يفيد أن الوحدة تقوم على الاستمساك بكتاب الله تعالى ، فكل وحدة تقوم على غير ذلك مآلها الانهيار لأنها تقوم على شفير هار •

ثانيها : أنها تفيد أن التأليف بين العرب كان بهداية الله سبحانه وتعالى وبالاسلام ، فهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وآواهم الى ربوة المحبة والاخلاص وأن من ثمرات التأليف أن يعتصموا بحبل الله الذى كان السبيل الى ذلك التآلف •

ثالثها : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقـوى الوحدة ، ويجعلها قائمة على أسـاس من الفضـيلة والخلق ، ولذلك كان بين النصـوص الأمر بالمعروف بالاعتصام بكتاب الله والنهى عن المنكر لأنه عصام الاجتماع وهو الذى يكون الرأى العام الفاضل ، ولا يمكن أن تعيش وحدة اسلامية ، الا فى

ظل رأى عام يجمع الشمل ، ويزيل الانقسام ، ولا شيء يسهل الافتراق الا رأى عام غير صالح يوجد الانفصام ، وتفرخ فيه الرذائل .

ورابعها : بين أن التفرق بعد أن جاءت البينات تكون معه الذلة ، ومع الذلة عذاب الدنيا ومع العصيان عذاب الآخرة ، فيجتمع على المفترقين الذين جعلوا جمعهم شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون — ذل الدنيا وعذاب الآخرة .

تمام الوحدة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم

٤٢ ــ تكونت الوحدة العربية فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم على أساس الاسلام ، وكان القرآن هو الجامع لمتفرقها ، والموحد لأشتاتها ، فلم تكن وحدة قومية بل كانت وحدة اسلامية .

والفرق بين الوحدتين واضح ، فان الوحدة القومية تسد الباب على غير العرب ، ولا تجعلهم ينتظمون فى مسلكها ، أما الوحدة الاسلامية ، فانها مفتحة الأبواب ، لكل مسلم أن يدخل فيها لأنها وحدته ، ولأن الديار دياره فلا فرق بين عربى ، ولا بخس فيها لأعجمى ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم مؤكدا أنها وحدة اسلامية « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » .

وان شئت فقل : ان الوحدة التى أقامها النبى صلى الله عليه وسلم وحدة قرآنية ، لأن أساسها الاعتصام بحبل الله تعالى وهو القرآن ، ولذلك نجد القرآن الكريم لا ينادى العرب بعنوان العرب ، وانما ينادى بعنوان الناس والايمان ، ويدخل العرب فيهم ، اذ ينادى المؤمنين بقوله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا** » ويدخل الفرس والروم وغيرهم من أجناس أهل الأرض اذا آمنوا بالله سبحانه وتعالى .

وليس للعرب فى القرآن حظ أكبر من غيرهم ، بيد أنه نزل بلغتهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، وقد قال تعالى « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » .

وقد ذكرنا من قبل لماذا اختص الله سبحانه وتعالى العرب بأن جعل البعث فيهم .

وان البلاد العربية بهذا لها شرف فى الوحدة ، لأن بها بيت الله الحرام ، وقد من الله عليهم ، فقال تعالى : ((**أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم**)) •

وأن وجود الكعبة بها ، وهى قبـلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى قاصيها ودانيها ، وهذه القبلة تشعر المسلمين فى كل بقاع الأرض بأنهم أجزاء من كل شامل جامع •

وفى البلاد العربية مظهر ثان للوحدة الاسلامية ، وهو مناسك الحج التى هى موضع التعارف بين المسلمين فى كل الأرض ، فهم يأتون اليها من كل فج عميق فى ضيافة الرحمن •

وقد ذكرنا فى سياق بحثنا لـماذا كانت البلاد العربية بها مبعث الرســالة المحمدية الخالدة التى تكون للناس كافة أحمرهم وأسودهم وأبيضهم •

ولا يقال : ان الاســلام عربى ، لأنه نزل فى أرض عربيــة ، ومعجزته عربيــة ، ومنبعه عربى • لا يقــال ذلك لأنه لا علاقة بين خصوص المكان ، أو خصوص اللغــة ، وكون الدعوة عامة ، والحكم عاما ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد صرح بعموم الرسالة ، وصرح القرآن بعمومها ودعوة محمد كانت عامة والعبرة بعموم الدعوة ، لا بخصوص المكان ولا بخصوص اللغة •

واذا كان للغة العربية موضع فى الوحدة ، فليست لتخصيص الاسلام بالعرب ، ولكن نقول : انها اللغة التى تكون وسيلة لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت هى لغة الاسلام يوم أن كانت الوحدة الشاملة ، وقد تفرقوا اذ تفرقوا عنها ، مكان أول مظهر من تفرق كلمة المسلمين هو احياء اللغات الشعوبية للأقوام الذين دخلوا الاسلام أفواجا •

وليس مؤدى ذلك أن القرآن والاسلام للعرب وحدهم ، دون ســائر الناس •

حماية محمد الوحدة التى ألفها الله :

٤٣ ــ حمى صلى الله عليه وسلم الوحدة الاسلامية التى ألفها الله تعالى على يديه فى البلاد العربية وبين القبائل العربية ، حماها النبى صلى الله عليه وسلم مما كان سبب التفرق من بعــد ، وهو العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالأنساب وما نهى النبى صلى الله عليــه وسلم مستنكرا أمرا اجتماعيا كمــا نهى عن العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالآباء والأجداد ، وأوجب التفاخر بالعمل الصالح وحده .

لقد برىء النبى صلى الله عليــه وسلم من كل ما يدعو بدعوى العصبية الجاهلية فقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية » .

ولقد روى مسلم والنسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل تحت راية عمية يدعو لعصبية أو ينصر عصبية ، فقتلته[١] جاهلية » .

أى يكون فى حال عمى بسبب هذه العصبية الجاهلية التى لا تعرف الحق من الباطل ويكون الضلال والجهاد فيها بينا لا يخفى على مؤمن بالله تعالى .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى ينصر قومه على المظالم مثل البعير المتردى فى الركى [٢] فهو ينزع بذنبه » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى العصبية المنهى عنها ، فقال صلى الله عليه وسلم « العصبية أن تعين قومك على الظلم » .

وهنا يرد سؤال : هل ينهى النبى عن محبة الأوطان أو محبة الأقوام ؟ وان الجواب عن ذلك أن المحبة فى كل صورها أمر محبوب فى الجماعة تبتدىء بمحبة الأسرة والعشــيرة ، ثم الجماعة فى الوطن ، ثم الجماعة الكبرى فى

---

(١) العمية بكسر العين على وزن فعلية مبالغة فى العمى .
(٢) الركى ، الآبار .

الاسلام • ولا تلغى الدرجة العليا ما دونها ، ولكن المنهى عنه المحبة التى تؤدى الى الفرقة والانقسام ، وتحرض على الظلم ، وهى العصبية الجاهلية ، ولقد سأل أبى بن كعب النبى صلى الله عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله الحكمة : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر قومه على الظلم » •

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » والاثم انما يكون فى الاعتداء والظلم •

ولقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل اقامة الوحدة وتثبيت أمرها عن أن يقتتل المسلمون بعضهم مع بعض ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « اذا تواجه المسلمان فالقاتل والمقتول فى النار ، فقيل يا رسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول ! ، قال : لأنه كان حريصا على قتل صاحبه » •

ويقول عليه الصلاة والسلام : « لا يشر أحدكم الى أخيه بالسلاح ، فانه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده » •

ويقول عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » •

ولقد روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وقد رواه مع الترمذى أبو داود والنسائى عن ابن عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه وجزى أباه عن الاسلام خيرا •

٤٤ — كان النبى يحمى الوحدة ، والتآلف العربى الذى ألف الله به العرب بعد طول افتراق ، وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن العصبية الجاهلية هى سبب فرقتهم ، فزوالها هو الذى يجمعهم •

وقد حد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحدود ، فلم يمح الأوطان ، ولا الأقاليم ، لأن المحبة كالصنبور من الماء يفيض على المكان القريب منه ،

ثم يفيض على ما بعـده . فلا يمكن أن تمحى محبة العشيرة أو محبة الوطن التى حلت محل حب العشـيرة أو القبيلة ، ولكن محبـة الوطن تكون فى ظل الاسلام كله أولا ؛ وتكون فى دائرة المحبة التى لا بغضاء فيها ، ولا عداوة ، ولا اعتداء .

ولذلك فسر عليه الصلاة والسلام العصبية بأن يعين المرء قومه على الظلم .

وان التصور الذى نستطيع أن ندركه فى الجمع بين الوطنية أو الاقليمية والوحدة الاسلامية هو أن نقول ان التـدرج الانسانى يبتدىء بالأسرة ، فآحادها يكونون وحدة متضافرة متوادة متحابة ، والأسر مجتمعة تكون اقليما متوادا متآلفا متحابا بحيث لا تكون ثمة عداوة بين أسرة وأخرى ؛ والمجتمع الاسلامى يتكون من أقاليم متعاونة فى الذود عن الاسلام .

وكما يضحى بالواحد فى الأسرة فى سبيل مجموعها ، ويضحى بالأسرة فى سبيل الوطن فان الوطن يندغم فى الجماعة الاسـلامية ، وتكون الوحدة الاسلامية متكونة فى أعلى مدارجها .

المنافقون والوحدة فى عهد النبى :

٤٥ — العربى صريح بطبعه ، واضح النفس وضوح الشمس الرائعـة التى تنير نفسها ، فاذا دخل الايمان قلبه التقى فيه نور البصيرة ، واذا كان فى الأعراب منافقون كما صرح القرآن الكريم اذ قال « **الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم** » فان ذلك كان من شأن الجاهلية التى كانت قبـل أن تخالط بشاشة الاسلام قلوبهم ، ولقد قال الله تعالى : « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، ان الله غفور رحيم** » .

ولما انتقل النبى عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، وخالط العرب اليهود ، وكان فى المدينة بجوار اليهود مشركون لم يدخلوا فى الاسلام مع أقوامهم ، بل أبوا وجحدوا .

واستمروا فى غيهم يعمهون الى أن انتصر المسلمون فى غزوة بدر ٠ وصارت لهم قوة يحسب حسابها ، فصارت كلمة الله هى العليا ٠ وكلمة الشرك هى السفلى ٠

عندئذ وجد من هؤلاء منافقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ولقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله « **اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ٠ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ٠ هم العدو ، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** » ٠

وان هؤلاء المنافقين كانوا حربا على الوحدة التى كونها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يثيرون العداوة أينما وجدوا لكلامهم موضعا من التأثير ، كانوا يوقعون بين المهاجرين والأنصار ، ولكن الله تعالى كان يرد كيدهم فى نحورهم ، والنبى صلى الله عليه وسلم يعمل على حماية المسلمين من شرهم ، وحماية الوحدة الاسلامية التى ألفت من كيدهم ولكنه لا يقتلهم ، ولا يمسهم بأذى ، حتى يحفظ للوحدة مظهرها ، وأعمالها هى التى تحذر المؤمنين ، فكلما كانت حرب بين المسلمين وغيرهم خذلوا جيش الايمان ، وكان يغتر بهم ضعاف الايمان والنبى صلى الله عليه وسلم يطاولهم ويصابرهم ، وهم لا يجدون فرصة للتفريق بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار الا انتهزوها ، ووسعوا الهوة عساهم يهدمون لبنات من ذلك البنيان المرصوص من الوحدة الاسلامية ٠

روى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ فى غزوة فكسع [1] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار : فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله

---

(١) معناه ضرب عجيزته بيد أو رجل أو سيف او غيره والمناسب هنا أن يكون بسيف لأنهم كانوا فى غزوة .

صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال رسول الله المؤلف بين القلوب : « دعوها فانهـا منتنة » فسمعها عبد الله بن أبى بن سلول (زعيم النفاق) فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال الرسول المؤلف للقلوب الحفيظ على الوحدة الاسلامية : « دعه ، لا يتحدث العرب ، أن محمدا يقتل أصحابه » .

وقد ذكر ابن هشام فى السيرة أن الغزوة التى أشار اليها صحيح مسلم فى روايته كانت غزوة بنى المصطلق ، وذكر تفصيل القصة بما ينتهى فى نتيجته الى ما انتهت اليه الرواية فى صحيح مسلم فقال : « بينا رسول الله على الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له جهجاه وسـنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا فقال الجهنى يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبى بن سلول (كبير المنافقين) وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال كبير النفاق : أوقد فعلوها ، فقد نافرونا ، وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أمرنا وجلابيب قريش ، الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم : وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال عمر : فمر به عبـاد بن بشر ، فليقتله ، قال الرسول الحكيم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكون ليرتحل فيها » .

وبهذا الرحيل العاجل شغل الناس بلم المتاع واشمعت عن التفكير فى تلك الدعوة الجاهلية التى نبتت نابتتها ، وغذاها النفاق بغذائه الخبيث .

٤٦ — فى سبيل بقـاء الوحدة قائمة فى حقيقتها ومظهرها لم يتن النبى صلى الله عليه وسلم ليمس منافقا ، أو ينال منه أى نيل وهو يعلم أنه يثبط المسلمين ، ويخذلهم ، ويعلم كما ورد فى القرآن الكريم أنهم مرضوا بداء النفاق ولا سبيل لأن يكونوا مؤمنين ، ولكنه كان مع ذلك يتلطف لهم ، ويستغفر الله لهم ، حتى نهاه الله تعالى ، ونزل قوله سبحانه : **((استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم))** .

وكان النبى يفعل ذلك تأليفا للقلوب ، ولأنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ولأن لهم أقارب من المؤمنين المخلصين يألمون للأذى ينالهم ، ولقد كان عبد الله بن أبى هذا له ابن اسمه عبد الله من أخلص الناس .

ولكن الرفق لم ينههم عن غيهم ، ولم يقرب نفوسهم ، لأن النفاق مرض ، ان أصاب القلب لا يشفى منه ؛ ورفقة النبى صلى الله عليه وسلم فى السياسة والحروب ورفقة المؤمنين معه كانت تزيد مرض النفاق فيهم ، **((فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا))** وذلك بتوالى الانتصار .

الافك وخوض المنافقين :

٤٨ — تخلفت عائشة أم المؤمنين حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هودجها فى احدى الخرجات حتى أدركها بعض الصحابة فأناخ لها الجمل وركبت . والتحقت بركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت تلك الواقعة فرصة النفاق ، فتلقفها عبد الله بن أبى وتولى كبر الافك على أم المؤمنين الطاهرة بنت الطاهر الصديقة بنت الصديق وزوج خير العالمين ، وصفوة الوجود الانسانى .

قد قالت عائشة أم المؤمنين : وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول

فى رجال من الخزرج ، وهو الذى قال الله تعالى فيه : ((**أن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**)) .

وكان يكفى هذا لأن يثير النبى صلى الله عليه وسلم ليعاقب الآثمين ، وقد مس الأمر شخصه ، وان لم ينل من مكانته عند الله تعالى وعند الناس ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان ليعمل لنفسه ، لكنه يعمل لله وهو لا يريد الا أن تبقى الوحدة الاسلامية سليمة فى حقيقتها وفى مظهرها .

ولم يفعل فى حديث الافك الا أن قال عاتبا مترفقا :

((أيها الناس : ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم الا خيرا)) .

ولكن ذلك العتب الرقيق الهادىء استفز قلوب قوم مؤمنين من الأنصار فقال أسيد بن حضير من الأوس : ((يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيكهم وان يكونوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فوالله انهم الأهل أن تضرب أعناقهم)) .

ولنترك لابن هشام الكلمة يتمم القصة ، ومنها نعلم أن عبد الله بن أبى كان يرمى الى التفرقة بين الأوس والخزرج ، ويقول ابن هشام بعد نقل مقالة أسيد بن حضير :

قام سعد بن عبادة ، وكان من قبل يرى رجلا صالحا ، فقال : ((كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أما والله ، ما قلت هذه المقالة الا لأنك عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا)) ، فقال أسيد : ((كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين)) .

وتساور الناس حتى كان يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر . ذلك ما كان يبتغيه عبد الله بن أبى بن سلول بما حدث به الخزرج ،

وما كان يمكن أن يسكت من غير فتنة يثيرها ، ولكن قوة الايمان فى الأنـ
الذين قال فيهم النبى صلى الله عليـه وسلم : « لولا الهجرة لكنت من امرءا
الأنصار » ، كانت قوة الايمان قاضية على هذه الفتنة .

وهكذا كان المنافقون يوقدون للفتنة ، حيث وجدوا الى ذلك سبيلا ، و
أوقدوا نارا لها أطفأها الله تعالى بقوة ايمان أصحاب رسول الله صلى
عليـه وسلم .

٤٨ — اشتد أمر النفاق فى المدينة والنبى صلى الله عليـه وسلم يطا
المنافقين ، وهو يعلم الأكثرين منهم ، أو يعلم كبراءهم وهم يكيدون فينجد
أحيانا بين الضعفاء ، ولا يقوون على أن يبثوا سمهم فى أقوياء الايمان ،
هؤلاء يعـلمون أمرهم ، ولا ينخدعون . وان كانوا كمـا قال الله تعـالى
**« يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ،
قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، و
قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسد
ولكن لا يشعرون »** .

وهكذا نجد المنافق الذى يكثر نفاقه بالكذب على الناس واستمرار الكذ
ينتهى أمره بأن يفسد تفكيره فلا يرى الأمور على وجهها ، بل يراها من ور
تفكيره السقيم .

اشتد أمر النفاق فى المدينة ، حتى ذهب أهل كل بيت فيه منافق يستأذ
النبى صلى الله عليه وسلم فى قتله ، وذهب عبد الله بن عبد الله بن أبى يقو
للرسول : ان كنت تريد قتل أبى فأمرنى بقتله لأنى لا أريد أن يكون فى نفس
ثأر من مؤمن .

ولكن النبى ترك النفاق يأكل بعضه بعضا .

وقال : أين عمـر ؟ لو قتلناهم يوم طلب قتلهم لأرعدت لهم أنوف تري
اليوم قتلهم .

وهكذا بحكمة الرسول وبحلمه وسماحته ولطف عشرته تمت الوحدة بين
العرب ، ومات النفاق بينهم بفعل أهله ، والله سبحانه وتعالى بكل شىء محيط

الاتجاه بالدعوة إلى غير العرب

٤٩ — تم تأليف العرب فى وحدة اسلامية جامعة ، أو كاد يتم ، والاسلام لم يجىء للعرب وحدهم ، ولكنه للعالم الانسانى كله ، فكان لابد أن يتجه الى الناس كافة من بعد نشره فى البلاد العربية ، وجعل قوة له فيها ، وبعد أن أزال دولة الأوثان .

ولذلك اتجه الى الروم والفرس والشام ومصر برسل أرسلهم ، وكتب كتبها ، وهو يريد من الارسال اليهم أن ينفذ الى شعوبهم ، ليتمكن من الدعوة الاسلامية الجامعة لكل معانى الانسانية .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه . وكتب معهم كتبا الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام .

يقول ابن هشام فى سيرته : « فبعث دحية الكلبى الى قيصر ملك الروم وبعث عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمى الى ملكى عمان » .
ولم يقتصر برسله على غير العرب ، بل أرسل الى أمراء العرب الذين نأت ديارهم ، ولم يشتركوا فى حروب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فى أرضهم فتح اسلامى .

ولنثبت هذه الكتب كما رويت فى كتب السيرة وفى الصحيحين ، صحيح مسلم والبخارى وغيرهما .

(أ) ثبت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه كتب الى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعـــد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين (يريد الرعية) «**(يا أهل الكتاب تعـــالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـــد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشـــهدوا بأنا مسلمون)** » .

(ب) وكتب الى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فانى رسول الله الى الناس كافة «**(لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين)**» أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اسم المجوس » .

ويروى أنه لمـــا قرىء عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مزق الله ملكه » .

(جـ) وكتب الى النجاشى ملك الحبشة :

« بسم الله رب العالمين ، من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة : أسلم أنت ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها الى مريم الطهور الطيبة الحصينة ، فخلقه الله تعالى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعتـــه وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى . فانى رسول الله ، وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ؛ وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى وقد أخذ يذكره عمرو بعطفه على المسلمين عند الهجرة الى الحبشة • وحدبه عليهم قال له : « يا أصحمة ان على القول ، وعليك الاستماع ، انك كأنك فى الرقة علينا • وكأنا فى الثقة بك ومنك ، لأنا لم نظن بك خيرا الا نلناه منك ، ولم نخفك على شىء قط الا أمناه • وقد أخذنا الحجة عليك من فيك : الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد : وقاض لا يجور ، فى ذلك الموقع الحز واصابة المفصل والا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم » •

« وقد فرق النبى صلى الله عليه وسلم رسله الى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم له : وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف ، وأجر ينتظر » •

قال النجاشى : « أشهد بالله أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر » •

وكتب النجاشى كتابا الى النبى جوابا لكتابه هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة •

سلام عليك ، يا نبى الله من الله ، ورحمة الله وبركاته الذى لا اله الا هو •

أما بعـــد ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ، فما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض أن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعث به الينا ، قد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصـــدقا ، وقـــد بايعتك وبايعت ابن عمك (جعفر بن أبى طالب) وأسلمت على يديه لله رب العالمين » •

(د) وكتب الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله ، ورسوله ــ الى المقوقس عظيم القبط •

سلام على من اتبع الهدى •

أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم القبط « **يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » •

بعث هـذا الخطاب مع حاطب بن أبى بلتعـة ، ولم يكتف حاطب بتبليغ الرسالة ، بل ناقشه فى أمور الفراعنة والعبرة فى أخبارهم ، قال حاطب : انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك • قال المقوقس : ان لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه • قال له حاطب : ندعوك الى دين الاسلام ، الكافى به الله فقد ما سواه ، وان هذا النبى دعا الناس ، فكان أشدهم عليـه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ، ما بشـارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمتـه ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى •

ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به •

قال المقوس : انى نظرت فى أمر هذا النبى ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة باخراج الجبناء والاخبار بالنجوى • وسأنظر •

وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعله فى حق من عاج وختم عليه ورفعـه الى جارية ، ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربيـة فكتب الى رسول الله الكتاب التالى :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط •

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك ، وقد بعثت اليك بجارية لها مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » ٠

كانت الاجابة فيها سلام وأمان ، ومودة ولم يكن فيها ايمان ٠

٥٠ — هذه كتب كتبها الى ملوك ورؤساء لم يكونوا عربا ، وقد رأينا أن بعضهم لم يرد مطلقا ، وان كان فيه ميل الى الاسلام ، ولكن حب الملك طغى على حب الحق فطمسه ٠

ومنهم من لم يرد ، ولكنه كان غليظا فى تلقيه الكتاب اذ مزقه فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه ، فمزقه المسلمون شر ممزق : ويروى أنه أرسل من يذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم ليقتله ٠

ومنهم من آمن ، وحسن اسلامه ، وهو النجاشى ٠

ومنهم من أحسن الرد ، ولم يحسن لنفسه بالايمان ، وهو المقوقس عظيم القبط فى مصر ٠

وان النبى صلى الله عليه وسلم كتب لبعض أمراء العرب الذين كانوا فى أرض نائية عنه فأجابوا ومنهم من ذكر أن تحت سلطانه يهودا ومجوسا ، وماذا يصنع معهم ، وهو المنذر بن ساوى ٠

ذكر الواقدى باسناده عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : وجدت هذا الكتاب فى كتب ابن عباس ، فنسخته ، فاذا فيه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ، وكتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ٠

فكتب المنذر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا جاء فيه :

أما بعد يا رسول الله ، فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأرسل الى فى ذلك ، فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى .

« سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمد عبده ورسوله .

أما بعد : فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وأنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم ، فقد أطاعنى . ومن نصح لهم ، فقد نصح لى ، وان رسلى قد أثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك فى قومك . فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك من عملك . ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

ونرى أن ذلك الكتاب المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند ابن عباس (فى الجملة) يدل على أمرين :

أولهما : تسامح النبى صلى الله عليـه وسـلم مع أهل الذنوب ، وترك أمورهم لله تعالى ، وبيان أن الاسلام يجب ما قبـله ، وأن الأمر يكون على حسب حاضرهم .

وثانيهما : أن الرسول صـلى الله عليـه وسـلم استجابة لأمر ربه فى قوله تعالى : (**لا اكراه فى الدين**)لم يفكر فى اكراه المجوس واليهود الذين هم فى ولاية المنذر ، بل تركهم وما يدينون . وفرض عليهم جزية تقوم مقام ما يجب على المسلم من زكوات وكفارات . ونذور . وصدقات ، وليساهموا بذلك فى بناء الدولة الاسلامية .

٥١ ـ بهذه الكتب التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم حقق أن رسالته للناس كافة « **لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** » ولم يجب الى

الاسلام الا النجاشي ، وبعض قومه • وقد فتح باب الدعوة الى الاسلام فى أرضه وغيره من ملوك الفرس والروم ومصر وغيرهم • لم يجيبوا داعية الاسلام ولم يفتحوا الباب للدعوة الاسلامية • منهم من رد ردا عنيفا فيه اعلان العداوة للاسلام والمسلمين ، ومنهم من لم يرد قولا • وان كان قد ثبت ميله للاسلام بالقول • وآثر الاحتفاظ بملكه عن الاستجابة للدعوة الى الاسلام فقد جاء فى صحيح البخارى أن هرقل عندما جاء اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه وقومه الى الاسلام عرضه على الملأ من الروم وبدا من لحن قوله وصريحه أنه يصدق الرسالة المحمدية ، فحاصوا حيصة حمر الوحش فتراجع ، وقال : انما كنت أختبركم •

ولم يقف بالنسبة للرومان على السكوت فقط ، بل ان الولاة والقواد لجيوش الرومانية اعتدوا على من دخل فى الاسلام من أهل الشام وقتلوهم وفتنوهم فى دينهم ، فحق قتالهم •

ولذلك أرسل النبى الجيوش للشام ، وخرج الروم الى المسلمين فى غزوة مؤتة بجيوش كثيفة ، وقد تراجعت الجيوش الاسلامية بمهارة خالد بن الوليد عندما رأى أنه لا قبل للمسلمين بالرومان عددا وعدة ، ثم كانت ••• غزوة تبوك •

وكان لابد أن تنفذ الدعوة الاسلامية وراء محاجزات الملوك وممانعات الأمراء ، لأن الأمر بتبليغ الرسالة عام كما قال الله تعالى : ((**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته**)) ولا بد من ازالة هذه المحاجزات ، لما كان من اعتداء على المسلمين ، وعلى الاسلام بمنع دعوته •

واتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى فتح الشام للدعوة الاسلامية ، فأعد جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وشدد فى تنفيذه ، وكان فيه الشيخان الجليلان أبو بكر وعمر •

وأوصى بتنفيذه ، وكان لا بد من تنفيذه •

وهنا نلتفت التفاتة صغيرة الى معنى تكوين الجيش ، فعلى رأسه أسامة ابن زيد الذى قتل أبوه فى حرب مؤتة وهو مع ذلك ابن زيد الذى لم يبلغ فى نسبه ولا فى مكانه كبار قريش وخصوصا أن فى الجيش أبا بكر وعمر ، ومكانتهما فى الاسلام مكانتهما .

وفى ذلك اثبات أن الفرق ليس بالنسب ، وأنه يجب أن يمكن الصغير من العمل ، كما يمكن الكبير ، وأنه لا تقف المانعات أمام صغير ، ولا يغض من مقام الكبير أن يكون مرؤوسا للصغير ، فانه جهاد ، لا شرف فيه الا للعمل .

التآلف بين العرب وغيرهم :

٥٢ — تكاثر دخول غير العرب فى الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما فتحت فارس والشام ومصر ، وانساب المسلمون فى شمال افريقيا ، ثم من بعد ذلك دخلوا الاندلس وهاجموا وسط أوربا ، فهل ترك النبى صلى الله عليه وسلم الأمر فرطا ولم يبين ما ينبغى اتباعه بعد أن دخل غير العرب فى دين الله أفواجا .. كلا ان النبى صلى الله عليه وسلم دبر الأمر لما يكون من بعده ، حتى تكون الوحدة الاسلامية كاملة .

وذلك فى أمور ثلاثة :

أولها : النهى المطلق عن العصبية ، فان النهى عن العصبية يدخل فى عمومه النهى عن عصبية الاقليم ، كما يدخل فى عمومه النهى عن عصبية القبيلة والنسب وأساس العصبية أن يعين المتعصب قومه على الظلم ، كما بين النبى صلى الله عليه وسلم أن العصبية لا تنافى حب قومه ، ولا تنافى حب الوطن ، كما وضحنا ذلك فى بيان تدرج المحبة فى المجتمع الاسلامى ، وأن الأساس ألا تكون معاداة مطلقا ، وبالتالى لا يكون ظلم ، لأن العداوة تجر اليه ، وما يكون حراما تحرم ذريعته ، ودين المحبة يمنع العداوة فى أى صورة من صورها ، والظلم فى نظر الاسلام كما قرر محمد صلى الله عليه وسلم ظلمات يوم القيامة .

وثانيهما : اثبات الأخوة الانسانية العامة التى لا تفرق بين عربى وأعجمى

فقد قال عليه الصلاة والسلام كما روينا من قبل : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى ولا الأبيض على أسود الا بالتقوى » .

وقد أوجب القــرآن الكريم ذلك لأجل التعارف الاسلامى العــام فى قوله تعــالى : « **يا أيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » .

وقد قرر القــرآن الكريم الأخوة بين أهل الايمــان بقــوله تعــالى :
« **انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** »
« **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن** » .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التنابز بالألقاب التى تدل على الجنس المختلف فقد سمع صلى الله عليــه وسلم عربيا من أصحابه يتنابز مع غيره ، فيقول له : « يابن السوداء » فيغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : « لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى » .

الأمر الثالث : ولاء الموالاة الذى شرعه النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب وغير العرب ، ليقوم مقام المؤاخاة ولذلك بيان ، نذكره بايجاز .

ولاء الموالاة

٥٢ — ولاء الموالاة عقد يشبه عقد الاخاء الذى كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وعقده عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض على ما حققنا فيما مضى ، وثبت من الرواية الصحيحة .

وحقيقة عقد الموالاة أن يتفق رجل دخل فى الاسلام من غير العرب عادة مع أسرة عربية على أن تعقل عنه اذا جنى ، ويدخل فى الأسرة على هذا الأساس بحيث يكون كأحدها فى هذا ، ولا يتجاوزه ، وعند الحنفية ، — أبى حنيفة وأصحابه — أن العربى فى مقابل أن يعقل عنه اذا جنى يرثه اذا مات من غير وارث من ذوى فروض ، ولا عصبة ، ولا ذوى أرحام .

وخالف بعض الفقهاء الحنفية فى الميراث ، ولكن لم يخالفوهم فى أصل عقد الموالاة ، فهو حقيقة ثابتة بالقرآن وبأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال لفقيه من فقهاء الاسلام الأعلام أن ينكر أمرا ثابتا بالكتاب والسنة .

ونحن نذكر ولاء الموالاة فى الوحدة الاسلامية ، لأنه امتداد للاخاء الاسلامى الذى تولاه محمد صلى الله عليه وسلم ، والمؤاخاة الاسلامية عقد أشرف عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ونحسب أنه داخل فى عموم النصوص الدالة على العقود التى تثبت مؤاخاة بين المسلمين تثبيتا للوحدة ، وتمكينا للأخوة الاسلامية العامة ، سواء أكانت بعقد سمى عقد المؤاخاة ، كما سماه النبى صلى الله عليه وسلم ، أم سميت بعقد الموالاة ، كما اشتهر بين الفقهاء من بعد .

ونعود الى النصوص الواردة المثبتة لعقد الموالاة والتى تشمل بعمومها عقد المؤاخاة على أنه شريعة اسلامية دائمة ، ان لم تكن واجبة فهى أمر حسن فى الاسلام ، وليس حالة وقتية خاصة بالهجرة .

لقد قال تعالى : « **ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، أن الله كان على كل شيء شهيدا** » .

وقد روى عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب على بطن عقوله (أى أن تقوم قبيلة العاقد الذى عقد موالاة بدفع دية مولاه اذا جنى) وقال : لا يتولى مولى قوم الا باذنهم ، اى أنه لا يدخل فى أسرة أو قبيلة بمجرد عقد شخص منها ، بل لا بد من اذنها ، ولقد قال فى ذلك أبو بكر الرازى الشهير بالجصاص « حوى هذا الخبر معنيين أحدهما جواز عقد الموالاة ... والثانى أن له أن يتحول بولائه الى غيره الا أنه كرهه الا باذن الأولين » .

ومؤدى هذا الكلام أن الولاء يبتدىء بالتزام شخصى من العاقد ، ويتحول الى ولاء للأسرة أو القبيلة كلها ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم يستحسن ما دام الولاء له هذا التعدى أن يكون باذن من الأولياء ، لأنهم سيتحملون ديات جانبيــة ، فيحسن أن يكون لهم ارادة واختيــار ليكون الالتزام بارادتهم ، لا بالزامهم .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « الولاء لحمة كلحمة النسب » .

ولقد ذكر الفقهاء مستنبطين من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وسنته أحكامه فقال يحيى بن سعيد : اذا جاء رجل من أرض العدو فأسلم على يد مسلم فان ولاءه لمن والاه ومن أسلم من غير المسلمين المقيمين فى ظل الاســلام (الذميين) فولاؤه للمسلمين عامة .

وقال الليث بن سعد فقيه مصر : من أسلم على يدى رجل فقد والاه ، وميراثه لمن أسلم على يديه .

وروى عن تميم الدارى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا رسول الله فى الرجل يسلم على يدى الرجل من المسلمين : قال : هو أولى الناس بمحياه ومماته .

وروى أنه قد سئل ابن شهاب الزهرى عن رجل أسلم فوالى رجلا هل بذلك بأس ، قال : لا ، وقد أجاز ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ٠

٥٤ — وفى الحق أن اجازة عقد الموالاة ثابتة بالقرآن فيما تلونا ، وبالحديث والسنن المروية عن الصحابة ، وهو تناصر وتآلف بين العربى وغير العربى ، وبين المسلم القديم باسلامه والمسلم الداخل فى الاسلام الذى يكون فى كثير من الأحوال قد انفصل عن أهله وعشيرته ، فشرع الله تعالى ولاء الموالاة ليكون للرجل أنس بالمسلمين ، وقد فقد أنسه بآله وعشيرته ، وهذا يفسر قوله صلى الله عليه وسلم « الولاء لحمة كلحمة النسب » ٠

ويفرض الفقهاء اعتراضين أحدهما على أصل شرعية هذا الولاء ، والثانى على التوريث به ٠

أما الأول فهو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى رواية جبير بن مطعم « لا حلف فى الاسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام الا شـــدة » أى فى حال كونه موافقا للمبـــادىء الاسلامية ، كحلف الفضول الذى كان لحماية الضعفاء ، أما الحلف الجاهلى الذى يتنافى مع مبادىء الاسلام ، فانه لا يلتفت اليه ، وكان حلف الجاهليـــة يقوم على التعاون على الاثم والعدوان ، والأخذ بالثارات ، ويقـــول فى ذلك أبو بكر الرازى : وذلك لأن حلف الجاهلية كان يعاقده ، فيقول : « هدمى هدمك ، ودمى دمك ، وترثنى وأرثك » ٠ وكان فى هذا أشياء قد حظرها الاسلام ، وهو كان يشترط أن يحامى عليه ويبذل دمه دونه ، ويهدم ما يهدمه ، فينصره على الحق والباطل ، وقد أبطلت الشريعة هذا الحلف ، وأوجبت معـــونة المظلوم على الظـــالم ، حتى ينتصف منه ، وألا يلتفت الى قرابة ولا غيرها ، قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنـــوا كونوا قوامين بالقسط شـــهداء لله ، ولو على أنفسكم ،** أو الوالدين والأقربين ، **ان يكن غنيـــا أو فقيرا ، فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهـــوى أن تعدلوا** » ٠

٥٥ — وخلاصة هذا الرد أن الحلف المنهى عنـــه فى الاسلام هو الحلف

الجاهلى الذى أساسه أن تؤخذ الحقوق أو غيرها من غير حكم ، بل بالغلبة والقهر والتعاون عليهما فحرم الاسلام ذلك • حرم أن يكون حلف فى الاسلام يكون على هذه الأسس ، ففى الاسلام نظام وقضاء ، ولم يترك الناس يبغى بعضهم على بعض ، فقد كانت دولة حاكمة بالعدل ، تنتصف للضعيف المظلوم ، وتقتص من القوى الظالم •

واذا كان الحلف قائما على العدل والانصاف للمظلوم ، فان الاسلام يزيده كحلف الفضول الذى عقد فى دار عبد الله بن جدعان الذى كان المتحالفون فيه يقولون لنأخذن على يدى الظالم مارسا ثبير (جبل بمكة) ومابل بحر صوفة ، ولقد حضره النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال بعد بعثه عليه الصلاة والسلام : « لقد حضرت حلفا بدار عبد الله بن جدعان ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت اليه فى الاسلام الأجبت » •

ومهما يكن من أمر حلف الجاهلية فالولاء على المعونة والنصرة ، ودفع الدية والمعاونة فيها ان وجبت لا ينطبق عليه معنى الحلف الذى يكون فيه التناصر فى الباطل ، وان كان فيه حلف فهو فى المعاونة على أداء الحقوق والواجبات وايناس المسلم حديث العهد بالاسلام بالأخوة الاسلامية •

واذا كان فيه معنى فهو أنه نوع المؤاخاة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وهو فى مؤداه تقوية للوحدة الاسلامية ، ومحاربة للعصبية الجاهلية •

والاعتراض الثانى ليس على أصل الولاء ، انما هو على التوريث به ، وذلك لأن الله تعالى يقول : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** » •

وان هذا وان كان فيه الخلاف الفقهى بين أبى حنيفة وبعض من الفقهاء لا مانع من أن نقول فيه كلمة موجزة : ان الذين يثيرون هذا الاعتراض فى الميراث بمولى الموالاة يدعون النسخ فى قوله تعالى : « **ولكل جعلنا موالى**

مما ترك **الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم ، فآتوهم نصيبهم ، ان الله كان على كل شيء شهيدا** » ، ونحن أولا لا نرى فى القرآن منسوخا على ما قررنا فى كتاب أصول الفقه .

ثانيا : أنه لا تعارض بين الآيتين ، آية « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** » وآية الميراث بالموالاة بالعقد . لأن الميراث بولاء الموالاة حيث لا تكون قرابة مستحقة لميراث قط .

وقد يقول قائل : ان آية « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** » نسخت الميراث بالمؤاخاة أيضا ، ونحن نقول ان الميراث بالمؤاخاة لم يثبت بنص قرآنى ، وان كان النص القرآنى يشمله بعمومه باعتبار أن المؤاخاة عقد ، فان الميراث بها لا ينسخ اذا كان على أساس أنه لا يكون الا حيث لا تكون قرابة قط .

بيد أن عقد المؤاخاة لا يثبت الميراث على أساس العقد الا اذا كان فيه النص على أنه يعقل عنه اذا جنى ويرثه اذا كان من غير قريب .

٥٦ — هذا هو عقد الموالاة الذى شرعه القرآن الكريم . وبينته سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عنصر من عناصر تكوين الوحدة الاسلامية التى كونها محمد صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وأوصى باستمرارها بعد وفاته ، ونهى عن قطعها ، وعد من يقطعها كأنما يبث مبادىء الكفر فى الأمة الاسلامية . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض » .

ولقد انتشر عقد الموالاة فى صدر الاسلام فى عهد الراشدين ومن جاء بعدهم حتى سمى المسلمون غير العرب بالموالى لأنهم كانوا يعقدون ذلك العقد المؤلف بين المسلمين الذى اقتضته الوحدة واقتضاه أنس المسلم الأعجمى بأخيه المسلم العربى ، وتلاقيهما على مائدة الرحمة الاسلامية ، والأخوة العامة .

وان كثيرا من كبار رجال الاسلام كانوا موالى بهذا المعنى . فأبو حنيفة كان مولى لبنى تيم ، ولذا كان يقال أبو حنيفة التيمى .

الوحدة الإسلامية في عهد الراشدين

٥٧ — ربما نكون قد بسطنا القول فى عصر النبوة ، بما قد يخرجنا عن نطاق بحث موجز ، الى أن يكون كلاما فى كتاب مبسوط ، ولكن الذى دفعنا الى ذلك أن عصر النبوة المحمدية هو عصر تكوين الوحدة الاسلامية ، وقيام دعائمها ، ولا يمكن أن يعرف التفرق الا اذا عرفنا قواعد البناء ، وما أتى القواعد من هذا البنيان ، حتى تصدع ، ولأننا اذا عرفنا التصدع ، ووازنا بين أصل البناء وهو قائم ، وحاله بعد التصدع — يمكننا معرفة الصدع ، فنرأبه ، ومكان السقوط ، فنرفعه .

نعلم بهذا كيف تفرق المسلمون مخالفين أوامر النبى ، وكيف يمكن اعادة الوحدة ، وأن نعلم أن آخر الأمة لا يصلح الا بما صلح به أولها ، وحدة يمحى فيها كل أسباب التفرق الاقليمى الا ما تقتضيه الطبيعة المكانية . من أجل هذا ، ولكى تكون المعالم واضحة بسطنا القول فى تكوين الوحدة .

وعهد الراشدين أبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، كان ينبغى أن يكون امتدادا لعصر النبوة فى الوحدة ، لأن هؤلاء أخلص المؤمنين للاسلام ، وأقربهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، وأهداهم رشدا .

ولكن كانت أحداث لم تكن من قبلهم جعلت عصر الراشدين الكرام الذين انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ربه وهو عنهم راض ، وهم من المبشرين بالجنة — جعلت هذه الأحداث الأمور تتغير فى عهد بعضهم على غير ارادة منهم ، ولكن يغير الناس الناس ، وقد أمكن فى بعض الأحوال حمل الناس على الجادة ، وفى بعضها اتسع الخرق على الراقع بسبب دسائس من غير المؤمنين وسيطرة بعض المنافقين ، ولم يكن المعصوم صلى الله عليه وسلم الذى عالج النفاق بالحكمة ، مع اليقظة المترصدة المتتبعة — حيا .

الاختلاف والردة :

٥٨ — ما أن انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى حتى انبعثت العصبية من مراقدها ، ورفعت رأسها كما تنتأ رءوس الشياطين .

ابتدأت عند اختيار خليفة للمسلمين ، فقد كان اجتماع فى سقيفة بنى ساعدة، وقف فيه سعد بن عباده الذى نادى وهو يحمل لواء الأنصار : اليوم يوم الملحمة يوم تذل فيه قريش ، وقف يقول : منا معشر الأنصـــار أمير ، ومن المهاجرين أمير ، وقد قضى على هذا الخلاف كلام أبى بكر وحكمته ، ومسارعة عمر رضى الله عنه الى بيعة أبى بكر ، وتتابع أهل السقيفة فى البيعة أنصارا ومهاجرين •

وامتنع عن البيعة سعد بن عبادة ، فلم يبايع أبا بكر ، كما لم يبايع عمر •

وانتهت هذه الزوبعة ، أطفأها الله تعالى ، اذ لم تجد حطبا يؤجج النيران لاخلاص الأنصار الذين نصروا ابتداء ، وسدوا باب الفرقة والانقسام انتهاء •

ولكن ما ان انطفأت تلك الزوبعة الخفيفة ، وذهبت غياهبها بنور الاخلاص وقوته حتى انبعثت العصبية فى حدة وعنف بلغا أشدهما •

وذلك فى الردة :

لقد كانت الردة انبعاثا للعصبية ، وكانت البثق الكبير الذى انبثق من قبائل الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : ((**الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجـــدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله**)) •

قد امتنعت عن طاعة المدينة والخضوع لسلطانها القبائل العربية الا قريشا وثقيفا •

ارتدت أعداد كثيرة من أســـد وغطفان وطىء ، وناس من تميم واليمامة وارتد أهل البحرين وعمان وكندة ، وحضر موت واليمن •

وهكذا خرجت جموع مرتدة من كل القبائل ، وكان خروجها لأمرين :

أولهما : أن الاسلام لم يكن قد استمكن من قلوبهم ، ولذلك قال الله تعالى: ((**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولمـــا يدخل الايمان فى قلوبكم**)) •

وثانيهما : العصبية الجاهلية التى كانت تحقد على مضر وقريش ، حتى لقد قال قائل منهم : « كاذب ربيعة خير من صادق مضر » فالعصبية التى حاربها محمد صلى الله عليه وسلم ، واعتبر الدعاية بها دعاية منتنة خبيثة ، ارتفعت رأسها ناتئة تنادى بالفرقة والانقسام ، وأن يعود العرب كما كانوا قبل أن ينقذهم الله تعالى من حفرتها •

ولولا عزمة أبى بكر ، وحكمته لعاد العرب كما كانوا ، ولكن عزمة أبى بكر الضعيف فى بدنه القوى فى ايمانه قد قضت عليها ، وجيش لهم الجيوش من قريش والأنصار ، وحاربوا عن ايمانهم •

فلما عضت الحرب أهل العصبية الجاهلية قالوا : نرضى بالصلاة ، ولا نعطى الزكاة ، فرأى بعض المؤمنين أن يقبل منهم ذلك ، حتى يستمكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم عمر •

ولكن الصديق ، وقد اعتزم ، لم يرض بنصف الحل ، وقال : اما سلم مخزية ، واما حرب مجلية ، والتفت الى عمر رضى الله عنه ، وأخذ بلحيته وقال له : ثكلتك أمك يابن الخطاب أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام • وقال الصديق فى قوة ايمان : والله لو منعونى عقالا اعطوه لرسول الله لقاتلتهم عليه • ويقول رضى الله عنه : « والله لو أفردت من جمعكم لقاتلتهم حتى أنال مأربا أو اهلك مهلكا » •

انتصر الايمان على الردة بتوفيق الله تعالى ثم عزمة أبى بكر ، وجهاد أهل الايمان •

وكان من حكمة الصديق أن جند العرب لحرب فارس والروم •

وتحقيق قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** » •

عهد الشيخين :

٥٩ — بعد أن انتهت الردة ، وعصبيتها ، استقام أمر المسلمين على وحدة جامعة شاملة ، قام على حراستها صديق الأمة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام من بعده الفاروق رضى الله تبارك وتعالى عنه الذى لا يسير الشيطان فى فج يسير فيه عمر ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم . والذى قال فيه الرسول أيضا أنه لا أحد يفرى فريه فى الاسلام .

خمدت العصبية الجاهلية المفرقة ، وأطفأ نيرانها الايمان والفتوح الاسلامية، وقد وضعت العقوبات الرادعة الزاجرة لمن ينادى بها .

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يأمر قضاته وولاته أن يعاقبوا من ينادى بالعصبية الجاهلية ، حسما لمادة الفساد ، ولقد روى أن أبا موسى الأشعرى عاقب النابغة الجعدى بجلده خمسين جلدة لأنه اشتد بعصبيته ، ونادى يالعامر .

والفقهاء من بعد ذلك فى عصر الاجتهاد الفقهى بناء على الهدى المحمدى وعلى سنة الصحابة من بعده قدروا عقوبة زاجرة لمن ينادى بنداء الجاهلية .

فمنهم من جعلها خمسين جلدة اقتداء بالصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى ومنهم من جعلها عشر جلدات ، لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن جلد أحد فوق عشر جلدات الا فى حد .

ومنهم من قال ان ذلك يترك لتقدير القاضى ، أو الوالى اذ أن العقوبة عقوبة تعزيرية ، والتعزير يفوض الى القاضى أو ما يراه ولى الأمر رادعا .

وبذلك تعاون الولاة مع الامام أبى بكر وعمر على مقاومة العصبية التى تفرق الجمع الاسلامى وتقطع الوحدة الاسلامية .

اتساع الحكم الاسلامى :

٦٠ — فى عهد أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت الجيوش الاسلامية لتزيل حكم الملوك الذى كان يحول بين الشعوب ، والاستماع الى

الدعوة الاسلامية التى تتضمن التوحيد ، وأعلى المبادىء الاجتماعية من الحرية والمساواة ، وأن يكون أمر الناس شورى بينهم ، واقامة العدل ، ومنع الظلم والفســاد ، وما كان حكام ذلك الزمان ليسمحوا بأن تتسلل تلك المبادىء الى شعوبهم ، والا لم يكن لملكهم أساس يقوم عليه .

وفوق ذلك فان أولئك الحكام ردوا دعوة النبى ، ردا غير كريم ، واعتدوا على من أسلم فى الشام ، كما أشرنا من قبل ، وقد انسابت الجيوش الاسلامية فى أراضى هؤلاء الملوك ، وخضعت الشعوب المفتوحة أرضها لحكم الاسلام ، وأظلهم عدله .

وقد انقسموا الى قسمين : قسم أسلم ، ودخل فى جماعة المسلمين ، وصاروا بهذا تجمعهم راية الاسلام ، ويخضعون للقرآن ، وينفذ حكمه ، وحكم الدولة الاسلامية .

وقسم لم يسلم ، ولكن دخل فى عهد المسلمين ، ومن هؤلاء من ارتضى أن يكون فى ظل الحكم الاسلامى له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وهو حر فى الجزء الذى يتعلق بالعقيدة الدينية ، لا يمنع من اقامة شعائره الدينية ، ويكون فى أحكام الأسرة خاضعا لدينه الذى ارتضاه ، لا يكره على الدين ، ولا يضطهد فى اعتقاده، والقاعدة الفقهية التى أثرت عن الصحابة والتابعين ، وعدها الفقهاء قاعدة تتبع وتنفذ هى « أمرنا بتركهم وما يدينون » ويسمى هؤلاء الذميين ، اذ أن لهم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأى مسلم له أن يعقــد ذمة مع غير مسلم ، والامام يقره ، وذلك لقوله صلى الله عليــه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

وهؤلاء تؤخذ منهم جزية لقوله تعــالى : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون »** أى طائعون غير متمردين ولا مستكبرين ، وليس المعنى أذلاء ، فدين الله ، وهو دين العزة لا يذل أحدا ، اذ أن العزيز من الناس هو الذى يقدر العزة فى غيره ، كما يقدرها لنفسه ، ودين الحق والعدل لا يذل أحدا ، لأن قانون العدل ونظامه يمنع الاذلال .

وهذه الجزية كانت ليشترك غير المسلم الذى يستظل بظل الدولة الاسلامية في بناء الدولة والانفاق على مرافقها ، وهى فى مقابل ما يؤخذ من المسلم من زكوات جارية منظمة يجمعها ولى الأمر ، كما كان يجمعها النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق ولاة الصدقات الذين يرسلهم ، ومنها الصدقات المطلوبة والنذور والكفارات والفدية وغير ذلك •

وان الجزية تؤخذ منها النفقات على فقراء أهل الذمة ، فقد كان يفرض لهم من بيت المـــال ما يسد حاجتهم •

روى أبو يوسف فى كتابه الخراج ، أن عمر بن الخطاب رأى رجلا شيخا يتكفف الناس فسأله : من أنت يا شيخ ؟ قال : رجل من أهل الذمة ، فقال الفاروق العادل الرحيم : « ما أنصفناك أكلنا شبيبتك وتركناك فى شيخوختك » وأجرى له رزقا من بيت المـــال ، وقال لخازن بيت المـــال : ابحث عن ضرباء هذا ، وأجر لهم رزقا من بيت المـــال ، ولا شك أن ذلك الذى يجرى عليه يمكن أن يكون من الجزية ، ولكن عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه جعل ما يجرى على هذا الرجل وأشباهه من الزكاة،وقال انه داخل فى المساكين اذ يقول سبحانه : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله »** فأدخله فى المساكين ، بل انه رضى الله عنه فسر المساكين بزمنى أهل الكتاب •

والقسم الثانى من المعاهدين هم الأمراء أو الحكام الذين لم يقاتلوا المؤمنين عندما يخيرهم القائد بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيختارون العهد ، على ان يبقوا على ما هم عليه من حكم وسلطان ودين ، على مال يقدمونه فى نظير أن يقوم الجيش الاسلامى بالدفاع عنهم والذود عن أرضهم •

وقد قرر الفقهاء مقتبسين من هدى النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز من الشروط ما يكون فيه تمكين للأمراء والحكام من حكم الرعية بالظلم ، فان شرط ذلك يكون باطلا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حلالا ، أو حرم حراما » والظلم حرام لذاته حرمة لا يبيحها نظام أو قانون •

بل انه اذا علم أن أميرا ممن له عهد يظلم رعيته ، ويسعى بالفساد فيها يرد عليه عهده ، لأن ذلك يكون خيانة للعهد ، والله تعالى يقول : **« واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين »** .

الدولة الاسلامية بعد الفتوح :

٦١ — كانت الدولة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مقصورة على العرب وان آذن عليه الصلاة والسلام بأن الفتوح ستفتتح ، فآذن بأن الله سيفتح على المسلمين العراق وفارس والشام ومصر وما وراءها ، وروى عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيفتح الله تعالى عليكم مصر ، فاذا فتحتموها، فأعدوا فيها جندا كثيفا ، فهو خير أجناد الله تعالى فى الأرض ، فقال أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه : ولم يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لأنهم ونساءهم فى رباط دائم » .

وبعد أن فتحت هذه الأقاليم صارت الدولة الاسلامية ليست مقصورة على بلاد العرب وحدها بل شملت فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه تلك الأقاليم كلها ، وكانت الامامة الكبرى التى تتمثل فى الخلافة بالمدينة ، حيث أمير المؤمنين بها ، يبين تعاليم الاسلام ، ويبلغ أوامره ونواهيه الى كل اقليم ، ويلاحظ هنا أمور :

الأول : أن الشريعة الاسلامية شريعة القرآن والسنة المحمدية ، هى التى كانت تحكم بها تلك الأقاليم مهما تباعدت رقعتها عن المدينة ، وكانت عين الفاروق الساهرة الفاحصة تترصد لتنفيذ تلك الأحكام فى غير هوادة ، وليس لغير الحق عنده ارادة ، ولكن فى رحمة بالرعية ، وعطف على الضعفاء .

٦٢ — وفى الحقيقة أنه مع شمول الحكم لكل الأقاليم التى كانت فى ظل الدولة الاسلامية لم يفقد كل اقليم ذاتيته مع سلطان الامام العادل عليه ، ونفوذ الأحكام الاسلامية فيه .

لقد كان الامام عمر الذى اختبره الله باتساع سلطان الدولة الاسلامية يكتفى من فرض سلطانه بتنفيذ الأحكام الشرعية وهو عليه الرقيب الذى لا يترك

صغيرة ولا كبيرة الا تتبعها ، ليعرف مقدار تنفيذ أحكام الشريعة فى العدل والمساواة والإخاء بين المسلمين ، وقرب الحاكم من المحكوم •

ويترك للوالى الذى ينفـذه ما يراه مصلحة فى بلده ، بحيث لا يخرج عن المبادىء الاسلامية المقررة ، وبحيث يمكن أن يكون موافقا النظم الاجتماعيـة فى بلده التى لا تخالف الاسلام ولا تجافيه ، ولا تتنافى مع المقاصد المقررة فى الشريعة الاسلامية •

وكان يجعل فى كل اقليم ثلاث ولايات ، قد تجتمع اثنتان منها فى شخص واحد ، ولكن واحدة يجب أن تكون منفردة الولاية الأولى ولاية القتال والجهاد فى سبيل الدعوة الاسلامية من غير رهق ، والا اعنات للناس ، ولا اكراه فى دين الله تعالى •

والثانية : ولاية الخراج والجزية ، وقد تكون تابعة لوالى الجهاد الذى يعد أمير البلاد ، وله فيها الولايةالعامة ، وقـد اتبع عمرو بن العاص فى جمع الخراج نظاما يكاد يكون تعاونيا جماعيا •

فقد كانت عدة قرى تتجمع وتجمع خراجها : وتتولى كل قرية نظام الزراعة فيها فتوزع الأراضى الزراعية على القادرين عليها ومن يعجز أو يموت يتكفل القادرون زراعة أرضه له أو لورثته •

ويوزع خير الأرض بعد سداد الخراج ، وحجز مقدار للفقراء على المزارعين بنسبة ما تحت أيديهم •

وكان أمير المؤمنين يتعرف أخبار الذين يتولون الخراج ، حتى لا يرهقوا الأرض بأكثر مما تحتمل ، ويرهقوا الناس بأكثر مما ينتجون •

واذا تكاثر جمع المسلمين فى بلد كان والى الصـدقات يجمع الزكوات ، وينفقها فى مصارف ، وعين عمر تراقبه ، والغنائم والفىء تعود الى بيت المال •

والولاية الثالثة ولاية القضاء ، وهذه كان يتولاها قاض من قبل الامام الأعظم ، وهو الذى يشرف على من دونه ، وكان الامام يعطى القضاء عناية خاصة ، لأنه الميزان والقسطاس الذى يوزع العدالة بين الناس ، وجعل القاضى مستقلا يستمد السلطان من الشرع فقط ، ويستمد الفصل بين الناس من الامام الأعظم ، لكيلا يتحكم والى الجهاد أو الوالى العام فى النصفة بين الناس .

ولذلك نقول انه مع سيادة الدولة الاسلامية على كل الأقاليم التى سيطر عليها الاسلام سواء أدخلوا فى الاسلام أم بقوا على دينهم مع أنهم يعيشون فى ظل الدولة الاسلامية ، لم تمح الأقاليم .

بل كان فى كل اقليم حكومته ، وان كانت تابعة للدولة الكبرى ، وتوحدها الدولة الكبرى ، ولذلك نقول ، ان لكل اقليم حكومته ، ولكن القائمين عليها يستمدون الولاية من الامام الأعظم صاحب الولاية الكبرى التى وحدت الدولة .

وكانت الحكومات كلها لها قانون واحد هو القرآن والسنة ، والأمير الأعظم هو المقيم بالمدينة ومنه يستمد كل الولاة ولايتهم ، ويصدرون عنه فيما لم يترك لهم ، وهو يتتبع أعمالهم .

سيطرة عمر على الولاة :

٦٣ — كان عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه الامام ، وعصره هو العصر الذى استبان فيه سلطان الكتاب والسنة وتطبيقهما تطبيقا سليما على مقتضى العصر ، وحكومته هى الحكومة الاسلامية التى تعد بعد حكومة الرسول وخليفته المثال الذى يتبع ، وكان فيها جمع للمسلمين ، على الخير والعدل .

وكان يراقب عماله بالاستماع الى الشكوى منهم ، وما شكى من عامل وأهمل الشكوى ، بل انه فى بعض الأحيان كان يثبت له كذب الشكوى ولكنه يخشى من تحامل الوالى العادل البرىء على من شكاه لأن الافتراء يحدث شيئا فى نفس من افترى عليه كما فعل مع الصحابى الجليل أحد المبشرين بالجنة سعد بن أبى وقاص فانه كان ثمة شكوى منه ، وأحضره وبين له كذب الشكوى

وترضـــاه عمر ولكنه عزله مع ذلك ، خشية أن يكون آلمه ممن شكاه دافعـــا لما لا يريده .

وكان رضي الله عنه يصرح بأنه يؤثر أن يعزل كل يوم واليا عن أن يبقى واليا يظن منه الظلم أو يشتبه فى ظلمه . وكان يسأل فى موسم الحج وفود الأقاليم عن حال الولاة ويتعرف معاملتهم لرعيته فان تبين له أن الوالى يحتجب عن الناس عزله ، وان تبين له أنه يسكن بعيدا عن الناس نهاه .

وأول من يسأل عن حاله معهم حاله مع أهل الذمة (الذميين) أينصفهم أم لا ، وذلك لأن هؤلاء مظنـــة أن يظلموا فان تبين له أنه يحسن معاملتهم ، ويحفظ لهم حريتهم فى تدينهم أبقاه .

ولقد كان يجتمع بولاته ، ويحثهم على العدل ، وألا يرهقوا الرعية ، ومن ذلك قوله لهم فى احدى مرات الحج :

انى أرسلتكم لتعلموا الناس دينهم ، وما أرسلتكم لتضربوا أبشارهم ، والله لا أوتى بوال ضرب من غير حد لأقصن منه .

فقال عمرو بن العاص : أتقتص منه ولو ضرب تأديبا ؟ فقال الفـــاروق مكررا : والله لأقصن منه ، ولقد حدث أن عمرو بن العاص قال لبعض الناس : يا منافق أمام ملأ من الناس فى المسجد .

فشد الرجل رحاله وذهب الى أمير المؤمنين الفاروق فى المدينة وقال :

يا أمير المؤمنين ، ان الأمير نفقنى ، وما نافقت مذ أسلمت .

فكتب عمر رضى الله عنه كتابا ، وأعطاه الشاكى ، وفى هذا الكتاب :

« من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب الى العاصى ابن العاص .

ان فلانا (صاحب الشكوى) يقول انك نفقته ، وما نافق مذ أسلم ، فان كان ما يقول صدقا ، فمكنه من أن يضربك عشرة أسواط .

فجاء الرجل أمام الملأ ، وقال : من منكم سمع الأمير نفقنى ؛ قالوا : كلنا سمع . فأعطى الرجل الكتاب عمرا .

فقال الملأ : أو تضرب الأمير ، فصاح الرجل : ليس الأمير المؤمنين هنا أمر ، فأعطاه عمر السوط ، وطلب اليه أن يضربه ، فقال العربى الأبى . الآن عفوت .

٦٤ — لا يجب أن نطيل فى أخبار عمر رضى الله عنه ، وانها لنور ، ولكن يجب أن نقرر أن عهد عمر رضى الله عنه هو الذى كان فيه دخول الأمصار من غير العرب ، وهو الذى جمع بأمر الله ونهيه العربى والأعجمى فى ظل العدل الاسلامى ، وهو الذى ابتدأ بتنظيم العلاقة بين دار الخلافة الجامعة والأمصار المتفرقة ، بحيث يتحد الحكم ، ويبقى لكل مصر طبيعته التى لا تخالف المقررات الاسلامية ، بل تسايرها ولا تجافيها .

ونشير هنا الى أن الذى جمع هو العدالة الظاهرة مع الرعايا جميعا ، لا يقرب فى الحكم قريبا ولا يجافى بعيدا ، ولقد كان اذا نهى عن أمر أو أمر أمرا ، أحضر آل الخطاب ، وقال : لقد عزمت على المؤمنين أمرا ، والله لا أوتى بمخالف الا ضاعفت له العقاب .

وان العدالة الظاهرة المنبثقة فى كل الأقاليم هى التى منعت العصبية المفرقة من أن تظهر .

ولنذكر له خطبة وبعض كتبه يكشفان عن منهاجه القويم فى جمع المال وتوزيعه ، ومعاملته للرعية ، ومحاربته للعصبية .

الخطبــــة :

جاء فى كتاب الخراج للامام أبى يوسف عن طلحة بن سعدان ما نصه :

« خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه . ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال :

أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع فى معصية الله ، وانى لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى فى الحق ، ويمنع من الباطل ، وانما أنا ومالكم ، كولى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف .

ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويعتدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق . ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ، لكم على ألا أجبى شيئا من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمركم[1] فى ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان ، كثير القراء ، قليل الفقهاء ، يعمل به أقوام للآخرة ، وآخرون يطلبون دنيـا عريضة تأكل دين صاحبها ، كما تأكل النار الحطب . الا من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر .

يا أيها الناس ، ان الله عظم حقه فوق حق خلقه . فقال تعالى فيما عظم به من حقه ((**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون**)) .

ألا وانى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدوا الى المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم ، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم ، فاذا رأيتم بهم كلالا فكفوا عن ذلك فانه أبلغ فى جهاد عدوكم .

أيها الناس ، ان أشهدكم على أمراء الأمصار ، انى لم أبعثهم الا ليفقهوا الناس فى دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم بالعدل ، فان أشكل عليهم شىء رفعوه الى » .

---

(١) التجمير : البقاء مدة طويلة فى الجيش لا يعود الى أهله .

هذه خطبة جامعة مبينة لمنهاج عمر فى المـال بأبلغ قول وأوجزه ، ومنهاجه مع أمراء الأمصار ، ومنهاجه فى بث روح العزة ، ومنع الذلة بأى صورة من صورها .

وهكذا كان يربى الأمراء ، ويربى الشعوب ، وبذلك اجتمعا فى عهده على وحدة اسـلامية لا فرقة فيها امتـدادا للوحدة الاسـلامية التى كونها محمد ، واتباعا لأوامره .

بعض كتبـه :

٦٥ — وان كتب الفاروق الى عماله تكشف عن سياسته واقامته للعـدل ومحاربته العصبية ، ولنتخذ منها ثلاثة كاشفة عما وراءها مما لم نذكر :

١ — كتابه الى أبى موسى الأشعرى فى أعماله فى الولاية ، وهو غير كتابه فى القضاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فان للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، ودنيا مؤثرة ، فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، واذا عرض لك أمران أحدهما لله ، والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل ، وأخف الفساق .. واذا كانت بين القبائل ثائرة [١] ، وتداعوا : يا آل فلان ، فانما تلك : نجـوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى أمر الله ، وتكون دعواهم الى الله والى الامام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بآل ضبة ، وانى والله ما أعلم الا أن ضـبة ما ساق الله بها خيرا قط ، ولا منع بها من سوء قط ، فاذا جاءك كتابى هذا ، فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا[٢] ان لم يفقهوا ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح بابك ، وباشر أمرهم بنفسك . فانما أنت امرؤ منهم ، غير

---

(١) الثائرة : العداوة .

(٢) يفرقوا : بفتح الراء من غير تشديد معناها يخافوا .

ان الله جعلك اثقالهم محملا ، وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب • فلم يكن لها الا السمن ، وانما حتفها فى السمن ، واعلم أن للعامل مردا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان أشقى الناس من شقيت به رعيته ••• والسلام » •

٢ — وكتب الى معاوية بن أبى سفيان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فانى لم آلك فى كتابى اليك ونفسى الا خيرا ، واياك والاحتجاب وأذن للضعيف وأدنه ، حتى تبسط لسانه وتجرىء قلبه ، وتعهد الغريب ، فانه اذا ضاق حبسه ، وضاق اذنه ترك حقه ، وضعف قلبه ، وانما ترك حقه من حبسه ، واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والأيمان القاطعة فاحكم » •

٣ — عهده لأهل اللد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا أموالهم ولا يكرهون على دين غير دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لد : ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط » •

ومن هذه الكتب يتبين ثلاثة أمور :

أولها : كيف كان تشدده فى محاربة العصبية ، لأنها هى التى تفرق الجمع ، وتمزق الوحدة ، وكيف قرر العقوبات لمن ينـــادى بها من غير أن تأخذ الوالى هوادة فيها ، حتى يخافوا ويفزعوا ، ولا يعودوا اليها •

ثانيها : تشدده فى اقامة العدل ، وفى سبيل ذلك حث الوالى على ألا يحتجب

عن الرعية ، حتى لا ييأس الضعيف من عدله ، ولا يحبس الغريب الذى يشكو فلا يأذن له فيجب أن يسارع الى سماع شكواه •

ثالثها : عنايته بأهل ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية تدينهم، وحماية كنائسهم ، وهو بذلك سن القاعدة المقررة : أمرنا بتركهم وما يدينون •

عنـاية عمر بالقضـاء :

٦٦ — كان يعنى بالولاة ومراقبة حكمهم وصلاتهم بالرعايا ، ولا يضن بالنصيحة ، ومعها بعض الانذار ، كما لا يضن بالعزل ، وان وجدت مقتضياته وكان يكتفى فى العزل بالشبهات كما ذكرنا •

كذلك كان يعنى بالقضاء ، فكان لا يختار الا ذا دين وعقل ، وقوة فراسة ، وادراك للنفوس ، وكان لا يضن على القضـاة بالارشـاد الى أمثل الطـرق القضاء •

وقد حفظ التاريخ كتبا له فى القضاء تعد دستور القضاء •

ولنذكر لك خبرين من عنايته بالقضاء :

أولهما : عن الشعبى قال : أخذ عمر فرسا من رجل على سوم (أى على سوم الشراء) فحمل عليه ، فعطب الفرس ، فدعا باسمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل : انى أرضى بشريح ، فقال شريح : أخذته صحيحا سليما فأنت له ضامن ، حتى ترده صحيحا سليما ، فأعجب الحكم عمر رضى الله عنه ، فعينه قاضيا •

وقال له مبينا ما يقضى به :

« ما استبان لك من كتاب الله ، فلا تسأل عنه ، فان لم يستبن فى كتاب الله فمن السنة ، فان لم تجده فى السنة ، فاجتهد رأيك » •

هذا ما أمر به شريحا : وهو بهذا يشير الى المصادر التى يقضى بها القاضى : الكتاب فالسنة ، فان لم يجد فيهما كان الرأى المبنى عليهما . وهناك كتاب كان فى القضاء يبين فيه المصادر ، والاجراء الذى يتبعه فى مجلس القضاء .

وهذا نص ذلك الكتاب :

قال بعد حمد الله والصلاة على رسوله .

« أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له — آس بين الناس فى مجلسك ، وفى وجهك وفى قضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .. البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ومن ادعى حقا غائبا أو بينة ، فاضرب له أمدا ينتهى اليه فان بينه أعطيته حقه ، وان أعجزه ذلك استحلت عليه القضية . فان ذلك هو أبلغ فى العذر وأجلى للعماء ، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم . فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن يراجع فيه الحق . فان الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجربا عليه شهادة زور ، أو مجلودا فى حد ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فان الله تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود ، الا بالبينات والأيمان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس فيه قرآن ولا سنة . ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيها الى أحبها الى الله ، وأشبهها بالحق : واياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة ، فان القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله ، لأن الله لا يقبل من العباد الا ما كان خالصا ، فما ظنك بثواب الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله » .

هذه توجيهات عمر بن الخطاب الى القضاة ، ونراها ارشادية توجيهية .

وليس فيها تهديد بعقاب . ذلك لأنه يختار القضاة من ذوى العلم والدين ، فحاجتهم الى العناية والعمل بالعدل .

أما الولاة فقد كان يختارهم على القــدرة والادارة ، وكان يخشى على الادارة من الضعيف ذى الدين والقوى الذى لا دين له ، ويختار ما بين ذلك قواما ، فكانت القدرة الادارية عنصرا من عناصر الاختيار ، وكان الدين هو العنصر الآخر . ولأن الادارة هى المحتكة بالرعية بريئها وسقيمها ، وهى التى تتنازع فيها الأهواء وتصطرع فيها المآرب . ولذلك فصل القضاء عنها ، ولذلك كان شديد الرقابة عليها ، كثير العزل للولاة قليل العزل للقضاة .

دولة واحدة وأقاليم متعددة :

كانت الدولة واحدة مع تعدد الأقاليم ، ولا نستطيع أن نقول أن الحكومة كانت واحدة كما أشرنا ، فلكل اقليم حكومته التى تنفذ أحكام القرآن والسنة ، وما يكون مصلحة متفقة مع عادات الاقليم ، من غير المجانفة لاثم بالمخالفــة لأحكام الاسلام ، وعين الأمير الأعظم ساهرة متتبعة ، بحيث لا تخفى عليه من أمر الرعية خافية ، ولا يخفى عليه من أمر الولاة أمر ، بل الجميع يشعرون بأن وراءهم بعد الله محاسبا لا يغفر الهنات بل يعزل عند الشبهة .

وبهذا التنسيق العمرى كانت للأقاليم شخصيتها غير الخارجة على الاسلام والدولة هى المنظمة لعلاقات الجميع فى معاملات الوالى للرعية ، وفى علاقة كل اقليم بغيره .

وكانت الوحدة بادية فى شؤون الحرب ، فالامام الأعظم هو الذى يعين قواد الحروب ، وهو الذى يمد الجيش بالعتاد والعــدد ، فليس لأى اقليم جيش منفصل عن سلطان الامام الأعظم ، وهو فى هــذا الوقت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومن بعده ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما .

وكانت ولايته الكبرى بادية فى العلاقات الخارجية ، فأمير المؤمنين هو الذى يتولى بشوراه العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، والمعاهدات التى تعقد بينه وبين المحالفين الذين يختارون العهد ، كما رأيناه فى عهده الأهل ــ لد ــ وكما

رأيناه فى معاهدته لأهل ايليا التى كان فيها النص على ألا يدخل عليهم أحدا من اليهود •

وما كان يعقده الولاة ، انما كان بالنيابة عنه وبتفويض منه •

٦٧ — وكانت الوحدة بادية فى نظم الخراج والجزية ، فالنظام كان واحدا ، وأمير المؤمنين أو الامام الأعظم هو الذى يفرضه بحكم القرآن وعمل النبى صلى الله عليه وسلم ، وما يراه مصلحة تتفق مع مقاصد الاسلام ، ولا تخرج عن غاياته وأهدافه •

وكذلك كان نظام الصدقات وجمعها ، فانه ينفذ ، كما ورد فى السنة ، وتحت اشراف الامام الأعظم ، وكذلك الموارد المالية التى تفيض بها الأقاليم بعضها على بعض من غير أى محاجزات اقليمية •

وفى عام الرمادة عندما اشتدت الحاجة الى القوت أرسل الى الأقاليم ذوات الغلات الزراعية ، يطلب المعونة منها ، فأرسل الى عمرو بن العاص والى مصر ، يقول له : « الغوث ، الغوث » ، فرد عمرو بقوله : « سأرسل اليك عيرا يكون أولها عندك وآخرها عندى » •

وقد فكر فى حفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ليسهل وصول المدد الى البلاد العربية ، وكانت الوحدة تتمثل فى أمرين معنويين :

أحدهما — وحدة اللغة ، فقد كانت اللغة العربية لغة الدولة ، وكانت رباطا بين الأقاليم يربط بعضها ببعض ، وكان على كل مسلم أن يتعلم قدرا منها ، ويقول الامام الشافعى ، ان من المفروض أن يتعلم كل مسلم قدرا من اللغة العربية يصحح دينه •

ثانيهما : الثقافة الاسلامية ، فقد صرح أمير المؤمنين عمر بأنه أرسل الولاة ليعلموا المسلمين أمر دينهم ، كما نقلنا من خطبه ، وكتبه •

وننتهى من هذا الى أن الوحدة يمكن أن تتحقق مع تعدد حكومات الأقاليم . بشرط أن تكون هناك دولة جامعة ، أو جماعة موحدة ان تعذر وجود الدولة الجامعة وقتا ، وان كان ذلك هو الدعامة المفضلة على غيرها من الدعائم •

وانه يكتفى فى تحقق الوحدة ، بوحدة اللغة والثقافة ، والجهاد والعلاقات الدوليـة والوحدة الاقتصـادية ، وأن تزال الحاجزات الجمركية بين الدول الاسلامية ، بحيث يكون الاكتفاء الذاتى فى الأراضى الاسلامية وبحيث يكون التعاون على استغلال أراضى المسلمين وصناعتهم بأقصى ما يمكن ، وبالبداهة لا يرفع اقليم على آخر السلاح قط •

٦٨ ــ وقد يعترض الذين لا يفقهون وقائع الأحكام ، ولا غايتها ، ومرادها بأن عمر رضى الله عنه وضع نظاما سمى فى الفقه الاسلامى ، بأعمال العاشر ، وفهم بعض الفقهاء خطأ بأن ذلك من قبيل الجمارك على التصدير والاستيراد •

وذلك خطأ فى الفهم ، وانما سرى ذلك الى الكتاب من حب الرغبـة فى التقريب بين تفكير علماء المسلمين وما يجـرى فى العصر الحاضر من كلمات ، فانحرفت به هذه الرغبة عن المعنى الأصلى لنظام العاشر •

وفقه الموضوع فى نظام العاشر الذى وضعه الامام العظيم أمير المؤمنين عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أنه عندما فتحت الأقاليم ، كان بعض الناس يخرج من اقليم اسلامى ، أو من مدينة الى أخرى ، وقد وجبت عليه زكوات وجزية ، فكان الفاروق يخشى ألا يكون قد أداها ، ففرض نظام العاشر احتياطا المحافظة على أموال الدولة • فقرر رضى الله تبارك وتعالى عنه أن يأخذ العاشر من المسلم نصف عشر المـال الذى يحمله من مدينته أو اقليمه الى المدينـة او الاقليم الآخر ، وعلى الذمى العشر •

ولقد صرحت كتب الفقـه بأن ذلك يؤخذ ما لم يثبت المار أنه قد سـدد الزكوات وما يجب عليه من مال الجزية ، ويذكر فى ذلك الكاشانى صاحب بدائع الصنائع فى الفقه الحنفى : أن المار اذا قدم ما يدل على أنه أدى ما عليـه من فرائض مالية لا يأخذ منه العاشر شيئا •

فنظام العـاشر ليس فى معنى فرض جمارك ولا ما يشبه ذلك ، ومن قال ذلك ، فقد أخطأ •

عصر عثمان وما بعده :

٦٩ ــ كان ما سنه عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه هو المتبع فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله عنه وعهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه

فى الجنة ، والعهد الأموى ، وصدر الدولة العباسية كان على شاكلة نظام عمر فى الدولة الاسلامية بالأقاليم الاسلامية ، وكانت الوحدة القوية بادية فى الأمور التى ذكرناها •

وأما الرفق والرحمة بالرعية فقد كانت صفات المتقين منهم كعثمان وعلى، وعمر بن عبد العزيز ، ولكن النظام كان واحدا فى جميعها •

وكانت السنوات الست الأولى من عهد ذى النورين سيدنا عثمان رضى الله عنه هى امتداد لعهد الفاروق عمر رضى الله عنه •

وكان ذلك الامتداد اصلاح الراعى والرعية ، فما خرج سيدنا عثمان رضى الله عنه عن سنة الشيخين أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ، وخصوصا أنه عندما أعطى على نفسه عهدا بأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، وما كان لمثل عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه أن ينكث فى عهد أخذه على نفسه ، والحد بست سنين كانت الأمور فيها تجرى على سنة الشيخين أبى بكر وعمر ، حد تقريبى ، فقد تزيد على ذلك وقد تكون فى بعض الأقاليم أكثر من ذلك بكثير •

وان التغيير الذى حدث بعد ذلك لم يكن من عمل الامام الأعظم وانما كان من عمل قوم أثاروا الفتن وحاولوا أن يفسدوا أمر المؤمنين بشق الوحدة الاسلامية •

ولعل الشعوبية الدفينة فى النفوس قد عملت عملها ، وان لم تظهر بدعاية ، أو بمفاضلة بين الشعوب المحكومة بالاسلام وبين العرب ، على ما هو مدون فى التاريخ الاسلامى من بعد ذلك فى الحركات المسماة الشعوبية •

وانه بلا شك تحركت العصبية الجاهلية ، كما سنبين ، ونمت ، وفرقت المجتمع ، وقطعت الوحدة التى أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقام على رعايتها الشيخان من بعده ووسع أمرها عمر الذى لم يفر فريه فى الاسلام أحد ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقد ابتدأت الفتنة المفرقة بأن ذكروا عن عثمان رضى الله عنه أمورا خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زعمهم ، وحسبوا أنه قرب القرابة ، وأعطى الولاية من بنى أمية من

لا يستحقها ، ولم يكن لهم فى الاسلام سبق يبرر تقديمهم ، بل أخذوا عليه جمع القرآن ، وهو احدى حسناته ، وزكاه على بن أبى طالب وقال : لو لم يفعله عثمان لفعلته ، وأخذوا عليه أنه حمى من المراعى لابل الصدقة ، ولننقل لك ما رواه الطبرى :

جاء جماعة من الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان ، فجمعهم رضى الله تبارك وتعالى عنه فى المسجد ، وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عثمان بعد كلام لهم :

« ان هؤلاء قد ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذى علمتم ، الا أنهم زعموا أنهم يذكرونها عنـد من لا يعلم ، وقالوا أتم الصـلاة فى السفر وكانت لا تتم ، ألا وانى قدمت بلدا فيه أهلى ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : حميت حمى (أى منعت مرعى من رعى النـاس) وانى والله ما حميت حمى قبلى ، والله ما حموا شيئا لأحد ، ما حموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه أحـدا ، واقتصروا لصـدقات المسلمين يحمونها ، لكيلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ، ولا نحوا أحدا ، ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى ثاغية ولا راغية ، وانى قد وليت ، وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء ، فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

قالوا : كان القرآن كتبا ، فتركتها الا واحدة ، ألا وأن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما أنا فى ذلك تابع . أكذلك ؟ قالوا : نعم .

قالوا : انى وليت الحكم (وهو الحكم بن العاص قريبه) ، وقد سـيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم ، وقالوا : انى استعملت الأحـداث ، ولم أستعمل الا محتملا مرضـيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم ، ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم . يعيبون للناس ما لا يفسرون ، وقالوا : انى أعطيت ابن أبى السرح ما أفاء الله عليه ، وانما نفلته خمس ما أفاء الله عليه فكان

مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرده عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : نعم ، وقالوا : انى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فانه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم ، فانى أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون فى ما قالوا ، وانى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضـــلا ، فيجوز ذلك ممن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم على الا الأخماس ، ولا يحل لى منهم شىء ، فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، وما آكل الا من مالى » .

٧٠ ـــ هذا دفاع ذى النورين سيدنا عثمان رضى الله عنه أمام جمع من الصحابة شهدوا له بالصدق ، ولا شك أنه صادق من غير شهادة أحد ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن أوائل الناس اسلاما ، وهاجر الهجرتين مرة الى الحبشة ، والأخرى المباركة الى المدينة ، وجهز جيش المسلمين فى ساعة العسرة ، ووزع البر الذى استورده على أهل المدينة زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا فى شدة ، ورفض السوم فى العير .

ولكن بلا شك نلمح فى رده ، وما روى من اعتراضهم أنه ولى ابن أبى السرح ، وكان قد كتب الوحى ، ثم ارتد ، وأخذ يضلل الناس فى دينهم ، فزعم أنه كان يغير فيما يملى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد أباح عليـــه الصلاة والسلام دمه ، وأنه ان كان تاب ، وعفا عنه الرؤوف الرحيم فهو متهم فى دينه ، فكيف يولى بعد عمرو بن العاص .

ولكن يظهر أن دعاة الفتنة لم يسكتوا ، بل استمروا يلحون فى الشكوى حتى طم السيل ، فاجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلموا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، فدخل على أمير المؤمنين ذى النورين عثمان ، رضى الله عنه ، وقال له :

« الناس ورائى ، وقد كلمونى فيك ، والله ما أدرى ما أقول ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، انه لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شيء لنخبرك عنـه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهره ، وما ابن أبى قحافة بأولى بالحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وانك أقرب الى رسول الله رحما ، ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا ، ولا سبقاك الى شيء ، فالله الله فى نفسك فانك والله لا تبصر من عمى ولا تعلم من جهل ، وان الطريق لواضح بين ، وان أعلام الدين لواضحة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله امام عادل هدى وهدى ، وأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة . فوالله ، ان كلا لبين وان السنن لقـائمة لها أعلام ، وان شر الناس عند الله من ضل وضل به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر ، وليس معه نصير ، ولا عاذر ، فيلقى فى جهنم فيدور فيها ، كما تدور الرحى ، ثم يرتطم فى غمرة جهنم ، انى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فان عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون امام هـذه الأمة المقتول ، فانه يقتـل فى هذه الأمة امام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليهـا ، ويتركهم شـيعا ، فلا يبصرون الحق لعـلو الباطل ، يموجون فيها موجا ، ويمرجون فيها مرجا .

فقال عثمان : أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكرا ان وصلت رحما ، وسددت خلة ، وآويت ضائعا . ووليت شبيها بمن كان عمر يولى ، أنشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أن عمر ولاه ، قال : نعم ، قال : فلم تلومنى أنى وليت ابن عامر (أحد ولاته) وقرابته ؟

قال على : سأخبرك ، ان عمر بن الخطاب ، كان كل من ولى فانما يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبـه ، ثم بلغ أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقاربك ، قال عثمان : هم أقاربك أيضا .

فقال على : لعمرى ان رحمهم منى قريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم ، قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته .

فقال على : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ (غلام عمر) منه .

قال عثمان : نعم .

قال على : فان معاوية يقتطع الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول للناس : هذا أمر عثمان ثم يبلغك ولا تغير على معاوية »

ثم خرج على من عنده[1] .

٧١ـ لم ينم دعاة الفتنة ، بل انهم ساوروا المدينة وكان المصريون منهم يلهجون باسم على كرم الله وجهه فى الآخرة على أنه الأولى بالخلافة منه وأحاطوا ببيت عثمان .

فأرسل عثمان الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الآخرة يستدعيه وجاء فى كتابه :

« لقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين » .

فـان أك مأكولا فكن خـير آكل   والا فـأدركنى ولمـا أمزق

خرج اليه على رضى الله عنه ليهدىء الأمور ، فيصرف المصريين الذين كانوا يلهجون باسمه ، كما ذكرنا .

وتقدم الى عثمان لانقاذ الموقف . فأشار عليه بأن يكلم الناس بكلام يسمعونه يشهد الله على ما فى قلبه من النزوع والانابة فتكلم فى هـذا ، فرق الناس ، وارتفعت الأصوات ، وبكى كثيرون منهم . وارتدت القلوب الشاردة ، وكادت القضب ترجع الى أجفانها وتموت نوازع الشر فى خلاياها .

ولكن مروان بن الحكم الأموى جاء اليه يقول لائما له أو عاتبا :

بأبى أنت وأمى والله لوددت أن مقالتك هـذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضى بها ، وأعان ، ولكنك قلت ما قلت حين جاوز الحزام الطبيين،

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٩٧ الطبعة القديمة .

وبلغ السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لاقامة على خطيئة تستغفر منها أجمل من توبة تخوف عليها ، وانك ان شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع اليك على الباب مثل الجبال من الناس .

فقال عثمان : فاخرج اليهم فكلمهم ، فانى لأستحى أن أكلمهم .

فخرج مروان الى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا .

فقال : ما شأنكم كأنكم اجتمعتم لنهب ، شاهت الوجوه ، كل انسان آخذ بأذن صاحبه ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم ، والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا[1] .

هذه مساجلات كلامية جرت بين اثنين من أكبر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آثرنا أن ننقلها ، بدل أن نلخصها أو أن نعلق على الأحداث التى دفعت الى تلك المساجلات ، وان كان قد تدخل فيها بغير منطق الاسلام من لم يكن مكانه الصاحبين الجليلين اللذين نالا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمبشرين بالجنة .

ولا تبلغ مبلغ من يوجه لوما لمثل عثمان فى تقواه ، وعلى فى جهاده ، ولكنا نقول فى مروان أنه كان يلهب الفتنة ، ويضع فيها الوقود الذى يلهبها ، ويذكيها فى أسلوب جاهلى ، ويسمى الخلافة فى عثمان ملكا له ، والخلافة والملك يختلفان فى سببيهما وفى السيطرة وفى ثمراتها .

الفتنة التى فرقت القلوب ولم تمزق الوحدة :

٧٢ — وقعت الفتنة التى فرقت القلوب وان كانت الوحدة الاسلامية لم تتمزق .

لقد كانت بعد موت عثمان فئتان احداهما عادلة ، والأخرى باغية ، ونازعت الباغية صاحب الحق ، واقتتلت الطائفتان ، وقد قال تعالى :

---

(١) الطبرى : ج ص ١١٢ .

« **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** » وان خروج البغاة لا يعد نقضا للوحدة ، لأن المعنى الأخوى لا يزال قائما ، ولو كان النصر الدنيوى للبغاة ، وان كانوا فى البغى الذى أعقب مقتل الامام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، لم ينتصروا ، بل كان الجمع بعد ذلك فى عهد أحد سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الحسن رضى الله عنه ، وكرم الله وجه أبيه فى الجنة ، وصلى الله تعالى على جده وسلم .

ولو كان الحكم الذى انتهى اليه الأمر لم يكن قد انتهى الى من هو خير المؤمنين ، ومن كان حكمه عدلا ومن كان هو من أهل السبق فى الاسلام لكان خيرا ، ولكن الوحدة بهذه الفتنة وذلك البغى قد اهتزت ولم تزل ، بل استمرت قائمة ، والفتوح الاسلامية قد استمرت باسم الاسلام والسلام الحق .

فقد كانت الجيوش الاسلامية بقيادة قتيبة بن مسلم قد وصلت الى الصين شرقا ، ووصلت غربا بقيادة موسى بن نصير الى الأندلس غصن الاسلام الرطيب وفتحته ، وزادت الغصن حياة بروح الاسلام ، واستمر المسلمون سائرين ، حتى تجاوزوا جنوب فرنسا .

ولا نستطيع أن نقول أن الحكم كان عدلا فى كل نواحيه ، ومن كل الولاة ، وحسبنا أن نرى الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفى لكى نقرر أن العدل لم يكن شاملا .

ولكن يجب أن نقول ان الوحدة الاسلامية كانت قائمة ، وان كانت على دخن ، بخروج الخوارج الفينة بعد الأخرى ، ولكن كانت تزول بالحروب الجزئية التى كانت بين مقر الحكم وبينهم .

ومهما تكن حروب الخوارج فى أثناء دولة ملوك بنى أمية الذين تسموا بالخلفاء ، وسمى حكمهم ابن تيمية خلافة ملكية ، وليست خلافة نبوية ، لأنه لم

تكن ثمة بيعة اختيارية ، بل كانت ملكا وراثيا يتلقاه خلف الحاكم أو ولى عهده عمن سبقه .

وان الوحدة ، وان كانت قائمة ، قد ضمت فى ثناياها أسباب الفرقة التى أخذت تنمو جيلا بعد جيل حتى أتت من بعد بأشأم الثمرات ، وذلك بأن العدل لم يكن سائدا ، ولم تكن الروح الدينية سائدة ، وان كانت الألسنة ترددها ، فالوحدة كانت تضم فى أحشائها ما يهدمها بعد حين .

وانه مع ذلك بدت العصبية العربية تأخذ طريقها الى الحياة ، وانها وان لم تفرق الدولة الاسلامية وتجعلها أجزاء ، فقد أوجدت ثغرة فى القلوب وثغرة القلوب تؤدى الى الانقسام ، وان طال الزمان ، وبعد المدى

تنبؤ النبى صلى الله عليه وسلم بالفتن :

٧٣ — تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الفتن وذكرها عليه الصلاة والسلام فى أحاديث صحيحة وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما رواه البخارى عن زينب بنت جحش أنها قالت : استيقظ النبى صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب » .

ولقد جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به » .

روى البخارى ومسلم والترمذى باسنادهم عن حذيفة بن اليمان قال :

« كنا عند عمر رضى الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتنة فقلت : أنا ، قال : انك لجرئ ، وكيف سمعته ، قال : سمعته يقول : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال عمر رضى الله عنه : ليس هذا أريد انما أريد التى تموج كموج البحر . فقلت : مالك ولها

يا أمير المؤمنين ، ان بينك وبينها بابا مغلقا • قال : فيكسر الباب أو يفتح • قلت : بل يكسر ، قال : ذلك أحرى ألا يغلق أبدا » •

هذه أحاديث من شمائل النبوة تثبت علم النبى صلى الله عليه وسلم بوحى من الله تعالى بأمر الفتن التى وقعت من بعده ، واستمرت تجىء فتنة بعد فتنة ، وتتولد واحدة بعد أخرى •

وان النفوس المؤمنة تقاوم الفتن ولكن قد تخط فى غير خطوطا سوداء ، تؤثر فيها ، ولقد روى مسلم عن حذيفة أيضا : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء[1] ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير قلبا أبيض مثل الصفاء ، فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد[2] كالكوز مجخيا[3] لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، الا ما أشرب من هواه » • وفى هذا الحديث كما قال حذيفة مخاطبا أمير المؤمنين عمر : « ان بينك وبينها بابا مغلقا ، يوشك أن يكسر ، فقال عمر : أكسرا لا أبالك فلو أنه فتح كان لعله يعاد » •

هذه نبوءات النبى صلى الله عليه وسلم وهذه من شمائل النبوة •

وهنا يسأل سائل : لماذا كانت هذه الفتن ؟ ، ولماذا أخبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم ؟ •

أما الاجابة عن السؤال الأول ، فانه يتعلق بارادة الله تعالى ، والله لا يسأل عما يفعل ، كما قال تبارك وتعالى **« لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون »** ولكن يجب علينا أن نعلم أن ذلك لحكمة أرادها ، وهو العليم الحكيم الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، وهو السميع البصير •

وانا نحاول أن نتعرف هذه الحكمة ، كما نتعرفها فى الأدواء التى تصيب المؤمن اختبارا لايمانه وكشفا ليقينه ، وكما تختبر الأمم بالبأساء والضراء ،

---

(١) النكتة : الأثر •
(٢) المرباد الذى يكون لونه بين البياض والسواد •
(٣) والمجخى المائل عن الاستقامة ، أو هو المنكوس •

كما قال تعالى « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب** » فهى نوع من ابتلاء الله تعالى لتصقل النفوس ، وتتعود المجاهدة ، وتتعرف الخير فأمر به ، والشر فتنهى عنــه ، كما قال تعالى : « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » .

ولا شك أن الفتن تكشف المنافقين ، وتصقل قلوب المؤمنين ، فيزدادوا ايمانا ، ويتحفزوا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو يفوضوا الأمور لله ، اذا كان شح مطاع ، وهوى متبع ، والزمان يجعل الفتنة يأكل بعضها بعضــا وتخبو نارها ، وماذا بعد ذلك الا الحق يقام ، والعدل يستقر .

وأما الاجابة عن السؤال الثانى ، وهو السبب فى اخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، فانما هو لبيان علاجها فى اوقاتها ، وفيها اشارات الى من يثيرونها ، وأنها أحيانا تكون من قوم ظاهرى الايمان والتشدد ولكن عقولهم منحرفة ، وقلوبهم ملتوية ، وهم فى جملة حالهم غير مدركين ، ولا فاقهين .

ولقد كان الناس كثيرا ما يسألون عن قابل الأمور فيجيبهم النبى صلى الله عليه وسلم .

أخرج الشيخان ـــ البخارى ومسلم ـــ وأبو داود عن حذيفة بن اليمان : « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت : يا رسول الله انا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله تعالى بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : فهل بعــد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما الدخن ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى ، ويهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم اليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله ، فما تأمرنى ان أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جمــاعة المسلمين وامامهم . قلت : فان لم تكن جماعة ولا امام ، قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

ونرى من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجيب ، ويكشف عما يكون ، وما ينبغى للمؤمن فى هذه الفتن .

ولقد روى عن على كرم الله وجهه فى الجنة أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بكم اذا فسق فتيانكم ، وطغى نساؤكم ، قالوا : يا رسول الله ، وان ذلك لكائن ؟ قال : نعم وأشد . كيف أنتم اذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ، قالوا : يا رسول الله وان ذلك لكائن ، قال : نعم وأشد ، كيف بكم اذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا : يا رسول الله ، وان ذلك لكائن ، قال : نعم وأشد ، كيف بكم اذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا : يا رسول الله وان ذلك لكائن ، قال : نعم » وهنا نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر الأشد فى الحال الأخيرة ، لأنه لا يوجد أشد من ذلك فى أحوال الأمم ، اذ تفسد الأخلاق وتفسد النفوس ، وتفسد المدارك حتى يرى الخير شرا ، والشر خيرا ، وبذلك تصل الحال الى أبعد أغوار الجاهلية . والله المنجى .

وقد أدركنا ذلك الزمان الذى تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صرنا نرى كل أمر معكوسا وكل حق منكوبا ، وقد فسدت الأمور ، وشاهت العقول ، وطمس النور ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الخلافة والوحدة :

٧٤ — رأينا أن الجماعة الاسلامية خرجت من الفتن موحدة القوى ، قد اتجهت شرقا وغربا فى الفتوح حتى وصلت شرقا الى الصين ، وغربا الى المحيط ، بل الى جنوب فرنسا ، واذا خرجت خارجة ، فقد كانت كالبثور فى الجسم لا تصيب منه الاحساس بل تمس السطح ، ولا تتجاوز الظاهر ، وتصل الى الباطن .

ولعل الفضل فى بقاء الوحدة هو ما سمى فى التاريخ الاسلامى الجماعة ، وقد كانت الجماعة تلتف حول من تسميه خليفة أو تسميه أمير المؤمنين ، سواء أكان قد تولى بشروط الخلافة النبوية ، كما سماها ابن تيمية ، أم تولاها باسم

الملك والسلطان ، وجبت طاعته ، اذ أن جمهور الفقهاء قرروا أن كل من تغلب ، ورضيته الجماعة وجبت طاعتـه • وقـد سمى ابن تيمية من تولى من غير أن يستوفى الشروط النبوية فى الخلافة سمى ذلك خلافة ملوك •

ومهما تكن الأسماء ، فان اسم الخلافة كان له دخل كبير فى بقـاء الوحدة الاسلامية ، ولو لم يكن العدل هو الذى يحكمها ويسيطر عليها ، وقد وجب علينا أن نتكلم فى الخلافة وأسباب الحكم •

لقد تكلم ابن خلدون فيلسوف الاسلام الاجتماعى فى الفرق بين الخلافة والملك الفاسد ، والملك الصالح • فقال : « ان الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار •

والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة • فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين ، وسياسة الدنيا » •

هذه تفرقة ابن خلدون بين الملك الفاسد والملك الصالح ، والخلافة لا تكون الا حكما صالحا ، ما دام القائم عليها محققا لمقاصدها وأغراضها •

وان الخلافة كانت حقيقة تتحقق فيها الخواص التى ذكرها ابن خلدون فى عهد الراشدين جميعا ، فقد كانوا منفذين لأحكام الشريعة ، يحملون الناس عليها ، ويقيمون الحدود • وكان ذلك شأن الخلافة حتى انقلبت ملكا عضوضا فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وتحقق الأثر الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ قال فيما يروى عنه صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون ، ثم تصير ملكا عضوضا » ولما للخلافة النبوية من هذه المنزلة فى حراسة الدين ، واقامة حدود الله والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية يجب على الكافة اقامة خليفـة ، بحيث يأثمون ان لم يعملوا على اقامته أو لم يقم •

قال ابن حزم فى كتابه الفصل :

« اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الامامة ، وان الأمة عليها واجب الانقياد لامام عادل يقيم فيها أحكام الله تعالى ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حاشا النجدات من الخوارج ، فانهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الامامة ، وانما عليهم أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وهذه فرقة ما نرى بقى منهم من أحد ، وهم المنسوبون الى نجدة بن عويمر الحنفى باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفى فى الرد عليه وابطاله اجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بايجاب الامام ، من ذلك قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الأئمة ، وايجاب الامامة .

وقد تكلم بعد ذلك فى وجوب اقامة امام واحد لعامة المسلمين ، وقال انه مجمع عليه ، وهو معقول المعنى ، لكى تتحقق الوحدة الاسلامية فى الحكم كما هى واجبة ، ولكن أجاز بعض الزيدية اقامة امامين اذا اقتضت المصلحة ، ولكنه لم يذكر مخالفة هؤلاء لأنه لا يرى لهذا الرجل أتباعا .

ويقول فى ذلك : ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الامامة على أنه لا يجوز كون امامين فى وقت واحد فى العالم . ولا يجوز الا امام واحد الا محمد بن كرام السجستانى وأبا الصباح السمرقندى وأصحابهما ، فانهما أجازا كون امامين وأكثر فى وقت واحد .

واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير ، واحتجوا أيضا بأمر على والحسن مع معاوية رضى الله عنهم .

كل هذا لا حجة لهم فيه لأن قول الأنصار رضى الله عنهم ذلك كما ذكرنا لم يكن صوابا بل كان خطأ أداهم اليه الاجتهاد وخالفهم فيه المهاجرون ، ولابد

اذا اختلف القائلان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقا ، والآخر خطأ ، واذا كان ذلك كذلك ، فواجب رد ما تنازعوا فيه الى ما افترض الله عز وجل الرد اليه عند التنازع ، اذ يقول سبحانه : ((**فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**)) فنظرنا فى ذلك فوجدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال : « اذا بويع لامامين فاقتلوا الآخر منهما » ، وقال تعالى : ((**ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات**))وقال تعالى : ((**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**)) .

واذا كان امامان فقد حصل التفرق المحرم ، ووجد التنازع ، ووقعت المعصية ، فصح أن قول الأنصار — رضى الله عنهم — خطأ ، رجعوا عنه الى الحق ، وعصمهم الله تعالى من التمادى عليه .

وأما أمر على والحسن ، ومعاوية ، فقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين ، وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة على ، السابق الى الامامة ، فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أنذر عليه الصلاة والسلام بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، فصح بعد أنه صاحبها وأن من نازعه فيها فهو مخطىء ، فمعاوية مخطىء ! ! لأنه مجتهد ، ولا حجة فى خطأ المجتهد . فبطل قول هذه الطائفة أيضا .

ونحن مع جمهور الفقهاء والمحدثين فى أنه لا يصح اقامة امامين فى عصر واحد ، لأن الخلافة جامعة للوحدة الاسلامية ، ولا يمكن أن تكون جامعة وثمة امامان ، وأن اختيار سيدنا عمر لنفسه ، أو لمن بعده لقب أمير المؤمنين يومىء الى أن الامامة تكون عامة ، لا تختص بجزء من الأرض الاسلامية ، بل تعمها لتكون الوحدة الجامعة ، وليتحقق قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

شروط الخلافة النبوية :

٧٥ — ذكر الفقهاء شروطا فيمن يتولى المنصب بعضها متفق عليه ،

وبعضها قد جرى الخلاف فى لزومه ، ولقد ذكر ابن خلدون شروط هذا المنصب ، وأشار الى المختلف فيه منها ، فقال :

« وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلف فى شرط خامس ، وهو النسب القرشى » .

وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلا لقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا يفلح قوم أسند أمرهم الى امرأة » .

وأحسب أن ذلك الشرط متفق عليه بين علماء المسلمين ، ولم يذكروه لبداهته ، ولكن نص عليه ابن حزم من بينهم ، فكان تصريحا بما هو مفهوم عند الجميع ، وما استقر عليه رأى الجميع .

أما الخلاف الذى ذكره ابن خلدون فى النسب القرشى ، فهو خلاف مترامى الأطراف مختلف النواحى قال فيه ابن حزم : « اختلف القائلون على وجوب الامامة فى قريش ، فذهب أهل السنة وجميع الشيعة وبعض المعتزلة ، وجمهور المرجئة الى أن الامامة لا تجوز الا فى قريش عامة من ولد فهر بن مالك ، ولا تجوز فيمن كان أبوه من غير بنى فهر بن مالك ، وان كانت أمه من قريش ، ولا فى حليف ولا فى مولى ، وذهب الخوارج كلهم وجمهور المعتزلة ، وبعض المرجئة الى أنها جائزة فى كل من قام بالكتاب والسنة ، والواجب أن يقدم الحبشى لأنه أسهل لخلعه اذا حاد عن الطريق » .

وكأنه لا يصح عند هؤلاء أن يكون للامام عصبية تدافع عنه ، ولذلك استحسنوا أن يكون ممن لا عصبية له ، وان ابن حزم ليسترسل فى بيان الاختلاف فى اشتراط القرشية ، فبعد أن يذكر الخلاف فى أصل الشرط ، يذكر الخلاف بين من اشترطوه ، فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه :

« واختلف القائلون أن الامامة لا تجوز الا فى قريش ، فقالت طائفة : هى جائزة فى كل ولد فهر ، وهذا قول أهل السنة وجمهور المرجئة ، وبعض المعتزلة ،

وقالت طائفة : لا تجوز الا فى ولد على بن أبى طالب ... وبلغنا عن بعض بنى الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة الا فى بنى عبد المطلب خاصة ، ويراها فى جميع ولد عبد المطلب ، وهم ابو طالب وأبو لهب ، والحارث والعباس ، وبلغنا عن رجل كان بالأردن أنه يقول : لا تجوز الخلافة الا فى بنى أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتابا مؤلفا لرجل من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يحتج بأن الخلافة لا تجوز الا لولد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما » .

ومع هذا التفريع والتفصيل الذى ذكره ابن حزم رضى الله عنه لا يذكر الخلاف عنـد من يرون أنها فى ولد على بن أبى طالب رضى الله عنـه ، فقد اختلفوا ، ففريق قال : كل ولد لعلى يجوز أن يكون خليفة ، ولو كان من غير فاطمة ، فمحمد بن الحنفية نودى له بالخلافة ، وهو ليس من أولاد فاطمة .

ومنهم من قال : ان الخـلافة من ولد على من فاطمة من أولاد الحسن أو الحسين ، وأولئك هم الزيدية ، ومنهم من قرر أن تكون الخلافة من أولاد على من الحسين ، وأولئك هم الامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعيلية .

ومهما يكن أمر الخلاف بين الذين لم يجوزوا الامامة الا فى القرشيين ، فمن الثابت أن جمهور علماء المسلمين يرون أن الخليفة من قريش ، ومن عداهم أقل عددا وأضعف ناصرا .

وحجة هؤلاء الكثرة من العلماء حديث « الأئمة من قريش » وفى رواية « الأمراء فى قريش » .

هذا الحديث يحتمل أن يكون تنبؤا بأمر يكون فى المستقبل ، مثل « الخلافة بعدى ثلاثون ثم يكون ملكا عضوضا » فيكون مؤداه أن الامامة الجديرة بأن تكون امامة المسلمين التى ترعى مصالحهم ، وتقيم حدود الله تعـالى هى فى قريش ، ولقد صدقت نبوءة النبى صلى الله عليه وسلم ، فان الراشدين كانوا الأئمة حقا ، وأربعتهم من قريش .

ويحتمل أن يكون بيانا لحكم شرعى باثبات أن الخلافة أو الامامة لا تكون الا فى قريش •

ويقول : ان المفسرين للحديث اتجهوا هذين الاتجاهين • واستمع الى ما يقوله ابن حجر العسقلانى فى شرح حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى اثنان » التقدير لا يزال هذا الأمر فلا يسمى بالخليفة الا من يكون من قريش الا أن يسمى أحد من غيرهم غلبة وقهـرا ، واما أن يكون المراد به الأمر ، وان لفظــه لفظ الخبر ، ثم قال ابن حجر :

قال النووى : حكم حديث ابن عمر الى يوم القيامة ما بقى من الناس اثنان ، وقد ظهر ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم فمن زمنه الى الآن لم تزل الخلافة فى قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ، ومن تغلب على الملك بطريق الشوكة لا ينكر أن الخلافة فى قريش ، يدعى أن ذلك بالنيابة عنهم •

ثم قال ابن حجر : هــذا الحديث خبر عن المشروعية ، أى لا تنعقــد الامامة الكبرى الا لقرشى مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنــح الى أنه خبر بمعنى **الأمر** •

هذا ، واننا ننتهى من ذلك التفسير الى أن الحديث يحتمل أن يكون تنبؤا ، وانه لصادق ، ويحتمل أن يكون تكليفا فيــه أمر بألا يكون امام فى الامامة الكبرى الا من قريش •

وانه مع هذا الاحتمال لا يمكن الاستدلال به على أنه لا تنعقد الخلافة أو الامامة الكبرى الا لقرشى •

وأنه على فرض أن الحديث فيــه تكليف أو أمر ، فانه من المؤكد أن الروايات تضافرت على أن أولوية قريش مقيدة بعــدلهم ، واقامتهم الحق ، بل ان طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مخاطبا

قريشا « وأنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق الا أن تعدلوا عنه فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة » ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فان لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » .

وان الأخبار يفهم منها أن القرشي أولى من غيره اذا تساوى مع غيره كفاية وعدلا ، فان لم يكن فى كفاية غيره وعدالته ، فغيره أولى ، ويؤيد ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال « ان أدركنى أجلى ، وأبو عبيدة حى استخلفته ، فان أدركنى وقد مات أبو عبيدة لستخلفت معاذ بن جبل » ومعاذ بن جبل غير قرشى ، وما كان لعمر الفاروق أن يخالف أمرا أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذا كان خبر « الأئمة فى قريش » قصد به الأمر والتكليف .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » هذا وان أبا بكر رضى الله عنه عندما ناقش الأنصار فى أمر الخلافة لم يستدل بخبر « الأمراء فى قريش » أو « الأئمة فى قريش » انما استدل بالمصلحة ، فقال رضى الله عنه « لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش » .

ولو كان هذا الخبر المروى قاطعا فى الدلالة على أولوية قريش بالخلافة ما ترك الخبر وأخذ بالرأى القائم على المصلحة العامة لجماهير المسلمين .

وننتهى من هذا الى أن شرط القرشية ليس ثابتا فى دلالته على وجه القطع لأن الاحتمال دخل الدليل ، واذا دخل الاحتمال يبطل الاستدلال ، كما ذكرنا من قبل .

أما الكفاية والعدالة فشرطان لازمان لا ريب فى ذلك ، لأن الامامة وان كانت أمرا دينيا هى فى ذاتها أمر مصلحى أقيم لمصلحة الكافة ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور مع الظلم ، ولا أن يحقق مصلحة العباد من ليس ذا كفاية فلا يمكن أن تتحقق الخلافة النبوية بدونهما .

وهنا شرط قد أغفل فى أكثر عصـــور التاريخ الاسلامية وهو الاختيار بالشورى والمبايعة ، فان ذلك الشرط أغفل فى غير عهد الراشدين •

وان المبايعة عقد يقوم بين الامام وبين المسلمين ، على أن يلتزم القيام بتنفيذ الشرع ، ويلتزموا بطاعته ، ويتمثل تنفيذ هـذا العقد فى قول الامام عمر : أعينونى ما أطعت الله فيكم ، وقــد كان اختيــار أبى بكر فى سـقيفة بنى ساعدة ، وتمت المبايعة عندما سارع اليها عمر حسما لمـادة الخلاف وقطعا للنزاع أو انهاءه ، وأبو بكر عندما عهد الى عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهما أخذ البيعة له ، حتى لا يتفرق أمر المؤمنين •

وان عمر بن الخطاب يشترط قبل المبايعة أن يكون ثمة شورى للمسلمين تنتهى باختيار من يسيرون فى مبايعته ، وذلك ليتحقق قوله تعالى : ((**وأمرهم شورى بينهم**)) فلا يباغت الناس بالمبايعة بل تكون مجاوبة ومشاورة ينتهون فيها الى مبايعة من يرونه أهلا ، فالمبايعة ثمرة الاختيار ، ولا تكون الثمرة قبل أصلها ، ولقد قال عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ((من بايع رجلا بغير شورى المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى بايعه)) •

الوحدة مع الولاة والعصاة :

٧٦ ــ ان الوحدة الاسلامية غاية تستهدف ، والخلافة العادلة التى تعـد الامامة من ذرائع وجودها ، واقامتها على قسـطاس مستقيم ، ولذلك أجمع العلماء على اشتراط العدالة ، وليس العصاة من أهل العدالة ، فهم بلا ريب ليسو أهلا للامامة العظمى ، واذا تولوا وهم عدول ثم فسقوا عن أمر ربهم أتسقط توليتهم من تلقاء نفسها أم يبقون ولاة فى تلك الولاية الكبرى ، ولو سادهم الفسق والفجور •

ولقد اختلف فى ولاية الفاسق بأن تأمر ابتداء وهو فاسق وهو غير خليفة ، ولكنــه تغلب وحكم أو تحكم أو ولى على أنه عدل ، فانكشف أمره ، فظهر فاسقا ، أو كان عدلا ، وحاد عن منهاج العدل وسبحان مقلب القلوب ، ومهما يكن وصف فسقه أو عصيانه •

اختلف العلماء فى ذلك على ثلاثة آراء

أولها : أن يرد جميع أمره بأن ترفض ولايتـه ، فلا يطـاع فى طاعة • ولا معصية ، لأن توليه ظلم وطاعته ولو فى عدل اقرار للظلم •

وثانيها : وهو أقواها وأبعدها نظرا ، وعليه الأكثرون ، أن يطاع فى الحق ولا يطاع فى معصية لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

وثالثها : ان الفاسق اذا كان هو الامام الأعظم يطاع فى الطاعة ، ولا يطاع فى المعصية ، وان كان الفاسـق ليس هو الامام الأعظم ، بل أحـد ولاته فى الأقاليم ، أو من دون ذلك ، فانه ترد طاعته فى عدل أو ظلم لأن الامام الأعظم لا يمكن تغييره الا بفتنة ، والفتنة تمزق الوحدة الاسلامية ، ومن دونه يمكن تغييره بدون فتنة •

فلابد من حماية العدالة والوحدة معا •

ويختار الأكثرون من العلماء الرأى الوسط ، ومنهم ابن تيمية[1] •

وأن ذلك يدفع الى النظر فى أمرين :

أولهما : حال ما اذا لم تتوافر فى الامام الأعظم الطاعة فى أمر اهتز سلطانه وكانت الفتنة ، ولا ضير فى ذلك بالنسبة لمـا فيه تنفيذ لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان الطاعة — فى الحقيقة — للكتاب والسنة ، وأما حيث يأمر بمعصية فان المخالفة تكون للكتاب والسنة وطاعتهما أولى من طاعة الرجال مهما يكن شأنهم •

والثانى : الفتنة التى تترتب على رد كل ما يأمر به الامام الأعظم ، أضرارها أعظم من طاعته فى غير معصية ، وترتيب الأمور لتغييره ، ولهـذا رجح رأى الجمهور وابن تيمية •

---

(١) « منهاج السنة » جـ٢ ص ٧٦ ، ٨٧ •

اذا لم يكن من هو أهل للامامة :

٧٧ — قد تبين أن الامامة لها شروط شرعية بعضها متفق عليه ، وبعضها مختلف فيه ، فأما المتفق عليه فهو العدالة ، والكفاية ، وأن يكون ذلك باختيار الأمة ، وقد تبين أن شرط القرشية مختلف فيه •

فاذا لم تتوافر الشروط كاملة ، أيكون أمر المسلمين فوضى من غير حاكم ولا شك أن شرط الخلافة لم يعد محققا ؟

يشير ابن تيمية فى كتابه « منهاج السنة » ، ويقرر أن الذين يستوفون الشروط المؤهلة للخلافة هم الذين يسمون خلفاء ، وأما الذين يتولون فانهم يسمون ملوكا ، ولا يسمون خلفاء ، ولكن يكون الرضا بحكمهم للضرورة لأن الحكم بين المسلمين خير من أن يتركوا فى فوضى ، وان الطاعة واجبة لهؤلاء فيما يقومون به من أداء أوامر الدين واجتناب نواهيه ، لأن هذه الولاية خير من الفوضى على أى صورة كانت ، ويعد من سمى أميرا أو خليفة من حكام الأمويين والعباسيين ملوكا ، ويقول فى ذلك :

« والذى فى السنن ، الخلافة بالنبوة ثلاثون (سنة) ثم يصير ملكا » •

ويقول فى حكم يزيد بن معاوية الذى استباح حرمات أهل المدينة ، وقتل الامام الحسين أفجر قتلة • يعتقد أهل السنة أنه ملك المسلمين ، وخليفتهم فى زمانهم ، وصاحب السيف ، كما كان أمثاله من خلفاء بنى أمية ، وبنى العباس فيزيد فى ولايته هو واحد من هؤلاء الملوك المستخلفين فى الأرض •

وهو يرى كجمهور أهل السنة أنه تجب طاعة هؤلاء الملوك المستخلفين ولم يكونوا خلفاء نبوة لعدم استيفائهم شروط الخلافة النبوية الصحيحة ، فيجب طاعتهم والخضوع لحكمهم لأنهم ولاة الأمر •

وان الرأى الغالب فى الفقه الاسلامى أن كل متغلب تجب طاعته ، حتى يغير من غير فتنة ولكن لا يطاع فى معصية ، وان أولئك مهما يكن أمرهم يعدون

ملوك المسلمين ماداموا الحاكمين ، ولا ينازعهم عدل أمين استوفى شروط الخلافة النبوية ، ولأنهم يقيمون الجمع والأعياد ، ويقيمون الحدود وينظمون الولايات ويغزون أعداء المسلمين ، ويدافعون عن أرض الاسلام •

وكونهم — أو بعضهم — فجارا لا يمنع تقديم الطاعة لهم ، ما دامت الطاعة لا معصية فيها ، أو ليست الطاعة فى ذات المعصية والفجور •

ويقول ابن تيمية فى هذا : « والصواب الجامع فى هذا الباب أن من حكم أو قسم بعدل نفذ حكمه وقسمته ، ومن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أعين على ذلك اذا لم يكن فى ذلك مفسدة راجحة ، وأنه لابد من اقامة الجمعة والجماعة فان أمكن تولية امام بر لم يجز تولية فاجر ، ولا مبتدع يظهر بدعته ، فان هؤلاء يجب الانكار عليهم بحسب الامكان ، ولا تجوز توليتهم ، فان لم يكن الا تولية أحد رجلين : أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد ، والآخر فيه منفعة فى الجهاد مع ذنوب له ، كانت تولية هذا الذى ولايته أنفع للمسلمين ، خيرا من تولية من ولايته أضر على المسلمين • واذا لم تكون صلاة الجمعة والجماعة وغيرهما الا خلف الفاجر ، والمبتدع صليت خلفه » •

وقبل أن نترك كلام ابن تيمية فى هذا المقام نذكر حوله أمورا ثلاثة :

الأمر الأول : أنه أشار الى أنه يجب اتباع الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ما لم يكن فى الاتباع مفسدة راجحة ؟ ونجيب عن ذلك بأن المفسدة حيث يترتب فى الاتباع فتنة ، وحيث يترتب على اتباع الداعى تخذيل عن الجهاد باضعاف الثقة فى القائد • أو الحاكم الذى يجابه الأعداء ، والحق أن الاستنكار فى هذه الحال لا يكون من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل يكون من قبيل الدعوة الى فتنة •

الأمر الثانى : أنه ينظر فى الولاية والتردد فيمن يختار لها الى نفع المسلمين فمن يكون أكثر نفعا يطاع فى غير معصية ولو كانت له ذنوب ، ومن يكون ضعيفا فانه لا يولى لأن ضعفه على المؤمنين •

ولقد سئل الامام أحمد عن أميرين فى الجهاد أحدهما قوى يرتكب وزرا والآخر ضعيف تقى ، مع أيهما يعمل المؤمن ، فقال رضى الله عنه : مع القوى الموزور لأن فسقه على نفسه ، وقوته للمسلمين ، ولا يعمل مع الضعيف التقى لأن تقواه لنفسه وضعفه على المؤمنين .

الأمر الثالث : أن ابن تيمية وغيره من جمهور الفقهاء يرون أن قيام الوحدة الاسلامية من غير تمزيق هى فى ذاتها مقصد قائم بذاته ، وأن اقامة الدولة الموحدة للأمة الاسلامية وحمايتها من أعدائها ، وسد الثغور وتنفيذ النظم التى لا تجانف لاثم ، وتثبيت دعائمها — غرض مقصود من اقامة الدولة الاسلامية ، فان أمكن أن يقوم بذلك التقى القوى كان ذلك هو الدين فى لبه وصميمه ، وان لم يمكن اقامة التقى الذى يحمى الذمار ويحسن التدبير . ووجد الأمير الحسن الرأى والتدبير ، وان لم يكن تقيا يجب طاعته فى غير معصية ، لأن الطاعة فى هذا الحال أداء لواجب دينى . وان ابن تيمية فى هذا يتبع رأى الامام أحمد الذى ذكرناه آنفا .

ويقول ابن تيمية فى تأصيل فكرة الطاعة لمن يتولى أمر المؤمنين ، ولو لم يكن مستوفيا شروط الامامة ومنها القرشية فى نظره ، قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » ، وفى الصحيحين عن أبى ذر قال : « ان خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وان ولى عليكم عبد حبشى مجدع الأنف » .

وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى مجدع الأنف » وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » . وفى صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى أو بعرفات فى حجة الوداع يقول : « ان استعمل عليكم عبد أسود مجدع الأنف يعمل بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا » (١) .

---

(١) منهاج السنة جـ٢ ص ٨٧ .

وبهذا يتبين أن فقهاء المسلمين الذين يحكى تفكيرهم ابن تيمية كانوا حريصين على الوحدة الاسلامية من أن تتمزق بسبب عدم تولى من لا يستوفى شروط الوحدة كاملة •

الفتنة والوحدة :

٧٨ — لم ينظر جمهور الفقهاء الى الثورات التى تقوم ، ولو كان الحكام ظالمين، نظرة راضية الا ما أثر عن أبى حنيفة من رضاه على ثورة زيد بن على رضى الله عنه ، وابراهيم بن عبد الله بن حسن أخى محمد النفس الزكية فقد أثر عنه رضى الله عنه أنه لم يستنكر الثورة من هذين الامامين ، والمشهور فى تاريخه أنه أيدهما ، ولعل ذلك لمحبته لآل البيت ، وللمظالم التى نزلت بهم ، وقام بها الأمويون من قتل يزيد وجيشه للحسين بن على واستباحته مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام بها من بعدهم العباسيون ، وقد كانت دعواتهم ابتداء تقوم على الانتصاف من بنى أمية ، اذ ظلموا آل البيت . الا أن جمهور الفقهاء كانوا يقفون موقف الحياد فى الفتن ، ما لم ينهوا عن أمر مقرر فى الشريعة ، ولما خرج محمد النفس الزكية على أبى جعفر المنصور ، سئل الامام مالك : أنناصر هؤلاء أم جند أبى جعفر ؟ فقال رضى الله عنه : « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم ، وان لم يكن مثل عمر بن عبد العزيز فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » •

وفى الواقع أن الفتن تقطع أوصال الدولة ، وتورث الاحن ، ولا تقيم حقا ، ولا تخفض باطلا ، انه يقع فى الفوضى التى تنشئها الفتنة من المفاسد ، ما لا يقع من حاكم مفسد فى استبداد سنين •

ان الحكم المنتظم على أى صورة من صوره خير من الفوضى ، ولا عدل مع الفوضى كما قررنا ، ولا خير قط فى فوضى ، وقد يكون خير فى حكم الفاسقين •

وان الاستقراء فى التاريخ يثبت لنا أنه لم تكن فتنة أقامت عدلا ، أو حفظت ظلما ، بل انها تفتح الباب لدعاة البغى والعدوان والفساد •

وان السعى فى التغيير واجب ، ولكن يكون بالارشاد والموعظة الحسنة وكلمة الحق تقال للحكام الظالمين مهما يترتب عليها لشخص القائل من تعذيب أو سجن .

وان كلمة الحق فى هذه الحال جهاد ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق لسلطان جائر » . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » .

وان كلمات الحق ان تضافر عليها أهل الايمان كان الحاكم مضطرا الأن يغير من حاله ان كان ظالما ، فان أصوات الاستنكار تجعل الظالم يتردد فى ظلمه . أو يستخفى فى فسقه ، فان الحكام يريدون الحمد دائما ، فان يجدوا من يجود عليهم بالمحمدة ويضن بالملامة استمرءوا ما يصنعون ، وان وجدوا من لا يضن بالملامة ضعفوا عن الاسترسال فى غيهم ، وخافوا على حكمهم .

ويقول ابن تيمية حاكيا رأى أئمة السنة فى الفتن والثورات : المشهور عن مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وان كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الفساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ، ولعلنا لا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذى السلطان الا وكان فى خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذى أزالته ، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم ، وكل باغ كيفما كان ، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء ، بل قال تعالى : **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »** فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء ، وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ، ولكن من رضى وتابع

أثم ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ . قال عليه الصلاة والسلام : « لا . مطلقا » فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتالهم مع أنهم يأتون أمورا منكرة .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : « انكم سترون بعدى أثرة وأمورا تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم » .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا منكرا لمعصية الله فليكره ما يأتى من معصية ، ولا ينزعن يدا عن طاعة » [1] .

٧٩ — وهنا نجد علماء المسلمين ، وخصوصا علماء الجماعة مقتبسين من أوامر النبى صلى الله عليه وسلم ووصاياه كانوا يتجهون الى تحقيق الغاية الأولى وهى الوحدة الاسلامية ، فكانوا يقررون وجوب طاعة الحكام ولو تولوا بغير المنهاج الشرعى وبغير الشورى التى أمر بها القرآن الكريم فى قوله تعالى **« وأمرهم شورى بينهم »** ، بل كانوا يأمرون بطاعة الولاة ، ولو كانوا عصاة على ألا يطيعوا ما يأمرون به من المعاصى ، فكانوا يرون الطاعة فيما لا معصية فيه ويردون ما فيه معصية .

وكانوا الا الأقلين منهم يكرهون الثورة على الحكام ، لأنها تؤدى الى الفتنة ، والفتنة تؤدى الى التفرق ، والفرقة فى أى صورة من صورها لا تجوز فكل ما يؤدى اليها لا يجوز .

وان ذلك الذى قالوه هو صريح ما دعا اليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد روينا بعض أقوال الرسول الكريم الذى ما كان ينطق عن الهوى **« ان هو الا وحى يوحى »** .

وان الفقهاء اذ يقررون الطاعة المطلقة فى غير معصية يرون وجوب تغيير الحاكم الظالم ، ولكن من غير فتنة ، بل يرون أن ذلك يتم بالارشاد والكلمة

---

(١) « منهاج السنة » جـ٢ ، ص ٨٧ .

المجاهدة ، فعلى العلماء جهاد بألسنتهم كجهاد المحاربين بسيوفهم ، وقد قلنا فى غير هذا المقام : « ان ألسنة العلماء وهم يغضبون للحق ، تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب » .

فهى جهادهم ، وهى أمر الله تعالى ، اذ قال تعالى فيما أخذه سبحانه وتعالى على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . فكانوا يبينون ويدعون الى الحق ويقولون كلمته ، لا يخافون فى الله لومة لائم .

ونقصد بالعلماء الذين يقولون الحق لذات الحق لا يبغون اتجارا فى دين الله ولا علوا فى الأرض ولا فسادا .

الفرقة بعد الوحدة

٨٠ — هذا هو الباب الثالث من بحثنا ، وقد تكلمنا فى تكوين محمد صلى الله عليه وسلم للوحدة ، ثم تكلمنا على استمرارها فى عهد الراشدين وأشرنا الى بعض الفتن التى أصابت النفس العربية ، ولم تصب الوحدة الاسلامية التى كونها محمد صلى الله عليه وسلم على أسس التآلف والتقوى •

ثم كيف استمرت الوحدة فى عهد ملوك بنى أمية وملوك بنى العباس على تعرضها للوهن ، وكيف لم يؤثر فيها عصاة الملوك ما دامت قلوب أهل الايمان مطمئنة راضية بحكم الله ، نافرة عن حكم الطاغوت •

والآن نتكلم عما أصاب الأمة من وهن فى النفوس استكمن ، حتى تفرق المسلمون بعد الاجتماع ، وقد يقول قائل : ان الموضوع هو الوحدة الاسلامية فكيف نجعل الفرقة عنصرا من عناصر القول فيه ، والوحدة والفرقة نقيضان لا يجتمعان ، ونجيب عن ذلك بأن المسلمين متفرقون قد توزعتهم الأرض ، وحمل بعضهم السيف على بعض ، ونريد أن تعود الوحدة جذعا كما بدأت •

ولا يمكن أن نذكر مقومات الاعادة من غير أن نعرف أسباب التفرقة حتى نتلافاها فى وحدتنا التى نرجو أن يوفق الله تعالى المسلمين لاعادتها ، فان المسلمين لا يصلح آخرهم الا بما صلح به أولهم ، وحدة فى غير انقسام وائتلاف فى غير انفصام ، وجمع لا تفرق فيه • بل يكونون كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ويتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله » •

ولذلك وجب أن نذكر أسباب الانقسام ، وان نحصى هذه الأسباب فى ذلك البحث الموجز ، كما لا نستطيع أن نعرف متى ابتدأت تلك الأسباب •

ان الظواهر الاجتماعية نراها واضحة جلية ولكن ان أردنا أن نعرف متى

وجدت تعصى علينا الأمر ، ولا يكون البحث هينا لينا ، كمن يرى شجرة عالية متدلية الأغصان فانه يراها عالية شامخة تهتز وتتمايل ، ولكن لا يعرف امتداد جذورها ، وان أحصى فروعها •

ونحن اذا نظرنا الى أسـباب الفرقة الاسلامية التى هى ناتئة ظاهرة مشوهة فاننا نرجع الى بروز أول الفتن ، فانها وان كانت لم تؤثر فى الوحدة ، كأمر ظاهر فانها بلا شك ، كانت أساسا •

وفى الجملة ان تعرف الأسباب لأمر ظاهر من أصعب ما يكون ، فمبادىء الأمور حلها صعب ، حتى نرى آثارها بارزة للعيان ، اذ أن هذه الأسباب تتفاعل حتى تكون مزيجا يظهر أثره ، ثم لا يكون اختفاء بعد ظهور الأثر •

الأسباب المعنوية :

٨١ — ان الوحدة ائتلاف ، فكل ما ينافى ويوجد النفور انما هو سير فى طريق الفرقة ، والأسباب المعنوية كبيرة متضافرة ، تكاثفت حتى اعتكرت بهـا النفس الاسلامية • فاستعدت للافتراق بعد الاجتماع ، والأعمال التى قام بها الحكام فى الفرقة انما حرثت أرضا لهم الأمور المعنوية •

وقد ظن الكثيرون أن السبب الأكبر هو قيام العصبية العربية من سباتها وانبعاثها من مرقدها ، ولا شك أن ذلك جزء من الأسباب ، ولكنها جاءت فى هذه المرة ليست تنازعا بين مضرية وربيعية ، وان ظهر شىء من ذلك فى الفرق الاسلامية •

انما كانت العصبية العربية ، ومعها الشعوبية غير العربية ، فانبعث من وراء ذلك ، ومن وراء الفرق الاسلامية ، الملوك وشهواتهم ، واتخاذ كل ملك حيزا من الأرض يذود دونه حتى أكلوا جميعا ، وتفرق المسلمون وجاء التتار فما أبقوا ملكا على ملكه ، وأبادوا كل الملوك ولم يبقوا منهم ديارا ولا نافخ نار •

١ ــ العرب والموالى

٨٢ ــ نقصد بالموالى غير العرب الذين دخلوا فى الاسلام وسموا موالى لما ذكرنا من أن الذين يسلمون من غير العرب كانوا بعقد موالاة ، وهو يشبه عقد الاخاء مع عربى ، بحيث يكون فى ضمن أسرة هذا العربى وتعقل عنه تلك الأسرة العربية ، وعند الحنفية ترثه اذا مات عن غير وارث من الأقارب على خلاف بينهم وبين بعض من الفقهاء على ما ذكرنا عند الكلام على عقد الموالاة .

وليس المراد من الموالى العتقاء أو نحو ذلك ، انما فهم ذلك من لا يعرف التاريخ الاسلامى على وجهه ، ولا يعرف أحكام الفقه المأخوذ من الهدى النبوى فى هذا .

وقد قلنا فى موضعه ان الموالاة بين المسلم غير العربى والعربى ، كالاخاء بين المهاجرى ، والأنصارى .

ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة النعمان من موالى بنى تيم ، ولذلك كان يقال عنه أبو حنيفة التيمى ، ولقد روى أن بعض التيميين الذين ينتمى اليهم أبو حنيفة ، قال للامام الأعظم : أنت مولاى ، فقال له الامام المعتز بالله وعلمه : « وأنا والله أشرف لك منك لى » أى أن ذلك التيمى يتشرف بعقد الموالاة هذا أكثر مما يتشرف به أبو حنيفة رضى الله عنه .

وان الاسلام سوى بين الناس فى الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربى أو أعجمى الا بالتقوى ، كما صرح القرآن الكريم ، وكما قرر النبى الأمين ، وقد تلونا فيما مضى الآيات الواردة فى ذلك ، ورويئا الأحاديث الموضحة التى كانت توجه أهل الاسلام الأن يندمجوا فى الاسلام ، ولا يكون فارق الا بالتقوى .

وكان الناس كذلك فى عهد الراشدين ، وان كانت بقايا العصبية تبدو أحيانا فى تفاخر لا ينفع ولا يضر ، يروى فى هذا أن سلمان الفارسى كان يجلس مع قوم يذكرون شرف نسبهم العربى ، فقال بعض الحاضرين : ابن من أنت ؟ فقال

المؤمن التقى سلمان : « أنا ابن الاسلام » فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فبكى وقال : وأنا ابن الاسلام .

وبذلك كان الاندماج ، وكانت الوحدة ، أو السير فى طريقها حتى يبلغ الاسلام غايته .

٨٢ — ولكن ما ان جاءت الدولة الأموية ، وقد كانت عربية ، وكانت شديدة التعصب للعرب ، ولم تعط الموالى حقهم الكامل فى الاسلام ، وأرادت الاسلام عربيا ، ولم تفهم أنه دين الكافة ، لأن الله بعث محمدا بشيرا ونذيرا للكافة ، لا لقوم دون قوم ، ولا جيل دون جيل ، بل هو دين الخليقة الى يوم الدين .

ولشدة التعصب للعرب من الدولة الأموية روى أنه فى الجيش ما كان يقسم لغير العربى اذا اشترك فى الجهاد ، مع أن حكمه على غير العربى ، كالعربى على سواء ، بل كان يرضخ له اذا جاهد مع المجاهدين أى يعطى عطاء غير مقدور من غير أن يقتسم مع العرب .

وتلك فى حكم الاسلام قسمة ضيزى ، ما كانت عدلا لأن الجهاد على الجميع والغنائم للجميع لكل فيها سهم معلوم وحظ مقسوم ، وتلك جاهلية فى الاسلام وما كانت لتجوز فى ظل خليفة أو من قائم مقام الخليفة .

وان غير العرب لبعدهم عن السلطان فى العهد الأموى انصرفوا الى الفقه والعلوم بشكل عام ، ولما ابتدأت الترجمة فى آخر العصر الأموى ، وأخذ الفكر الفارسى يغزو الفكر العربى كان الموالى هم الذين يحملون عبء ذلك ويسيرون به .

ومع ذلك كان الأمويون ينفسون عليهم ذلك ويتبرمون به .

جاء فى كتاب مناقب أبى حنيفة للمكى ، من حديث جرى بين عطاء التابعى وهشام بن عبد الملك الذى كان يسمى نفسه أمير المؤمنين ، ولا يقول أمير العرب وحدهم وهذا الحديث هو :

قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال : يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين فقال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت : نافع مولى عبد الله بن عمر قال : فمن فقيه مكة ، قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : أمولى هو أم عربي ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان . قال : مولى هو أم عربي ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن كثير . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن وابن سيرين قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : لا بل موليان ، قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعي ، قال : مولى أم عربي ؟ قلت : عربي ، قال هشام : كادت تخرج نفسي ، ولا تقول واحد عربي » .

وكان التعصب ضد غير العرب من المسلمين يبـدو نفسيا لا من الحكام والأمراء فقط كما رأيت من هشام بن عبد الملك ، بل كان من الشعوب والولاة الذين دون الأمير ، فقد كانوا ينفسون كهشام على اخوانهم غير العرب مكانتهم العلمية ، وسيطرتهم على العـلوم الاسلامية ، اذ أنهم قد فقدوا السلطان السياسي ، فاستعاضوا عنه بالسلطان العلمي ، وهو أبعد أثرا ، وأقوى تأثيرا وقد امتدت العصبية العربية الى أول العصر العباسي ، فاستمرت حتى كان عصر المأمون .

روى صاحب العقد الفريد : « قال لي ابن أبي ليلى : قال لي عيسى بن موسى شديد العصبية : فمن كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن ، قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما ؟ قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالي ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟

فقلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح ، قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : موال ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى ، وابن أبى الزناد . قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى . فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه ، وابن منبه ، قال : ومن هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه وانتصب قائما ، قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربدا ، واسود اسودادا حتى خشيته . ثم قال : فمن فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة ، وحماد بن أبى سليمان ، ولكنى رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم النخعى والشعبى ، قال : فما هما ؟ فقلت عربيان . فقال : الله أكبر ، وسكن جأشه » [1] .

٨٤ — ولا شك أن تلك الصورة التى رويت عن حاكم المسلمين الأكبر ، وعن امراء المسلمين ، تصور ألما نفسيا لكثيرين من العرب ، لأنهم تخلفوا فى العلم ، وخصوصا علم الاسلام ، وبالأخص علم الفقه الذى هو ذاته تتبع لآثار النبى صلى الله عليه وسلم ، وانه اذا كان التخلف فى جانب العرب كان التقدم العلمى فى جانب غير العرب .

ولعل الأمر العظيم الذى كان يخشى على الاسلام منه ليس هو أن يكون العلم فى غير العرب لأنه لا يزال علم الاسلام فى المسلمين وان كانوا غير عرب وانما الذى كان يخشى منه على الاسلام ، هو أن العقول غير العربية معها دراسات أخرى وتقاليد موروثة ، وأكثر أولئك من غير العرب متأثرون بها ، وتسرى فى أقوالهم وكتبهم ، شاعرين بها أو غير شاعرين ، وبذلك يشيرون فى الاسلام أمورا ليست من جوهره بل تنافيه ، وليست من دعائمه ، بل ربما تهدمه ، ولذلك كانوا ، أو على الأقل المخلصون المدركون منهم ، يخافون على الحقائق الاسلامية ، أن تشوهها عجمة أولئك الأعاجم .

ولا شك أننا ان فرضنا حسن النية فى أولئك العلماء من غير العرب — ولا بد أن نفرض ذلك — فان عقولهم قد تكون مأخوذة بماضيهم وتسرى اليها بحكم

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ، جـ٢ ص ٢٦٥ طبع الأزهرية .

التقاليد والعادات الموروثة ، وبحكم الثقافة الثابتة ، وان الأفكار الراكزة لا تخلع خلعا •

وانه بلا ريب كان بجوار أولئك الذين تأثروا بحضاراتهم نوعان قد يكونان متباينين •

أولهما — أولئك الذين أخلصوا دينهم لله ، وقدموا فى الاسلام علما غزيرا وفكرا قويما كأبى حنيفة النعمان ، ومثل كثيرين من المحدثين ، وعلماء السلف كالحسن البصرى ، وابن سيرين ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وغيرهم كثير •

والفريق الثانى — أولئك الذين حنقوا على الاسلام ، لأنه أزال ملكهم وقوض دولتهم ، وجعلهم تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ولم ينظروا الى الاسلام الا من هذه النظرة غير الهادية بل الغاوية •

ولقد ذكر ابن حزم أن أسباب الفرقة حقد أهل فارس على الاسلام ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى خروج طوائف عن الاسلام : « والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع العرب وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون جميع الناس عبيدا لهم • فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا تعاظمت الأمور وتضاعفت لها المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات كثيرة ، ففى كل ذلك كان يظهر الله الحق فأظهر قوم منهم الاسلام ، واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الاسلام •• » •

من أجل ذلك كان يتخوف كثيرون من أن يكون قادة الفكر فى الفقه والعقيدة والخلافة من غير العرب وان كان الصادقون فى ايمانهم على سواء بلا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأعجمى على عربى الا بالتقوى •

وفى الحق أن غير العرب خدموا الاسلام فى جملة أحوالهم والذين دخلوا فى الاسلام ظاهرا وأخفوا الكفر باطنا ظهر أمرهم ، كالمقنع الخراسانى • وغيرهم ممن حاربوا المسلمين فى صدر الدولة العباسية •

ومهما يكن من أمر هؤلاء من غير العرب ، فانه بلا شك كان لهم دخل عظيم فى الفرق الاسلامية حاشا الخوارج ، وان الفرق الاسلامية ما عدا من ذكرنا كان حماتها ودعاتها من غير العرب ، ولا يعد من الفرق الاسلامية الجماعة الذين اعتصموا بكتاب الله وسـنة رسوله صلى الله عليـه وسلم ولم يخوضوا مع الخائضين •

الفرق الإسلامية

من أسباب الفرقة :

٨٥ — ان الفرق الاسلامية وانقسامها كانت من ذرائع الفرقة وفك الوحدة الاسلامية ، وهى وغيرها من الأسباب المعنوية تصيب الجسم الجماعى ، كما تصيب الأمراض جسم الحى تكمن فيه ، وما دام الجسم قويا ، فان حيويته تخفيها ، فاذا كان الضعف ، ووهن العظم وعرق اللحم فانه حينئذ تظهر الأمراض ، ويتضاعف الوهن ، ويمتد التخاذل ، وتنقطع الأوصال ، وكذلك كان على ما سنبين ان شاء الله تعالى :

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » ، وفى بعض الروايات عدم ذكر النصارى ، وفى بعضها زيادة « كلها فى النار الا واحدة » •

وقال المقبلى فى كتابه « العلم الشامخ » حديث افتراق الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا ، بحيث لا تبقى ريبة فى حاصل معناه •

وان ذلك الحديث الذى تزكى رواياته بعضها ببعض لا نرى أن كلمة سبعين للاحصاء ، وان كان التتبع والاستقراء قد يصل بها الى ذلك العدد ، ولكن نقول ان العدد الكثرة ، وقد تكون فوق السبعين ، فان عدد السبعين يذكر فى اللغة للتكثير • قال تعالى : ((**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**)) •

وان نشأة الفرق الاسلامية ابتدأت غير عربية ، واننا اذ نرجع الى الوراء قليلا نجدها كذلك ، والوقائع تؤيد ما نقول •

ان الدعوة لعلى كرم الله تعالى وجهه فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله

تبارك وتعالى عنه ابتدأت فى الأمصار باشاعة السوء عن ولاة سـيدنا عثمان رضى الله عنه ، ومن أظهر من تولوا كبر هذا عبد الله بن سبأ اليهودى فقد أخذ هو ومن معه يشيعون قالة السوء عن عثمان وشيعته ويذكرون بالخير عليا وآله ٠

ومن هذا المنبت غير العربى نبتت نابتة الشيعة ٠

وان من الشيعة من يرجع بتاريخ ابتداء التشيع الى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ أن فريقا من الصحابة كانوا يرون عليـا أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذكروا أن من هؤلاء الزبير بن العوام ، وعمار ابن ياسر ، ويعدد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة عددا كبيرا ٠

ويزعمون بذلك أن منبت التشيع عربى قرشى ، وليس فارسيا كما يذكر الكثيرون من المؤرخين ، وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فانه من المؤكد الواقع أن التشيع لم يظهر كفرقة قائمة بذاتها الا فى آخر عهد على كرم الله وجهه فى الجنة ، وكان الغلو معه ، وعلى كل حال هو لم يظهر على أشده الا بعد مقتله كرم الله وجهه فى الجنة ٠ واشتد وتزايد بعد مقتل الحسين رضى الله عنه وصلى الله تعالى على جده وسلم ، وبكته الأمة كلها ٠

وانا بعون الله نتعرض فى بحثنا هذا الى الفرقة السياسية ، فانها هى التى كانت تثير الفتن ابتداء ، ثم صارت من بعد ذلك جرحا فى جنب الدولة ، حتى تمزقت مزقا وتفرقت دولا ، أو جزيئات من دول ، وأظهر الفرق السياسية التى ظهرت :

الشيعة والخوارج :

٨٦ ــ نبتت نابتة الفرقتين فى وقت واحد وهو خلافة على كرم الله وجهه ، وفى حربه مع البغاة عقب واقعة صفين التى أثار بها معاوية الفتنة فى جيش على كرم الله وجهه فى الجنة ، وجزى الله الذين وضعوا أول ثلمة فى الاسلام ، وان هاتين الفرقتين وغيرهما من الفرق التى تجعل جزءا من عملها سياسيا تجعل الدين أساسا فيها تدور حول محوره ، فتبعد عن لب الدين أو تقترب ، ولكنها

فى حال القرب والبعـد تجعل الدين هو الأسـاس الذى تبنى عليـه قولها فى السياسة .

ولذلك كان يقترن بآرائها فى السياسة الدينية آراء فى الاعتقاد ؛ فكثرة الشيعة تنحو نحو المعتزلة فى آرائهم فى الاعتقاد . ومنهم من يدرسون الفروع دراسة علمية مبناها مذهبهم الذى يعتنقونه ، ولذلك وجدت آراء الشيعة نسبوا أصولها الى الامامين زيد بن على زين العابدين ، وأبى عبد الله جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين ، وقد أثر عن الخوارج الاباضية آراء فى الفروع تابعوا فيها امامهم عبد الله بن اباض .

الشيعة والدولة التى قامت باسمها :

٨٧ — الشيعة كما ذكرنا ، وكمـا يقرر علماء تاريخ الفرق أقدم الفرق الاسلامية . وقد أشرنا الى أنهم ظهروا بمذهبهم السياسى فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ونما وترعرع فى عهد على كرم الله وجهه فى الجنة ، اذ كان كلما اختلط رضى الله عنه بالناس وخاطبهم ازدادوا اعجابا به .

ولمـا جاء العصر الأموى وقعت المظالم على العلويين واشـتد نزول أذى الأمويين بهم فثارت دفائن المحبة لهم ورأى الناس فى على وأولاده شهداء هذا الظلم فاتسع نطاق التشيع وكثر أنصاره .

وقوام هذا المذهب المبادىء الآتية :

أولها — أن الامامة لا تفوض الى نظر الأمة ؛ لأنها ليست من المصـالح التى تفوض للناس ، ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يمكن اغفالها بل يجب تعيين الامام لهم من النبى صلى الله عليه وسلم ويكون معصوما من الكبائر [١] .

ثانيها — أن على بن أبى طالب كان هو الخليفة المختار من النبى صلى الله

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

عليه وسلم ، ويدعى الشيعة أنهم ليسوا وحدهم الذين قالوا ذلك بل ادعوا أنه كان يقول ذلك عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله ، وأبى بن كعب ، وحذيفة بن اليمان ، وبريدة ، وأبو أيوب الأنصارى ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير بن العوام من القائلين ذلك • ثم رجع ، ومن بنى أمية سعيد بن العاص •

المبدأ الثالث : تفضيل على على كل الصحابة :

والشيعة ليسوا على رأى واحد بعد اتفاقهم على المبادىء السابقة ، بل منهم الغالون فى تقدير على وبنيه • وروى عنهم أنهم يكفرون الشيخين أبا بكر وعمر • ومنهم المعتدلون المقتصدون ، وقد حكى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة نحلة المعتدلين الذين يعد نفسه منهم ، قال : « كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز فى هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقا مقتصدة » •

قالوا : هو (أى على) أفضل الخلق فى الآخرة ، وأعلاهم منزلة فى الدنيا وأكثرهم خصائص ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فانه عدو الله سبحانه وتعالى ، خالد فى النار مع الكفار والمنافقين الا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توليه وحبه ، فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين أوتوا الأمانة قبله ، فلو أنكر امامتهم ، وسخط فعلهم ، فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو الى نفسه لقلنا انهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، قال : « حربك حربى وسلمك سلمى » ، وأنه قال : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وقال له : « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق » ، ولكنا رأيناه رضى امامتهم وبايعهم • وصلى خلفهم ، وأنكحهم وأكل فيئهم • فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئنا منه ولما لعنه لعناه ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابنه ، وغيرهما حكمنا أيضا

بضلالهم ، والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، الا رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه ، وبينه ، ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم به عليه السلام [1] .

وان هذا الذى ذكره ابن أبى الحديد هو مذهب الامام زيد رضى الله عنه الذى ذكر عنه ، بيد أن الامام زيدا رضى الله تبارك وتعالى عنه صرح بأمرين لم يصرح بهما ابن أبى الحديد ، أولهما أنه تجوز امامة المفضول ، ولذلك جوز امامة أبى بكر وعمر وان كان على أفضل منهما فى نظر الشيعة جميعا ، وهذا فهم ضمنا من كلام ابن أبى الحديد ، وان لم يصرح به لأنه ذكر أن عليا كرم الله وجهه فى الجنة بايعهما بامامتهما .

وثانيهما — أن الزيدية يشترطون أن يطالب من يكون اماما بالدعوة لنفسه، فليست الامامة بوصاية من النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنها بالاختيار من أولاد على من فاطمة وذريتهم .

هذا وان الشيعة كان لهم أثر فى وحدة الأمة وكان منهم أمراء فى بعض البلاد الاسلامية ، فكان منهم ببلاد المغرب ، وكان منهم بمصر ، وكان منهم باليمن ، وقد امتد تاريخهم فى اليمن الى الامام أحمد بن يحيى الذى ينسب الى الامام الهادى ، وكان يأخذ بمذهب الشيعة الزيدية ، وهو من أئمتهم .

وكان منهم من كان له أثر فى أيام التتار مما قد نعرض له فى عصر الفرقة وآثارها ، ومن أجل هذا وجب ذكرهم ببعض من التفصيل الموجز المناسب .

ولسنا نتعرض لفرق الخوارج ، لأنه قضى على دعواتهم ، ولم يكن لهم من بعد ذلك الا فرقة فى جنوب الجزائر تنسب الى عبد الله بن اباض ، لأن لهم مذهبا فقهيا فهى باقية ببقائه .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، لابن ابى الحديد .

فرق الشــيعة :

٨٨ ــ تعددت فرق الشيعة على نحل مختلفة ، منهم الغلاة ، ومنهم أمة مقتصدة ، كما ذكرنا ، ومنهم من خرجوا بتشيعهم عن الاسلام ، لأنهم ألهوا عليا رضى الله عنه واعتقدوا بحلول الألوهية فيه وفى الأوصياء من بعده • ومنهم من قال : ان النبوة كانت لعلى ثم أخطأ جبريل ، ونزل على محمد ، لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب !! •

ولكن الشيعة فى العصر الحاضر ينكرون أن أولئك منهم ونحن نضرب صفحا عن ذكرهم ما داموا ينكرون أنهم منهم ، ولنقتصر على ذكر من لا يجدون محيصا من الاعتراف بهم •

وان الذين يعتبرونهم ليسوا أمة واحدة • بل منهم غلاة • وان لم يخرجوا عن نطاق الاسلام ، ومنهم مقتصدون يقربون من الجماعة الاسلامية •

وانا نذكر الذين لم يخلعوا الربقة ويعدون من أهل القبلة •

الكيسانية :

٨٩ ــ وهم أتباع المختار بن عبيد الثقفى ، وقد كان خارجيا ثم صار من شيعة على كرم الله وجهه وقد قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل الذى أرسله الحسين بن على رضى الله عنهما ليعلم حالها ، ويعلم ابن عمه بأمرها •

ولكن قبض عليه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية وضربه وحبسه ، الى أن استشهد الحسين وارتكب كبر هذا عبيد الله بن زياد ، ولذا قال الحسن البصرى باكيا : « ماذا دهى هذه الأمة قتل ابن دعيها ابن نبيها » والدعى هو زياد ابن أبيه ، وابن النبى الحسين •

وقد شفع للمختار زوج أخته عبد الله بن عمر ، فأطلق سراحه ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل على الأخذ بثأر الحسين اما انتقاما لنفسه لحبسه ، واما غضبة لله ، ولقد أثر عنه أنه قال وهو عائد الى الحجاز :

« سأطلب بدم الشـــهيد المظلوم المقتول سيد المرسلين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن على ، فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا » •

ثم لحق بابن الزبير وبايعه على أن يوليه أعماله اذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام الى أن مات يزيد ثم عاد الى الكوفة •

وعاد الى الكوفة على أنه مبعوث من محمد بن الحنفية الذى سماه المهدى ، وقال للناس : المهدى الوصى بعثنى اليكم أمينا ووزيرا ، وأمرنى بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، وقد ذكر محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب لأنه ولى دم الحسين اذ هو كان أقرب ال البيت الراشدين اليه من الرجال ، ولأن ابن الحنفية كان ذا منزلة بين الناس ، وكان كما قال الشهرستانى فى الملل والنحل : « كثير العلم غزير المعرفة رواد الفكر • مصيب النظر فى العواقب ، وقد أخبره أبوه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أخبار الملاحم » •

ولكن المختار لم يلتزم بعد ذلك الجادة والاعتدال فى دين الله تعالى وأخذ يتكهن ويسجع سجع الكهان ، ولذلك أعلن محمد بن الحنفية البراءة على الملأ من الأمة ، اذ عرف خبيئة نفسه •

ومما قال المختار : « أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهـامه والقفار والملائكة الأبرار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، ومهند بتار » •

وقد أخذ المختار يحارب أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع فيهم ، ولم يعلم أن أحدا اشترك فى الجيش الذى استشهد فيه الحسين الا قتله ، فحببه ذلك فى نفوس الناس ، فالتفوا حوله ، وقاتلوا معه •

ولكن أرسل اليه عبد الله بن الزبير أخاه مصعب لمـا تفاقم أمره ، وقاتله وقتله بعد أن انتصر عليـه ، وخلاصة مذهب المختـار هذا الذى هو مذهب الكيسانية •

وخلاصة المبادىء التى يؤمن بها الكيسانية ما يأتى :

أولها — أنهم يؤمنون برجعة الامام الذى اختير من النبى صلى الله عليه وسلم • ثم ان الاختيار على من بعده ، فكان الأول عليا ، والثانى الحسن والثالث الحسين ، والرابع محمد بن الحنفية •

ويقول فى ذلك شعرا :

ألا ان الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وثانيها — البداء ، وهو أن الله سبحانه يغير ارادته تبعا لتغير علمه ، وقد أخذ بهذا غيره من الشيعة لأنه كان يدعى الاخبار عن المغيب فى المستقبل فيخبر فتجىء الوقائع بغير ما أخبر ، فيقول : قد بدا لربكم •

والمبدأ الثالث :

أنهم قالوا بتناسخ الأرواح كالهنود ، وهو خروج الروح من جسد ، وحلولها فى جسد آخر ••

ونكتفى من الكيسانية بهذا القدر ، لأنهم طائفة انقرضت ، ولم يكن لها شأن من بعد فى تاريخ الوحدة الاسلامية سلبا أو ايجابا ، وقد غمرهم التاريخ ، فلم يعرف لهم فى ثناياه أتباع •

الزيدية :

٩٠ — وهم الذين ينتسبون الى الامام زيد بن على زين العابدين الذى خرج على هشام بن عبد الملك ، وخذله أهل العراق ، فقتل فى سنة ١٠٢ هـ •

وقد كان خروجه على أثر مشادة عنيفة بينه وبين هشام بن عبد الملك ٠

وان مذهب الامام زيد رضى الله تبارك وتعالى عنـه أقرب المذاهب الى الجماعة فى الامامة ، وهو مختلط فى الفروع بمذهب الجماعة ، وقوام المذهب الزيدى كما روى عن الامام زيد يتلخص فى المبادىء الآتية :

أولها : أن الامام معروف من النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه ، لا باسمه وأوصاف الامام التى قالوها : أنه لا بد أن يخرج للنـاس ، ويبايعوه ، وأن يكون علويا فاطميا ، ورعا ، عادلا ، سخيا ، يخرج داعيا الناس لنفسه ٠ وقد خالفه فى شرط الخروج داعيا بعض الشيعة ، وناقشه فى ذلك أخوه محمد الباقر « على قضية مذهبك يكون والدك ليس اماما فانه لم يخرج » ٠

ثانيها : أن هذه عنـدهم هى للامام الأمثل الذى لا يتصـور فى الامامة أعلى منه ٠

ثالثها : أنه تجوز امامة المفضول ، اذا اختار أهل الحل والعقد ذلك ، فاذا اختـاروا اماما لم يستوف بعض هـذه الشروط وبايعـوه صحت امامتـه ، ووجبت طاعتـه ، ولزمت العـامة بيعته ، ولذا لم يكفر ولم يفسق الامامين أبا بكر وعمر ٠

وكان زيد يرى أن على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، الا أن الخلافة فرضـت لأبى بكر ، لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينيـة راعوها من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ، فان عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على عليـه السلام من دماء المشركين لم يجف ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا لمن عرف باللين والتودد والتقدم بالسن ، والسبق فى الاسلام ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ٠

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى عند الكلام فى فرقة الزيدية ٠

ولكن الذى ظل راكزا فى نفس شـيعة العراق هو ألا يقر شيعى بامامة الشيخين •

قال البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق :

« لمـا استحر القتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمر الثقفى ، قالوا : اننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب ، قال زيد : « انى لا أقول فيهما الا خيرا ، وانما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ففارقوه عند ذلك •

وكان الامام زيد رضى الله تبارك وتعالى عنه يرى جواز اقامة امامين اذا تباعدت الأقاليم ، ونحن نرى أن ذلك يتنافى مع الوحدة الاسلامية التى ندعو اليها ، اذ أنه يجب أن يكون الراعى للمؤمنين واحدا ، ولا تتحقق الوحدة ، اذا توزعت الامامة •

ونحن نرى أنه لا يجيز النزاع بينها حرصا على الوحدة ، لأنه أول امام بارز بين أئمة الشيعة بل بين علماء المسلمين ، دعا الى الوحدة الاسلامية ، أو بعبارة أدق دعا الى ألا تفترق الأمة الاسلامية • وكان يقول رضى الله تعالى عنه وعن آبائه الكرام « لو أنى علقت فى الثريا ، وقطعت جزءا جزءا على أن تجتمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لرضيت » فكيف يقال انه يجيز الفرقة ، وقد كانت نبتت نابتتها ولم تكن قد تجاوزت كل معقول اسلامى والأحاديث النبوية تمنع ذلك منعا تاما •

٩١ ـــ ولقد كان أتبـاع المذهب الزيدى قليلين ، ولكنهم كانوا يعملون ويظهرون بناء على مذهبه من وجوب أن يظهر الامام معلنا نفسه داعيا •

وقد ظهر من بعد مقتل زيد ابنه يحيى ، خرج على الأمويين ، ولكنه قتل فى آخر عهد الأمويين كما قتل أبوه من قبل •

والمذهب يجعل أولى الناس بالخلافة أبناء على من فاطمة ، سواء أكانوا من ذرية الحسين أم كانوا من ذرية الحسن ، ولذا خرج ولدا عبد الله بن حسن ، على المنصور وخرج عليه بالمدينة محمد النفس الزكية ، وقيل ان دعوته كانت مبنية على أحقيته أولا ، وعلى ظلم أبى جعفر المنصور ثانيا وأن بيعته أخذت باكراه ثالثا ٠

ولقد كان الامام مالك بالمدينة يروى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدرس مسائل الفقه ، فروى حديث : « ليس لمستكره يمين » ، فكان يعتمد على ذلك محمد النفس الزكية ، وقد نهى مالك عن روايته ٠ فلم ينته ، وكيف يمتنع امام دارالهجرة عن رواية حديث الرسول ٠

ولذلك أنزل أبو جعفر المنصور بالامام مالك أشد الأذى بعد مقتل محمد النفس الزكية ٠ أما أخوه ابراهيم فقد خرج بالكوفة ، وكان الامام أبو حنيفة يؤيده فى مجالسه العلمية ، وقد أخذها عليه أيضا أبو جعفر المنصور ، وكان يتربص به حتى أنزل به أذى ، اذ سجنه سجنا اتصل بموته ، وكان يضربه أعوان أبى جعفر فى محبسه ، ولم يرحموا شيخوخته ٠

وهكذا نجد أن ذلك المذهب كان له أثر فى استنكار ظلم الخلفاء ، وكانت الدعوة العملية التى اشتهر بها تجعله واضح الحركات ، ولم يكن كل عمل أتباعه فى بث النحل الهادمة فى نفس الشعب ، كما نسب الى غيره من دعاة التشيع الآخرين وان كانت قد ظهرت من بعد ذلك ، فى دول منفصلة ، لا فى انتفاضات تذهب بعد الهزيمة ، وان كان للمذهب الزيدى دولة من بعد ، كما سنشير ٠

الجارودية :

٩٢ — وان المذهب ، وان كانت له بعض تلك المظاهر العملية ، فانه أخذ بعد مقتل عبد الله بن حسن يتغير عند بعض أتباعه بالأخذ من الشيعة الامامية كما سنبين ٠

فقد ذكرت فيهم فرقة الجارودية وهم أصحاب الجارود بن المنذر العبدى ، وقد خرجوا عن آراء الامام زيد ، وان قالوا بامامته ، فقد قالوا ان الرسول نص على الامام بالوصف ، وقالوا ان امامة غيره لا تجوز ، لأن الوصف كان واضحا لا ينطبق على غير على ، وحكموا بأن الصحابة ضلوا اذ اختاروا غيره ، وبذلك رفضوا امامة الشيخين ، وكانوا بذلك من الرافضة ، والامام زيد لم يقرر أن هناك مهديا من العلويين وسيظهر فى آخر الزمان ، فزاد هؤلاء ذلك ، ويقولون برجعة الامام كالامامية •

والجارودية قد اختلفوا فيما بينهم اختلافا كثيرا • ويقول النوبختى فيهم : سموا كلهم فى الجملة زيدية الا أنهم مختلفون فيما بينهم فى القران والسنن والشرائع والفرائض والأحكام[1] •

السليمانية :

٩٣ — وهؤلاء أشد استمساكا بآراء الامام زيد من الجارودية ، وان خالفوه فى بعض الأمور ، وهم أصحاب سليمان بن جرير ؟ وكان يقول : « ان الامامة شورى فيما بين الخلق » (ويصح أن تعقد الخلافة بعقد رجلين من الأمة على أن يكونا من خيار المسلمين) •

وامامة المفضول تصح عند هؤلاء كالامام زيد مع وجود الأفضل ، وان الامامين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان اختيارهما اجتهادا منهما وممن بايعوهما ، وهو خطأ لا يصل الى درجة الفسق ، وأنهم لذلك ينزعون أنفسهم عن الطعن فيهما ولكنهم يتناولون بالطعن ذا النورين عثمان بن عفان ، ويكفرونه، ويذهب بهم الغلو المذهبى أن يكفروا أم المؤمنين عائشة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا) •

وقد استنكروا على الامامية والكيسانية القول بالبداء كما استنكره الامام زيد •

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى ص ٥٠ طبع استانبول •

واستنكروا مبدأ التقية بغير ضرورة ملجئة ، لأنهم وجدوا الذين يدعون الأخذ بالتقية ، يقولون ما يكون ممالأة للظالمين ، وليس بحق ولا ضرورة تدعو الى القول ، فاذا أقيم الدليل على بطلانه ادعوا أنهم قالوا ما قالوا تقيـة •

وأن القول ممالأة انما كان من المدعين للتشيع لا من آل البيت أنفسهم ، رضوان الله تبارك وتعالى عنهم •

البترية :

٩٤ ـــ وهم أتباع كثير النووى الأبتر ، وقـد وافقه على رأيه الحسن ابن صالح بن حى ، ولذا يقال لهذه الفرقة البترية والصالحية •

وهم فى آرائهم كالسليمانية ، ولكنهم لم يكفروا سيدنا عثمان رضى الله عنه ، بل توقفوا فى شأنه ، وقالوا ان ماضيه يجعله من أهل الجنة ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وكان له فضل فى نصرة الاسلام بما له من مواقف سامية •

ولكنه فى خلافته ولى الظالمين من بنى أمية ، وترك شورى عمر ، فتحيروا بين ماضيه قبل الخلافة وحاله فى نظرهم بعدها ، فتوقفوا ووكلوا أمره الى أحكم الحاكمين •

وجوزوا امامة المفضول وترك الأفضل ولكنهم اشترطوا رضا الأفضل وقد يكون اختلاف بين نظرهم ، وما روى عن الامام ، فالامام زيد نظر الى المصلحة ، لا الى رضا الامام على المجرد ، وان كان كلامه قد يفيد أنه أقر امامة الشيخين لرضا من على كرم الله وجهه • ولقد اشترطوا فى ولاية الامام صباحة وجهه ، وهو شرط أولوية ، فاذا دعا اثنان لأنفسهما بالخلافة وقـد تساويا فى كل شىء ، ولكن أحدهما أصبح من الآخر ، كان أولى •

وقد جوزوا أن يكون ثمة امامان من أولاد فاطمة ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ، ويقولون قولا غريبا ، وهو أنه يجوز أن يفتى أو يحكم أحدهما

بغير ما يحكم الآخر ، وكل منهما يصيب فى اجتهاده ، وان أفتى باستحلال دم الآخر[1] .

وهــذا رأى غريب ، وهو يؤدى الى أن يستحل فريق من المسلمين دم الآخرين ، وكيف يستباح دم مسلم بالرأى ، ثم ان هذا الرأى يؤدى الى الفرقة التى لا يقبلها الامام زيد الذى كان يود جمع المسلمين ، ولو كان بتعليقه فى الثريا وتقطيعه جزءا جزءا .

وان الذى يتصور مع الوحدة الاسلامية بالنسبة لوجود امامين هو أن يكون كل واحد منهما فى اقليم من الأرض ويتعارفان ولا يتنافران ، كما حدث فى تاريخ الزيدية فى الحكم على ما سنبين ، ان شاء الله تعالى .

ولقد وصف الشهرستانى رأى هــذه الطائفــة من الزيديين فى قولهم فى الامامين بأنه « خبط » .

قيام دول على أساس المذهب الزيدى :

٩٥ — فى القرن الثالث الهجرى أخذت يد العباسيين تهن عن أن تدير دولة الاسلام التى صارت تمتد من بحر الظلمات غربا الى الصين شرقا ، فكانت الاجزاء المتطرفة تتناثر من قبضتها جزءا جزءا .

وفى ذلك العصر (القرن الثالث الهجرى) كانت الدولة معرضة لمذهبين أحدهما يبنى والآخر غير ذلك ، أما المذهب الذى يبنى فهو المذهب الزيدى ، وأما المذهب الآخر فهو مذهب بعض الغلاة من القرامطة .

والمذهب ظهر منه امامان جليلان امتازا بالعلم وقوة الدين — أولهما — أبو محمــد الحسن بن على بن الحسن ، وينتهى الى الحسن رضى الله عنهم جميعا ، ويقلب فى التاريخ الزيدى بالأطروش ، لطرش أصيب به ، ويسمى الناصر الكبير تمييزا له عمن جاء بعده باسم الناصر .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ٢ ص ٢١٨ هامش الفصل .

ولد سنة ٢٠٣ من بعد الهجرة وتوفى سنة ٣٠٤هـ ، وقد كان الذين يظهرون ويعلنون أنفسهم من الزيدية ، يقاتلون ويقتلون أما هو فقد اتخذ العلم سبيله ، ولم يظهر بنحلة سياسية ، وان كان علمه فى العقائد والفروع على مقتضى المذهب الزيدى . وقد تتبعه العباسيون ليقتلوه ، وخصوصا المتوكل الذى كان ناصبيا ، ناصب آل على العداء ، ففر الى أرض الجبل والديلم ، وكان أهل هذه البلاد غير مسلمين فاتخذها مستقرا لدعايته الى الاسلام ، وتعليمهم فروعه على أساس المذهب الزيدى ، فكان بذلك ينشر الاسلام ، وينشر العلم الزيدى معه ، واستقر له الحكم بالخلافة الاسلامية ، وبهذا يعد الناصر محيى الامامة الزيدية ، أول امام استقامت له الامامة فى بقعة من الأرض ، وان كانت نائية ، ولقد قال فى ذلك الشهرستانى « لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر فى خراسان ناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل فاختفى ، واعتزل الى بلاد الديلم والجبل وهم لم يتحلوا بدين الاسلام فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن على ، فدانوا بذلك ونشأوا عليه ، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرة ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلى أمرهم[1] » .

اذن هؤلاء الزيدية أضافوا الى الاسلام بلادا ، ولكنها مستقلة عن الدولة العباسية التى كانت تتبع الزيدية وتقتلهم ، فأنشأوا لأنفسهم امامة ، وتولوا اماما بعد امام .

ولا نستطيع أن نقول ان انشاء هذا الاقليم وقيام دولة شيعية زيدية فيه اقتطاع جزء من الدولة الكبرى للاسلام ، ولكن بلا ريب يتنافى مع الوحدة الاسلامية الجامعة التى لا تختلف فيها النزاعات الدينية ، وان كان ذلك لا يصحبه تناحر أو تنازع مع الدولة العباسية التى كانت تضم الجماعة الكبرى الاسلامية ، قبل أن تتفرق عنها الأقاليم .

الهـــادى :

٩٦ — فى الوقت الذى كان ناصر الأطروش ينشىء ملكا سماه امامة زيدية فى الديلم ولم يكن تابعا لبنى العباس كان الهادى ينشىء دولة فى اليمن ، والهادى

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ، جا ، ص٢١١ ، على هامش الفصل .

ينتهى فى نسبه الى الحسن بن على ، وقد ولد فى سنة ٢٤٥ هـ وتوفى سنة ٢٩٨ هـ أى أنه عاش نحو ثلاث وخمسين سنة ، أنشأ دولة أو امامة كانت باقية آثارها الى سنة ١٣٧٠هـ • وقد ولد بالمدينة ، وقام هاديا ومرشدا يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، وكان فقيها باحثا يرجع اليه العلماء من كل الطوائف الاسلامية يسألونه ، فيجيبهم ، ويستفتونه فيفتيهم ، وكان يرد برسائل قيمة أثرت عنه[1] •

وقد ذهب الى اليمن سنة ٢٨٠هـ ، فوجد فيها أرضا خصبة ، فبذر فيها بذرا طيبا نقيا من العلم السلفى الصالح ، وكان يبث المذهب الزيدى النقى فى لبسابه •

وقد عاد الى الحجاز بعد أن تعلقت به القلوب ، وصار له أتباع من أهل اليمن •

واليمن فى هذه الأيام لم تكن محل عناية ملوك بنى العباس ، وقد استغل ذلك قوم ، واشتهروا فى التاريخ الاسلامى باسم القرامطة ، فكانوا يساورون اليمن ، ويريدون أن يقتلعوه من الحكومة العباسية ، والأهالى يتبرمون بالقرامطة وما يفعلونه •

لذلك اتجهوا الى الهادى وأرادوه اماما لهم ، فذهبوا اليه فى بلاد الحجاز ، وأخرجوه من محرابه فى المدينة الطاهرة ــ وفاء اليهم فبايعوه على الامامة ، فعاهدهم عهدا سلفيا وقال فيه :

« أيها الناس انى أشترط لكم أربعا على نفسى : الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والأثرة لكم على نفسى فيما جعله بينى وبينكم ، أوثركم فلا أفضل عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلى ، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوى وعدوكم ، وأشترط لنفسى عليكم اثنتين : النصيحة لله فى السر والعلانية ، والطاعة لأمرى على كل حالاتكم ما أطعت الله فيكم ، فان خالفت فلا طاعة لى

---

(١) راجع بعض هذه الرسائل فى كتاب الامام زيد ، لمحمد أبى زهرة ، الناشر دار الفكر العربى •

عليم ، وان ملت وعدلت عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فلا حجة عليكم ، فهذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

بهذه البيعة تقدم ، وأخذ على نفسه ما أخذ من العهود ، ووفى ، وحاول أن يجمع بين المسلمين ، وكان يقول « لوددت أن الله أصلح هذه الأمة . وانى جعت يوما وشبعت يوما » .

وبهذا يتبين أنه ما أراد ملكا ، انما أراد اصلاح الأمة ، وارادة اصلاحها جمع كلمتها ، وتحقيق وحدتها ، كما تركها النبى صلى الله عليه وسلم والراشدون من بعده .

وان الاصـــلاح لا يكون الا بالعدل ، وتوزيعه بالقسطاس بين الناس ، ليطمئنوا ، واذا اطمأنوا ائتلفوا ، واذا ائتلفوا كانت الوحدة قريبة ، ولا تكون بعيدة غير دانية .

وعلى رأس العدالة ـ العدالة الاجتماعية ، فنظم بيت المال وجمع الزكوات، وبعد أن أقام العدل عمل على وحدة اليمن ، وما يجاورها من البلدان ، وضم نجران الى اليمن .

وأقام الحدود كلها ، ولم يعف منها كبيرا لكبره ، بل نفذها بغير هوادة ، وبعد أن جمع القلوب ، وأقام العدل ، ونفذ الشرع اتجه الى الجهاد فجاهد القرامطة ، وقد أخذوا يعيثون فى الأرض فسادا .

ولقد وقع الاســـلام بين الغـــلاة فى الشرق والغرب ، ففى الغرب كان القرامطة ، يساورون حدود اليمن ويريدون أن يقتصوها من حاكم بغداد الذى كان لا يزال يسمى نفسه خليفـــة ، وان وهت يده عن أن تقبض على ناصـــية فى أرضه .

وفى المغرب كان الباطنية الذين أنشأوا الدولة الفاطمية ، واستولوا على

مصر ، وشرق ملكهم وغرب ، تقدم الهادى للقرامطة ، وحاربهم خمس سنين دأبا •

وقد جرح سنة ٢٩٨ ه ، ومات من بعد ذلك راضيا مرضيا •

دولتان منفصلتان عن حكم بغداد :

٩٧ — ونلاحظ هنا أن الزيدية أقاموا دولتين : احداهما دولة الناصر الأطروش ، وأقامها فى الديلم والجبل وتعاقب فيها من بعده خلفاؤه • ولا نقول أنه انتزعها من ملك العباسيين ببغداد ، ولكن يقول انهم أقاموها فى مكان لا سلطان لأحد من المسلمين عليه ، ولم يكن بينهم وبين الحكم العباسى مغالبة •

والثانية فى اليمن : وقد أقامها الهادى ، واستمرت قائمة الى حوالى سنة ١٣٨٠ه ، وآخرهم أحمد بن يحيى ، وقد تخلفت فى آخر عهدهم •

ولا يقال انهم انتزعوها من أيدى العباسيين ، لأن القرامطة قد غلبوا على ما حولها وكانوا يقصدون أن يغلبوا عليها ، فجاء الهادى وخلفاؤه فأزالوهم ، حتى كانت جهودهم من بعد فى المغرب • ونلاحظ هنا أيضا أن الأطروش ، والهادى ، كلاهما كان يلقب بلقب الامامة ، ولم يكن له تبعية للدولة العباسية فى العراق •

وكلا امامى الزيدية كان يعترف لصاحبه ، وان ذلك فيه تطبيق للمذهب الزيدى الذى يجيز اقامة امامين فى قطرين متباعدين •

وان الأسباب قد توافرت لاقامة هاتين الدولتين ، فالناصر أدخل الاسلام فى اقليم لم تمتد اليه يد الدولة العباسية التى قصرت فى ذلك الابان •

والهادى نشر راية العدل والاصلاح فى وسط التخاذل والفساد ، وأزال القرامطة من حكمه •

فلم يمكنهم من أن يقطعوا البلاد لغالية الشيعة كما كان حكم الباطنية فى الغرب الذى انحدر الى مصر ، ثم اجتازها الى الشام وبذلك تقطعت الدولة الاسلامية وذهبت الوحدة .

الامامية من الشيعة :

٩٨ ـ هذه الطائفة التى تحمل اسم الشيعة الامامية يدخل فى عمومها أكثر المذاهب الشيعية التى سارت فى التاريخ ، ولا يزال كثيرون منها الى الآن فى العالم الاسلامى فى ايران والعراق ، وما وراءها من باكستان وأندونيسيا والهند .

ويدخل فى حكمها طوائف لم تنحرف فى اعتقادها الى درجة أن تخالف نصا من نصوص القرآن فى أى أمر علم من الدين بالضرورة .

ويشمل طوائف أخرى فيها انحراف شديد .

والجامع لهؤلاء المقتصد منهم فى الاعتقاد والقول ، وغير المقتصد هو اسم الامامية .

وأنهم يقولون أن الائمة عينوا من النبى صلى الله عليه وسلم بالشخص ، لا بالوصف ، فعين النبى صلى الله عليه وسلم عليا وهو يعين من بعده بوصية من النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بعده .. الخ .

وقد أجمع الامامية على امامة على كرم الله تعالى وجهه فى الجنة ، وأنها قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبى صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريف بالوصف ، بل بالعين .

قالوا : « وما كان فى الدين أمر أهم من تعيين الامام ، حتى يفارق عليه السلام الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فانه اذا كان قد بعث لرفع الخلاف ، وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويترك الناس هملا ، يرى كل واحد منهم طريقا ، ولا يوافقه عليه غيره ... بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع

اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه[1] وعلى هو الذى عين بنص نبوى » .

ويستدلون على ذلك بأدلة من السنة ، يعتقدون صدق سندها ، وباستنباطات من أعمال النبى صلى الله عليه وسلم ، اختص بها عليا كرم الله تعالى وجهه فى الآخرة .

وليس هذا المقام مقام توضيح المذهب ، فليرجع اليه فى مواضعه [2] .

وكما اتفق الامامية فيما بينهم على أن الامام عليا كرم الله وجهه وصى النبى صلى الله عليه وسلم بالنص قرروا أن الأوصياء من بعد على هم أولاده من فاطمة : الحسن ، ثم الحسين رضى الله عنهما ، ثم اختلفوا من بعد ذلك على فرق مختلفة فى الأئمة بعد هؤلاء ، بل قيل انهم اختلفوا من بعد ذلك على أكثر من سبعين فرقة .

وأظهرها فرقتان ، وهما الباقيتان الاثنا عشرية ، والاسماعيلية .

الاثنـــا عشرية :

٩٩ — ترى الاثنا عشرية أن الأصياء اثنا عشر وصيا ، وأن الوصى أو الامام بعد الحسين ابنه على زين العابدين ، ومن بعد على زين العابدين محمد الباقر ابنه ، ومن بعد محمد الباقر جعفر بن محمد الباقر .

ومن بعد جعفر ابنه موسى الكاظم ، ثم على الرضا ، ثم محمد الجواد ، ثم على الهادى ، ثم الحسن العسكرى ، ثم محمد ابنه وهو الامام الثانى عشر . ويعتقدون أنه دخل سردابا فى دار أبيه بسر من رأى ، ولم يعد الى الآن ، وقد اختلفوا فى سنه عند اختفائه ، فقيل كانت سنه أربع سنين ، وقيل كانت ثمانى

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

(٢) راجع فى هذا الكتاب « الفرق بين الفرق » وكتاب تاريخ المذاهب الاسلامية « الاعتقادية والسياسية » لمحمد أبى زهرة ، الناشر : دار الفكر العربى .

سنين ، وقال بعضهم أو أكثرهم : كان فى هذه السن عالما ما يجب أن يعلمه الامام، وأن ذلك يتفق مع أصــل المذهب فى علم الأوصياء لأنهم يقولون : ان علمهم الهامى لا كسبى .

وقال آخرون : كان الحكم لأهل مذهبه .

والاثنا عشرية يوجدون الآن فى العراق وعددهم كثير يقارب النصف وهم يسيرون على مقتضى المذهب الاثنى عشرى فى عقائدهم ، ونظمهم فى أحكام الأسرة من الزواج وأحكام الأولاد والمواريث ووصايا الأوقاف والزكوات والعبادات كلهـا .

وكذلك أكثر أهل ايران على المذهب الاثنى عشرى .

ومنهم من يقيمون فى لبنان وسوريا وكثير من البـلاد الاسلامية ، وهم على ود مع اخوانهم من أهل الجماعة ولا ينافرونهم .

وان الامامية الاثنى عشرية كغيرهم من الامامية يفرضون فى الامام سلطانا مقدسا يأخذه بايصاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكما أن ولايته للأمة كانت بوصاية تنتهى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فتصرفاته كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية .

ونكتفى من بيان المذهب بذلك وليرجع الى بقية البحث فى مصادره .

الاسماعيلية :

١٠٠ ــ والاسماعيلية طائفة من الامامية كما ذكرنا ، وهى منبثة فى أقاليم متفرقة من البلاد الاسلامية ، وبعضها فى جنوب افريقيا ووسطها ، وبعضها فى بلاد الشام ، وكثير منهـا فى الهند ، وباكستان ، وكان لها دولة الفاطميين التى كانت من المغرب الى مصر ، وحكمت معها الشام .

والقرامطة الذين سيطروا وقتا ما على عدة أقاليم اسلامية كانوا منهم وان لم تكن لهم دولة قائمة بذاتها ، وهذا المذهب ينتسب الى اسماعيل بن جعفر

الصادق • وعند اسماعيل يفترقون عن الاثنى عشرية ، اذ يعدون الوصى بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم ، ثم تكون الوصاية من بعده فى أولاده أما الاسماعيلية فيعدون اسماعيل هو الوصى بعد أبيه جعفر بن محمد •

ويلاحظ أن اسماعيل مات قبل أبيه جعفر ، ولكنهم قالوا أن جعفرا نص عليه ، فكان اعمال النص بأن تبقى الامامة فى عقبه ، فان النص الذى يقوله الامام اعماله أولى من اهماله اذ أن أقوال الامام عندهم كنصوص الشارع تماما فلا عجب فى قولهم هذا •

وقد انتقلت الامامة عن طريق اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ، وهذا أول الأئمة المكتومين أو المستورين اذ هم يقولون ان الامام يصح أن يكون مستورا ، ولا يمنع ذلك من امامته وتجب طاعته ، ومن بعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه الحبيب وبعده ابنه عبد الله المهدى الذى ظهر فى شمال أفريقيا وملك المغرب ثم كان من عقبه من أنشأ الدولة الفاطمية فى مصر •

وقد نشأ مذهب الاسماعيلية بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية ، واضطهد فيه كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية أو بالأحرى الرجال الذين كانوا يظهرون دعاة له •

وخرج المعتنقون له تحت تأثير الاضطهاد الى بلاد فارس وخراسان ، وما وراء ذلك كالهند وتركستان وأن هؤلاء الاسماعيلية قد اتصلوا بأهل المذاهب القديمة ، فاتصلوا بالكلدان والبراهمة والفلاسفة الاشراقيين ومنهم من أوغل فى دراسة هذه المناهج ، ومنهم من أخذ منها وكان بمقدار ايغاله وأخذه يكون بعده عن الاسلام أو قربه منه ، فبعضهم أخذ بقدر لم يفارق به الاسلام وبعضهم أخذ بمقادير جرته الى الخروج عن الاسلام •

وانهم قد أحاطوا أنفسهم بالسرية فى تفكيرهم • ومبادلتهم الآراء ، وكانت تظهر أحيانا • كما كان من القرامطة وغيرهم ولكنهم يبيتون ما يبيتون فما كانوا يستأنسون بالناس •

وانه بلغ لهم من الكتمان حد أن كانوا يكتبون الرسائل ، ولا يعلنون أسماء كاتبيها ، كما ترى فى رسائل اخوان الصفا التى اشتملت على علم غزير وفلسفة عميقة ، فقد ذكر المؤرخون أنهم هم الذين كتبوها ، ولم يعرف العلماء الذين كتبوها ، وهى تشرفهم لو ظهروا ، ولعلهم معروفون عندهم[1] .

وقد سموا الباطنية أو الباطنيين ، وذلك لاتجاههم الى الاستخفاء عن الناس ، وقد ابتدأ الاستخفاء بسبب الاضطهاد أو خشية الاضطهاد . ولكنهم من بعد ذلك استمرءوه وألفوه ، واتخذوه سبيلا للتدبير المحكم ومنهم طائفة سموا فى التاريخ باسم الحشاشين ، وقد ظهرت أعمالهم فى ابان الحروب الصليبية وابان حروب التتار ، وكان بعضها سوءا على الاسلام والمسلمين وقد لاقى منهم صلاح الدين الأيوبى العنت الكبير .

ومن أسباب تسميتهم بالباطنية أنهم قالوا بالامام المستور ، وقد استمر امامهم مستورا . الى أن ظهر متغلبا فى المغرب ، ثم اجتاز شمال أفريقيا الى مصر .

ومن الأسباب أيضا أنهم يقولون أن للقرآن ظاهرا ، وباطنا وان للباطن باطنا حتى نصل الى سبعة بواطن وما عند الامام من أسرار علم باطن .

وقد شاركهم فى هـذا الاثنا عشرية ، وهو الجزء الخاص بعلم الباطن بجوار علم الظاهر .

وقد بنيت الآراء التى يعتنقونها على ثلاثة مبادىء ، شاركهم فى بعضها الاثنا عشرية أولها — الفيض الالهى من المعرفة الذى يفيض الله تعالى به على الأئمة فيجعلهم بمقتضى امامتهم فوق الناس علما واحتسابا ، وقربا من النبى صلى الله عليه وسلم ، وربه ، فعندهم علم الشريعة قد أوتوه دون الناس .

---

(1) راجع فى اخبار الاسماعيلية كتاب اصول الشيعة ، وكتاب تاريخ المذاهب الاسلامية الاعتقادية والسياسية لمحمد أبى زهرة ، الناشر : دار الفكر العربى ، للشريف المرتضى .

والثانى — ان الامام لا يلزم أن يكون ظاهرا معروفا ، بل يصح أن يكون خفيا مستورا ، ومع ذلك تجب طاعته • وان المهدى الذى يهدى الناس فى قابل الايام • وان لم يظهر فى جيل من الأجيال ، فانه لابد ظاهرا من بعد ، ولن تقوم القيامة ، حتى يظهر ، ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا وظلما •

الثالثة — أن الامام ليس مسئولا أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه فيما يقول من أقوال ، وفيما يأتى من افعال ، ففعله دائما خير لا شر فيه ، لأن عنده من العلم ما ليس عند غيره ومن هذا المبدأ قرروا أن الأئمة معصومون • لا بمعنى أنهم لا يرتكبون خطايا فقط ، بل بمعنى أعمق من ذلك ، وهو أن ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه ويكون سائغا بالنسبة لهم ، وليس سائغا لغيرهم من الناس •

وليس فى هذه المبادىء التى ذكرناها ما يخرجهم من اطار الاسلام الى غيره ، فليس ما يصح أنه خالف أمرا صريحا فى الكتاب أو السنة •

ولا شك أن بعض نواحى التفكير التى عند الباطنية ليس فيها ما يصح أن يكون كفرا صريحا ، وأقصى ما نقول فيها اننا لا نعرف بها كتابا ولا سنة •

ولكن فى أهل هذا التفكير وجدنا من خلعوا الربقة ، وكانت السرية التى اتخذتها هذه الفرقة مدرجة لهذا الخروج ، ففى ظلها فرضت آراؤهم ، وكانت سببا فى أن وجد الحاكمية ، وهم أولئك الغلاة الذين تجاوزوا حدود الاسلام ، ولقد غالى بعضهم فى معنى الاشراق الروحى ، حتى زعم أن الاله يحل فى نفس، ودعا الى عبادته (أى الامام) •

الحاكمية :

١٠١ — وانه كان على رأس هؤلاء الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى تنسب اليه الطائفة الحاكمية وقد ادعى أن الاله حل فيه •

وقد اختفى الحاكم ، ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة ، وان الراجح

أنه قتله بعض أقاربه ، ولكن أنكر مريدوه وأتباع مذهبه الذى ظهر بعد موته — أنه مات ، وزعموا أنه يعيش مستورا عن الناس ، وأنه سيرجع . وقد سميت الطائفة التى تتبعه بالحاكمية ، والدروز الذين يكثرون بلبنان وسوريا لهم صلة وثيقة بالحاكمية . وان كنا نظن أن كثيرين منهم لا يقولون ما يقول الحاكمية فى الحاكم .

وان بعض المؤرخين يقول ان الذى وسوس الى الحاكم أن يخرج على الناس بهذه الآراء الغالية رجل فارسى اسمه حمزة الدرزى .

ومهما يكن من أثر الحاكم فان بعض الدروز يعلنون آراءهم ، ولا نجد فيها ما ينافى الاسلام ، ومنهم من كانت له مواقف مشهورة مذكورة فى الدفاع عن الاسلام مثل المرحوم شكيب أرسلان . وكثيرون يستخفون بآرائهم وأعمالهم ، والله أعلم بحالهم .

وبجوار الحاكمية والدروز فرقة تسمى النصيرية لا تنسب نفسها للاسماعيلية والكلام فى هذه الطائفة كثير ، ونضرب الآن صفحا عن ذكره ، وليرجع فى الكلام فيها الى مصادره[1] .

نتاج الطائفية :

١٠٢ — كان يبدو بادىء الرأى أن الاختلاف الطائفى اختلاف علمى ونظرى فقط . والاختلاف النظرى أو العلمى ليس من شأنه أن يفرق الجماعات ولا يمزق الوحدة ، ولا يجعل بأسها بينها شديدا ، لأن الاختلاف العلمى لا يتجاوز مواطن التفكير ، ومواضع النظر .

ولكن الاختلاف الطائفى الشيعى أدى الى أن تنشأ دول تفك الوحدة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم ، ووثقها عليه السلام ، بالاخاء ، وبالموالاة كما أشرنا من قبل .

---

(١) مراجعة تاريخ المذاهب الاعتقادية والسياسية فى الاسلام وكتاب ابن تيمية وكلاهما لمحمد أبى زهرة — الناشر دار الفكر العربى .

ولم تكن تبعة هذا الاختلاف أو الافتراق تقع على الشيعة وحدهم ، بل على العباسيين لأنهم لم يعالجوا الأمر بالتلاقى على أحكام القرآن والسنة ، بل عالجوه كما يعالج الملوك الخارجين عليهم بالقتال والقتل وبث العيون ، وتتبع الناس بالسعاية ونحوها .

فمهروا فى الاستتار والاستخفاء ودبروا ما دبروا فى ظل الكتمان ، واتخذوا من ظلامه درقة اتقوا بها سيف القتال ودبروا أمرهم ، وأحكموا التدبير .

وصارت دعوى الامامة متنازعة بين ثلاث دول متفرقة .

أولاها : امامة الناصر الأطروش فى بلاد الديلم والجبل ، وهو يدعى أنه امام ، وان كان لا ينازع امامة بنى العباس ، لأنه فى أرض نائية عنهم ، وله فيها فضل الانشاء .

الثانية : امامة الهادى ، وهى فى اليمن ، وامتدت الى ما يجاوره ، ولم تكن لتنقص الأرض من أطرافها على بنى العباس ، بل كان لها الفضل فى القضاء على القرامطة الذين كانوا يقضون مضاجع العباسيين .

وهاتان الامامتان ظهرتا فى القرن الثالث الهجرى ، وتوطدت دعائم الهادى، حتى بقى ما سمى الامامة الى بضع سنين خلت .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهر امام الفاطميين الذى انبعث من بين الباطنيين او الاسماعيليين وابتدأ حكمه فى المغرب ثم انتقل الى مصر ، وأخذ الشام ، واستمر حكمهم الى أن قضى عليهم الأيوبيون فى القرن السادس الهجرى .

وبذلك صارت الامامة الى القرن السادس الهجرى مضطربا لأربعة أئمة هم أمير المؤمنين العباسى والامام الناصر الأطروش وذريته ، والامام الهادى وذريته، والمعز لدين الله وأولاده الى أن أدال الله منهم بالدولة الأيوبية .

وكان سلطان الخليفة العباسى اسميا ، وليس حقيقيا يتبع فى الحكم والسلطان .

تقطع الدولة فى العهد العباسى :

كانت الطائفية لها الأثر فى تفريق الوحدة من الناحية العملية ، على النحو الذى ذكرناه ، كقامت دول وانفكت الوحدة الاسلامية التى كانت تمثلها الخلافة ، ولو اسميا ، ولم تكن للخلافة النبوية حقيقة قائمة بل كانت الملكية هى المتحكمة ، وان تسمت بالخلافة وامرة المؤمنين .

ولقد قلت ان الوحدة كانت قائمة فى عهد ملوك بنى أمية ، وان كانت على دخن ، لأنه لم يكن حكم الاسلام قائما على الوجه الأكمل ، ولأنها لم تقم على أصول الاختيار بالشورى الاسلامية .

فلما آل الأمر الى بنى العباس ، وكانوا أقرب رحما بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان يكونوا فى حكمهم أعدل وأشمل ، ولكن كانوا أقل تعصبا للعرب . ثم آل الأمر الى العنصر الفارسى ثم العنصر التركى ، ثم كان استبداد هؤلاء ، وأولاء بمن تسموا بالخلفاء من بنى العباس .

الحكم الأموى بالأندلس :

١٠٣ — والدولة العباسية فى ابان قوتها ، ونشأتها القوية الفتية ، وفى عهد أبى جعفر المنصور الذى يعد أقوى منشىء للدولة العباسية نشأت دولة بنى مروان بالأندلس .

ذلك أنه عندما نزل الاضطهاد العباسى بالأمويين ، وتتبعوهم قتلا وتشريدا ، جزاء ما قدمت أيديهم بالنسبة لآل على كرم الله وجهه فى الجنة وان كان العباسيون ساروا على مثل منهجهم .

فى هذا الوقت ، وفى عصر أبى جعفر المنصور ، فر عبد الرحمن بن معاوية

ابن هشام بن عبد الملك الى الأندلس ، ولم يكن العرب الذين بها قد اقتنعوا بالتغيير والتبديل فى العراق والشام والمدينة ، فدانوا لعبد الرحمن بالطاعة وارتضوه حاكما عليهم ، وسمى فى التاريخ بعبد الرحمن الداخل : وسماه أبو جعفر المنصور تقديرا لهمته واعجابا به — صقر قريش .

ظهر صقر قريش فى الأندلس فاستولى عليها وضبط الأمور وجمعها تحت سلطان واحد .

واقترنت الحضارة الأندلسية بالدولة المروانية هذه فى ذلك الوادى الخصيب ، حتى لقد قال ابن حزم أن دولة بنى أمية بالأندلس كانت أنبل دول الاسلام ، وأنكاها فى العدو . وقد بلغت من العز والنصر ما لا زيادة عليه(١) . ولم يكن الملوك الأمويون المروانيون بالأندلس يدعون أنفسهم باسم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بل كانوا ملوكا ، ولم يدعوا لخلافة حتى لا يكون بين جماعة المسلمين خليفتان ، ولم يكن قد انفتق الخرق . فلم يريدوا أن يكونوا المبتدعين للافتراق .

ولكن ضعف أمر الخلافة العباسية ، واستبد بالخلفاء منهم الفرس ، ثم الأتراك ضعف شأنهم وخرج بالامامة أو الامرة عليهم الناصر الأطروش والهادى فى القرن الثالث — ثم نشأت الدولة الفاطمية على يدى المهدى الذى انتقل أحفاده من بعده الى مصر .

رأى هذا عبد الرحمن الناصر فى مطلع المائة الرابعة من التاريخ الهجرى، فعندئذ ادعى الخلافة لنفسه ، ولقب نفسه بلقب أمير المؤمنين ، ثم صار ذلك اسما لمن جاء بعده من ملوك بنى أمية فى ذلك الاقليم الخصيب .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر هذا بلغ ذلك الاقليم الاسلامى الذروة فى العز والسؤدد والرفعة ، وأخاف الفرنجة وأرهبهم ، وامتد سلطانه فى البلاد

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٧١ .

الاسلامية الى المغرب ونازع المهدى من الاسماعيلية فيمم وجهه شطر مصر .

ولكن ما بعد ارتفاع الشمس فى كبد السماء الا زوالها ، فانه قد سار على الأمر من بعده ابنه الحكم على منهاجه وسياسته ، فلم تضعف الأندلس .

ولكن لم يدم ملكه طويلا كأبيه . اذ أن أباه عاش ملكا وخليفة نحو خمسين سنة . أما الحكم فقد عاش خليفة ست عشرة سنة فقط .

ولقد اعترى الحكم بعد ذلك ضعف اذ تولى غلام كالشأن فى كل الحكم الوراثى ، اذ قد يتولاه الضعفاء كما يتولاه الأقوياء .

ولنترك هذا الى موضعه فى دراسة تاريخ الأندلس .

وان المقصود بذلك السياق الذى سقناه كيف ابتدأ تفرق الوحدة الاسلامية بعد العصر الأموى مباشرة ، وفى عصر فتوة العصر العباسى وازدهاره .

ولقد ضعف بعد ذلك الخليفة العباسى وكانت تتساقط أجزاء دولته ، حتى آل الأمر الى الافتراق الذى نعانى منه الآن تفرق كلمة المسلمين ، وأن يكون بعضهم حربا على بعض أو على الأقل لا يشعر كل اقليم منهم بما يعانيه الاقليم الآخر ، أو يشعر ولكن ينظر اليه من لا يهمه الأمر فيه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

الدولة الطولونية ثم الاخشيدية :

١٠٤ — أخذت الأقاليم بعض الاستقلال عن دولة العباسيين ، فأحمد ابن طولون تولى مصر ومن بعده أولاده ، وكان خاضعا للدولة العباسية ينادى بالتبعية لها ويعمل على حفظ ما تحت يده ويقدم الخراج والهدايا الى الدولة ، وكانت دولته وراثية ، ثم جاء الاخشيدية كذلك ، ومؤسس الدولة الأولى أحمد ابن طولون ، وكان أبوه مملوكا تركيا ، أهدى الى المأمون بن الرشيد وكان من الجنود الأتراك الأكفاء وولد له أحمد سنة ٢٢٠ وقد تولى حكم مصر من

قبل المسيطرين فى الدولة العباسية سنة ٢٥٤هـ فتولى ادارة الدولة والأعمال الخارجية ٠

وقد استقل بها أحمد سنة ٢٥٧هـ ، ودعى له بها بعــد الدعاء للخليفة ٠ وكانت وراثية لمن بعده ، حتى أخذها الاخشيدى ٠

وكان الأمر قد اضطرب بعض الاضطراب ، حتى اقتنصتها الدولة الفاطمية وناوأت العباسية التى لم يكن لها من الخلافة الا الاسم ٠

الحال فى الدولة العباسية :

١٠٥ ــ وجدت الدولة العباسية ، وهى تحمل فى نفسها عوامل انهيارها واضطرابها ٠

لقد قامت على التأييد الفارسى ، فالدعوة الفارسية كانت هى التى تقوم بالدعاية لتلك الدولة ، وقــد ابتدأت الدعوة علوية ، ثم حولت من علوية الى عباسية ٠

فكانت بسبب ذلك مربوطة بالعلويين والفارسيين معــا ، فالعلويون كانوا لا يسكتون عنهم ، ولا ينوون الخروج عليهم ، والقرامطة الذين اتخذوا العلوية مظهرا أقضوا مضجعهم الوقت بعد الآخر ، وهكذا ٠

والفارسيون كان يخشى بأسهم من وقت أن قامت الدولة ، فأبو مسلم الخراسانى الذى انتزع الملك من الأمويين ، وأعطاه للسفاح ثم للمنصور ، كان أخشى ما يخشاه أبو جعفر حتى بادر بقتله ، فتغداه قبل أن يتعشاه ، وجاء المقنع الخراسانى فثار على حكم المهدى ، وتولى نشر الزندقة ، فتلقاه المهدى بالمقاومة الشديدة ، وحاربه فى ميدان الحرب ، وميدان القلم ٠

حاربه حتى هزمه وقضى على قوته ٠

ودفع المعتزلة اليه يحاربون الزندقة التى كان يبثها المقنع الخراسانى وانتصر فى الميدانين ، ولكن بقى أصل الداء لم يستأصله •

وجاء من بعد ذلك عهد الرشيد ، فتقرب اليه البرامكة زلفى ثم اكتشف أنهم يعملون لفارس لا للعرب ، ولما تكشف له ذلك نكبهم ، ولكن بعد أن نصروا الشعوبية على العربية •

ولما عهد الى الأمين ثم المأمون ، وقد كان الثانى أسن من الأول ، وضعت المعركة سافرة بين العرب والفرس ، اذ أيد العرب الأمين وقد كان ذا نزعة عربية ، وأيد الفرس المأمون ، عندما تنازعوا وانتهى الأمر بمقتل الأمين وهزيمة الجيش العربى ، واشاعة قالة السوء عن الأمين •

وهكذا كان العنصر العربى يضعف ، وغير العربى يقوى ، وقد اتخذ المأمون من الفرس الحجاب والوزراء والقواد وكانت دولته فى حقيقتها فارسية وان كانت فى زى عربى •

ثم جاء المعتصم ، فأضاف الى العنصر الفارسى العنصر التركى . وهكذا توالت العناصر غير العربية على السيطرة على الحكم •

وقد يقول قائل : وما الذى فى هذا والاسلام دين عام خالد لكل الأجناس ولكل الأجيال ، فاذا كان المتغلب عربيا أو المتغلب فارسيا أو تركيا ، فهم على سواء ، لأن الاسلام سوى بينهم •

وان ذلك الكلام ظاهره الحق ولكن عند فحصه يتبين أنه بعيد عنه ، ذلك أن الذى نأخذه على نظام الحكم المغالبة ، فكما أنا أخذنا على الحكم الأموى التعصب العربى ، فانا نأخذ على التغلب الفارسى التعصب والمغالبة • ولو كان الأمر معاونة بين العرب والأعاجم لكان الخير المتفق مع حقائق الاسلام •

ان الوحدة الاسلامية تقتضى مزجا يشبه المزج الكيميائى ، ولا تكون

خلطا ، وان المزج يوجب أن تختفى كل الخواص الجزئية بعناصر أجزاء المركب، بحيث لا يتغلب عنصر على عنصر بل يكون البارز هو صفات المزيج وحـده ، وكذلك الأمر فى الوحدات الاجتماعية عامة ، وفى الوحدة الاسلامية خاصة .

السامانية :

١٠٦ — أخذ ظل الدولة العباسية يختفى من الحكم ، ففى المغرب ، كانت دولة الأدارسة ثم دولة المهدى الفاطمى وأولاده الذين أنشأوا الدولة الفاطمية بمصر ، وأزالت كل أثر للعباسيين فى مصر والشام .

وفى الشرق كان يتنازع الحكم كثيرون من أولاد فارس ، وغيرهم ، وكان منهم ، الذين استبدوا بملك خراسان وتوارثوه أكثر من سبعين ومائة سنة وكان الملك فيهم وراثيا ، وقد قضوا على كل سلطان للخليفة فى التنفيذ ، ولم يبق له فى الخلافة الا الاسم .

ويقول أستاذنا المرحوم الخضرى المؤرخ الأول فى هذا العصر للاسلام :

« تنسب هـذه الأسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فى أسرة عريقة المجد فى الأمة الفارسية ، وكان فى عهد المـأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لبعض البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم — وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهـة أمير خراسان ، فكان نوح بن أسد فى سمرقند وأحمد بن أسـد فى فرغانة ، ويحيى بن أسد فى الشاس ، وأشروسنة . والياس بن أسد فى هراة ، وكان أحمد ابن أسد عفيف النفس ، رضى السيرة ، لا يأخذ رشوة ، ولا أحد من أصحابه ولمـا توفى استخلف ابنـه نصرا على أعمـال سمرقنـد وما وراءها فبقى عاملا بها ... » [1] .

وهكذا كما قررنا أن الدولة العباسية كانت تحمل فى نفسها عوامل هدمها، وتفزيق الناس عن الوحـدة الاسلامية الجامعة ، فان أولاد سـامان توارثوا الملك . وصاروا دولة داخل الدولة العباسية .

---

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ، الدولة العباسية ص ٣١٠ .

والنتيجة الطبيعية لهـذه السياسة أن يستضعف الخلفاء ، وأن يقتلوا خليفة بعد خليفة ، أو بالأحرى ملكا ضعيفا بعد ملك ، ويتساقط نفوذهم تساقط الذباب على موائد من ولوهم .

ولقد ذكر أستاذنا الخضرى النتيجة الحتمية لذلك وهو تفرق الوحدة الاسـلامية وتقطع أجزاء الدولة التى كان يرجى أن تكون جامعـة لأمرها ، مهما يكن نوع حكمها ، ومن أى طريق كان سلطان ملوكها .

مما تقدم يفهم أن البلاد الشرقية تقلص عنها ظل الدولة العباسية فعلا ، وان كان يدعى لهم ببعضها اسما .

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان . وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة .

أما بالغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر ، وسـوريا وهى دولة أحمـد بن طولون[1] ، واته خلف ابن طولون وأولاده الأخشيديون ، وخلف من بعدهم دولة الفاطميين ، وقـد جاءوا من المغرب ، وهؤلاء ساوروا ملك العباسيين ولم يدينوا لهم بطاعة ، بل أغرى بينهم بالعداوة والبغضاء .

بنو بويه :

١٠٧ ــ وقدانقبض سلطان بنى العباس وصار نفوذهم العملى والادارى مقصورا على بغداد وما حولها من العراق ، وأما بقية الدولة فقد خرجت من أيديهم ، وصارت الولاية الحقيقية للسلاطين والولاة الذين استقلوا بهـذه البلاد القاصى منها والدانى .

حتى جاء بنو بويه ، وأزالوا ما بقى لهم من سـلطان فى ادارة بغـداد

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، الدولة العباسية ص ٢١٠ .

والعراق ، ولم يبق لهم الا السلطان الاسمى وصاروا لا يملكون من أمورهم الشخصية أكثرها ،و ذلك على أيدى بنى بويه •

وقد ظهرت هذه الأسرة فى وقت اضطرب فيه الأمر بين الحكام الذين استلبوا النفوذ فى بلاد المشرق من دولة بنى العباس ، وصار الحكم فيه لمن غلب •

ولقد أصاب بعضهم الترف والطغيان ، حتى أنه جعل له سريرا من ذهب كان يجلس عليه ، وسريرا من فضة كان يجلس عليه أكابر قواده •

واتخذ بعضهم شارة الملك الفارسى وما يماثله ، فكان اذا جلس على سريره الذهبى يقف الجند صفاصفا بعيدين عنه رهبة ، أو ليصوروه للناس مرهوبا • لا يصل اليه أحد الا الحجاب الذين جعلهم رتبا ، رتبة فوق رتبة ، واتخذ لحمل الناس على طاعته السبيل الذى يتخذه كل جبار طاغية ، وهو مكون من أمرين أحدهما الخوف الشديد ، وبذلك لا يفكر أحد فى مقاومته أو مجابهته أو لومه أو نقده أو أن يقول له اتق الله ، وكان لسان حاله يقول « من قال لى اتق الله قطعت عنقه » •

والعنصر الثانى : البذل والعطاء ، وان كان مال الدولة ، وكان بذله لمن يعاونه فى سلطانه ويقدمون له مظاهر الطاعة العمياء •

وهذا الحاكم الطاغية اسمه مرداويج من الديلم وقد غلب على حكام كانوا على شاكلته ، وسلكوا مثل طريقه ، وأخذ منهم السلطان بحد السيف ، وما كان منه كان صورة للمغالبات فى داخل الدولة الاسلامية الكبرى التى فرقت وحدة المسلمين ، وقسمتهم فرقا ، ودولا ، أو جزيئات من دول •

انضم الى نصرة هذه الطاغية أولاد بنى بويه وهم على والحسن وأحمد ، والطامعون دائما يلجأون الى الركن الشديد ذى الغلب والقوة • ويقول فى شأنهم أستاذنا الخضرى :

« ولما استقر قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم .. وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ... وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق ، وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية » .

والأدوار التى يشير اليها المؤرخ العظيم ، دور قوة الخلفاء وهو العصر العباسى الأول ، عصر الازدهار ، والدور الثانى بقاء الخلافة اسما ، وتحكم موالى العباسيين من الفارسيين ، والأتراك مع بقاء نوع من النفوذ والسلطان ويظهر ذلك فى العزل والتولية أحيانا ، أما الدور الثالث وهو الأخير ، فهو الذى أخذ الحكم والسلطان فيه بنو بويه لم يبقوا للخليفة فيه شيئا .

وبنو بويه ، قبل أن يئول اليهم السلطان ، لم يكن لهم نسب معروف ولكن بعد أن آل كتب تاريخ ونسب ينتهى الى بهرام جور الملك ، ولكن أبا الريحان البيرونى يرجح أن هذا النسب جاء به سلطانهم بعد أن صار لهم سلطان وقوة ، والذى دونه هو أبو اسحاق بن هلال الصابى . وقد أثر عنه أن بعض الأدباء دخل على ابراهيم الصابى ، وقد اعتكف لكتابة تاريخ تلك الدولة فسأله : ماذا تكتب، فقال له : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » .

استطاع على بن بويه أكبرهم أن يصل الى قلب الطاغية مرداويج حتى عينه واليا على الكرج ، وكتب له بذلك العهود والمواثيق . وقد استطاع على أن يعمل لنفسه ، لا لمن ولاه الذى أوجس منه خيفة ، بعد أن فصل عنه ، وأحس بذلك على بن بويه ، فتألب عليه ، وانتهى الأمر بينهما بموت مرداويج ، قتله جنوده من الترك اذ كان فظا غليظا ، وكان يؤثر قومه من الديلم على الترك فثاروا عليه .

وانتهى أمر كل المنافسين لعلى بن بويه . فكان فى يده ما كان تحت سلطان مرداويج من الأرض وسير أخاه الحسن الى بلاد الجبل ومعه جند قوى .

وعين أخاه أحمد وسيره الى الأهواز ، فاستولى عليه ، ثم سار الى واسط واستطاع الاتصال بقواد بغداد فدعوه اليها .

فدخلهـا دخول الظافر القوى فى ١١ من جمادى الأولى سـنة ٣٣٤هـ ، والخليفة هو المكتفى ، فبايع أحمد على أن ينادى بالمكتفى على أنه الخليفـة وينادى بأحمد بن بويه على أنه السلطان •

وان الخليفة لم يكتف بما خلعه على أحمد من لقب السلطان ، بل، شرف كل بنى بويه بالألقاب الفخمة ، فلقب عليا أخاهم الأكبر بلقب عماد الدولة وهو صاحب بلاد فارس ، ولقب الحسن صاحب الرى والجبل بلقب ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق بلقب معز الدولة •

ويقول أستاذنا الخضرى ، وهذا هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم ، وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينيا لا أمر له ولا وزير ، وانما له كاتب يدير اقطاعاته ، واخراجاته وصـارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء[1] •

تمزقت الدولة العباسية ذلك التمزق ، وزالت الخلافة حقيقة ، وان بقيت حكما على حد تعبير الفقهاء •

ولم يكن للمسلمين جامعة سياسية أو دينية تجمعهم ، بل تفرقت وحدتهم ، ولم يعودوا فى الوجود شـيئاً قائما بذاته ، ومن الحق علينا أن نترك الكلمة لأستاذنا شيخ مؤرخى الاسلام فى هذا العصر الخضرى اذ يقول رضى الله عنه « كان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية ، والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر ، وقد لقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد الى ما وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد •

وبلاد أفريقيـة للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبـة ، والأدارسة ، والقائم بالأمر منهم اسماعيل بن منصور ، وهو ثانى خلفائهم ، وكان يلقب بأمير المؤمنين •

---

(١) الكتاب المذكور بهامش ص ٢٠٠ — ص ٣٧٨ •

وبمصر والشام الاخشيدون وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى ، وبحلب والثغور سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى » يحصى رضى الله تبارك وتعالى عنه الأقسام التى كانت فى القرن الرابع الهجرى ، وبذلك تجزأت الوحدة وتقطعت أسبابها • ثم يختم ذلك بقوله :

« هذه هى القوى الكبرى التى كانت الأسر ملوكية فى الرقعة الاسلامية ، فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسكا الأعصر كلها ، وله حاضرة كبرى تجمع شتاته • ومما يستحق النظر أن العنصر العربى لم يبق له شىء من الملك الا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة الحمدانى فانهما من عنصر عربى ، ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد للقواد الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى ، بل كان أمر بنى بويه فوقهما ، وكانوا يذكرون اسم معز الدولة فى الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى » [1] •

آل سلجوق :

١٠٨ — نذكر آل سلجوق بكلمة لأنهم ورثوا بنى بويه ، وقاموا من بعدهم، ولأن استيلاءهم على بغداد يصور كيف كان الخليفة لا حول له ولا قوة اذ أنه عندما استحكم الفساد دعاهم لانقاذ البلاد ، وأن الخليفة صار لا يستطيع المحافظة على نفسه ، حتى انه كان يودع عند بعض الحكام كوديعة يحافظ عليها ، ولأن آل سلجوق عاصروا الحركات الصليبية وقاوموا فيها حتى أخذ الراية منهم صلاح الدين يوسف الأيوبى •

وآل سلجوق من تركستان كانوا تحت حكم ملك الترك بها ، وقد أوجسوا منه خيفة فهاجروا الى أرض الاسلام ، ولم يكونوا قد دخلوا فى الاسلام ، فدخلوا فيه وخرجوا من عقائدهم الجاهلية الى العقيدة الاسلامية •

وقد ربطوا حبالهم ببعض ملوك السامانية ، اذ أن أولئك اختلفوا

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية — الدولة العباسية — المرحوم الخضرى ص٣٨٠ •

فاستعان بعضهم بسلجوق رأس الأسرة ، فأعانه وأخذ أولاد سلجوق يعملون فى البلاد الاسلامية متعرضين للخطر دائما يعاونون من يستعين بهم •

وتفرقوا فى البـلاد يحكمون ويتسلطون ، وكان أظهر أحفـاد سلجوق طغرلبك وقـد تم له الاستيلاء على أرض اسـلامية كبيرة ، وهى خوارزم ، وخراسان ، وبلاد الرى ووصلت مقدمات جنوده الى البلاد العراقية •

وفى هذا الوقت كانت الأحوال قـد ساءت فى بغداد ، لأن آل بويه قـد تفرقت كلمتهم ، وزالت من القلوب هيبتهم فلم يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارىء ، ولا من لصوصها فأعدوا البلاد لقبول ما يغير من هذه الحال[1] • وانه فى هذه الأثناء جاء بعض من يناصر الفاطميين بمصر والشام ، والذين تاخم سلطانهم العراق ، وحاول هذا أن يدعو للفاطمى المتولى أمر مصر بالخلافة على منابر بغداد •

علم الخليفـة العبـاسى بذلك ، فكتب الى السلطان طغرلبك السلجوقى مستغيثا ، وقد كانت هذه أمنيته وكاتبه من بغداد من الأفراد والرؤساء يبذلون له الطاعة وأن يخطبوا له على المنابر •

جاء طغرلبك الى بغداد وأظهر للخليفة الطاعة وتقدم الخليفة فأمر الخطباء بأن يخطبوا فى جوامع بغداد لطغرلبك فخطبوا ، وكان يوم الجمعة ٢٢ من المحرم سنة ٤٤٨هـ ، واذ صار له السلطان قبض على آخر سلاطين بنى بويه •

وبذلك انتهت دولتهم ، وحل محلهم السلاجقة •

وقد قامت فتن وحروب اشترك فيها ضد طغرلبك • بعض عمومته ، وكانت الحروب بالموصل والجزيرة واشترك ضد طغرلبك بعض العرب ، ولكنه تغلب على كل مناوئيه ، ورضى بذلك الخليفة الذى ليس له من الأمر شىء • وقـد خلع عليه الخلع والشارات •

---

(١) الكتاب المذكور ص ٤١٧ .

واستمر الأمر فى نزاع بين السلاجقة وبعض العرب ، وبين السلاجقة بعضهم مع بعض أحيانا ، والخليفة لا أمر له ، حتى أنه فى أثناء المعركة بين بعض العرب والسلاجقة ، دخل المناوئون لطغرلبك بغداد ، ودعوا لخليفة الفاطميين والخليفة العباسى قد خرج من قصره على أن يكون فى ذمام رئيس القوة العربية قريش بن بدران العقيلى ولقد قال أستاذنا المرحوم الخضرى فى ذلك : « واستذم منه (أى من قريش بن بدران) بذمام الله تعالى وذمام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذمام العرب ، فأعطاه ذلك ، ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة ، وبيده السيف ، وعلى رأسه اللواء ، وأنزله فى خيمة » .

هذه حال الدولة الى أول القرن السادس الهجرى . وقد مزقتها الأهواء وحكمتها العصابات المتغلبة ، فكل ملك يريد أن يحكم البلاد ينازل الآخر . والخليفة قد ضاقت يده ، حتى صار لا يملك الا عقاره ونسبه ، ولا يهمه الا أن تبقى له تلك الدعة ، وصار ينطبق عليه قول الحطيئة فى الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

اكتفى الخليفة بأن يكون آمنا فى سربه عند متعته ، وتحقيق رغبته وهان أمره حتى اذا كانت حرب حوله ، لم يكن له فيها ناقة ولا جمل ، وكانوا ينقلونه الى خيمة الحرب ، كما تنقل النساء والذرارى .

هذا أمر الخلافة الكبرى التى كانت للمسلمين ، فلم يكن غريبا أن يمزقوا كل ممزق وأن يكون الخليفة نهب المقتسمين وهدف المغتصبين ، وأن يتحقق فيهم ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يا رسول الله ، قال : بل أنتم اليوم كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليذيقنكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

غارة الصليبيين :

١٠٩ — انتهى القرن الخامس ، والمسلمون فى المشرق على ذلك التدابر والتنازع ، ولا جامع يجمعهم ، ولا رابط يربطهم ، وقانون الغلبة هو الذى يحكمهم ، ولا يستقر الأمر الغالب حتى يبادر الى الانتقام ممن غلبهم ، والمغلوب يتحين الفرصة للانقضاض ، وهكذا استمرت الحال على ذلك والشعب مأكول من الغالب والمغلوب على سواء ، ومصالح الأمة ضائعة فى كل حال . كانت هذه الحال مغرية للصليبيين لأن يقبضوا قبضة من ذلك النهب الضائع ، ورسلهم تجىء الى المسلمين وتعرف حالهم فى خفى أمرهم مع ظاهره ولم يكن فيه خفاء يحتاج الى تعرف .

أخذ بطرس الراهب يحرض ملوك أوربا على الشرق ، ويدعوهم الى الأرض المقدسة ، يدعوهم مرة باسم المسيحية ومولد المسيح ، وأرض نشأته ، وبها نشأته . وبها كنائسه ومرة باسم المادة ، لأنها تفيض لبنا وعسلا ، وتقدم هو بجمع ، وان لم يكن منظما ففتح الطريق للجيوش المنظمة .

فاندفعت تلك الجيوش ، واستولت على الأرض المقدسة وعاثوا فيها فسادا وقتلا ذريعا ، ويجب أن نذكر هنا الفضل لرجلين عظيمى الشأن فى الاسلام :

أحدهما — محمود نور الدين زنكى السلجوقى ، فانه جمع الصفوف من جيش المسلمين المنهزم ، وأخذ يقاوم الصليبيين ، وينازعهم الأرض شبرا شبرا فعاق تقدمهم ، ومنعهم من أن يتغلغلوا فى البلاد الاسلامية ، وفى أول الأمر ظنوا الطريق مفتوحا .

ولكنه لم يقف عند ذلك ، بل أراد أن يسترد منهم بيت المقدس والأرض المقدسة التى دنسوها وهى التى بارك الله فيها .

والرجل الثانى — هو يوسف صلاح الدين الأيوبى الذى كان قائدا من قواد نور الدين ، ثم حمل العبء كاملا من بعده ، وقد عمل عملين : أولهما أنه قضى على الدولة الفاطمية فى مصر لأنه رآها عامل تخذيل لا عامل تأييد ولأن

فريقا من الفاطميين كانوا على الجيش الاسلامى ، وكانوا يتصلون بالفرنجة الغزاة من وراء ، ولعلهم كانوا على صلة بالفاطميين •

العمل الثانى — أنه جمع الجموع من البلاد الاسلامية وأكثرها من البلاد العربية • وأخرج الصليبيين من الأرض المقدسة ، وطهرها من رجسهم ، وظلمهم الذى كان يشمل النصارى من سكان البلاد الاسلامية ولا يقتصر على المسلمين •

وقد استمرت الحروب الصليبية من بعد ذلك ، ولكنها كانت غارات تتتابع ولم يكن فيها انتصار لهم حتى كانت مدينة المنصورة مقبرتهم الأخيرة فى عهد دولة المماليك •

التتــــر :

١١٠ — وما ان خفت ويلات الصليبيين ، وأخرجوا من الأرض المقدسة وصــارت الحرب من بعــد ذلك سجالا ، لا يغلبون ولا يسيطرون ، وان لم يقهروا ، وتتوالى منهم الغارات ، ولكن يتلقاها المسلمون بالصبر ، وقد أبلوا فى ذلك بلاد حسنا •

وما ان كان ذلك ، حتى فوجىء المشرق بمن هم أدهى وأمر ، وهم المغول أو التتر ، فقد انقضوا انقضاضا على الممالك الاسلامية المجزأة فحطموها •

ولقد اختلف الرواة فى سببها فقيل ان بعض المغالبين لخوارزم شاه أحد ملوك المسلمين حرضهم عليه ، لشغله بهم وأخذه على غرة وهو مشغول بهم ، وكان غريبا أن يعين قوما غير مسلمين على ملك مسلم ، ولكنه الطمع الذى يعمى ويصم ، وضعف الخلق والدين والرجولة تجتمع فيكون منها ذلك •

وقيل ان السبب أن جنكيز ملك التتر الوثنى عقد مع خوارزم شاه اتفاقا تجاريا ، أرسل بمقتضاه رسلا أربعمائة ومعهم المتاجر فقتل أتباع خوارزم شاه التجار وأخذوا ما معهم ، فأرسل من يذكره بعهده فقتله •

ولعل ذلك السبب كان ظاهرا ، ولكن الطمع فى البـلاد الاسلامية التى كانت بلاد الخصب والنماء والثروة هو الباعث الأول أو الثانى ولكنه كان باعثا على كل حال .

انسابت الجيوش التترية المغولية فى الأرض الاسلامية، حتى جاءت الى بغداد ، وساروا فى طريقهم الى دمشق ، وكانوا من بعد بغداد قد دخلوا فى الاسلام ، ولم يمنعهم من الفساد والاسترسال ، حتى لقيهم قطز ومن بعده الظاهر بيبرس البندقدار .

وان الذى يهمنا فى هذا المقام هو ما فعلوه فى الشرق عامة وفى بغـداد خاصـة ، وفى المسمى خليفـة المسلمين بشكل أخص ، ولنترك الكلمة فى هذا لابن الأثير فى كتابه الكامل ، قال :

« ولقـد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما ، كارها لذكرها ، وهأنذا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ذلك لا يجـدى نفعا .. فنقول : هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله تعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لا تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، هؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال والحوامل ، وقتلوا الأجنة ، وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالنيران استدبرتها الريح ، ان قوما خرجوا من أطراف الصـين فقصدوا بلاد تركستان ومنها الى بلاد ما وراء النهر فملكوها ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان الى حد العراق ثم

يقصدون بلاد أذربيجان ، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم الا الشريد النادر — فى أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عددا ، فقتلوا كل من وقف لهم . فهرب الباقون الى الغياض وروءوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعلوا هذا فى أسرع زمان ، ولم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها ، من بلاد الهند ، وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد ، هذا مما لم يطرق الأسماع ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة ، انما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا ، انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض سيرة — فى نحو سنة ، ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها ، الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ، ثم انهم لا يحتاجون الى مدد يأتيهم ، فانهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التى يركبونها ، فانها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شىء من خارج .

وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئا ، يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لا يعرف أبوه » .

هذا وصف هؤلاء التتر الذين دخلوا الديار الاسلامية وأتموا تمزيقها بعد أن مزقها أهلها .

دخولهم بغداد :

١١١ — واننا لا نكتفى بهذا الوصف العام ، بل لا بد أن نشير الى ما كان ببغداد . كيف تم الاستيلاء عليها فانه ينطبق عليها بعض القول ، يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدى الكافرين ذلك أن وزير الخليفة ابان ذاك كان مؤيد الدين

ابن العلقمى ، وكان شيعيا متشددا ، ذلك أن السلاجقة والبويهيين من قبلهم كان فيهم تشيع • وكانوا يحمون الشيعة ، كما كانوا يحمون ذات الخليفة العباسى ، واذا كانت سياستهم قد منعتهم من أن يعينوا خليفة شيعيا فانها لم تمنعهم من أن يعينوا وزيرا شيعيا •

لقد كانت الفتنة قائمة على أشدها بين أهل السنة والشيعة ؛ والتتر يساورون بغداد ، ونال السنيون من الشيعة ، وتغلبوا عليهم ، فأحنق ذلك ابن العلقمى •

وبغداد فى هذا الوقت كانت مبتلاة من داخلها ، كما هى فى بلاء من خارجها ، ففى الخارج كان التتر ، وهم وحدهم يزيلون كل حضارة أو فيهم الكفاية الكاملة لذلك ، ولقد مالأهم من داخل بغداد اليهود والنصارى الذين نقموا على الاسلام اذ آواهم وحملهم وكفل لهم الحرية الدينية من غير اضطهاد أو أذى •

وكان فيها ابن العلقمى الناقم على السنيين وخليفتهم ، ولو كان خليفة بالاسم لا بالحقيقة ، فدفعه حقده وحب الانتقام أن يختار ممالأة التتر عبدة الشمس على اخوانه المسلمين عبدة الواحد القهار ، لقد عمل على اضعاف المسلمين عن المقاومة •

كان فى بغداد مائة ألف جندى معهم السلاح والعدة والعتاد ، وكان فيها الأمراء الأكابر الذين كان فيهم حمية الأسود الكواسر ، فأخذ فى تقليل العدد حتى نزل الى عشرة آلاف ، ثم أطمع التتر وكشف لهم الحال وضعف الرجال •

ولم يكتف بذلك الذى قدمه ، بل أنه عندما أقبلوا كالوحوش الضارية حسن للخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ويكون للخليفة النصف فرضى ، وذهب الخليفة ليفاوض ، فأعاده هولاكو قائدهم مذموما مدحورا ، اذ أشار الوزير العلقمى على هولاكو ألا يقبل المصالحة لأن الخليفة

ينقضها بعد سنة ، وأشار عليـه بأن يقتله فقتله وأيد العلقمى فى قوله هذا نصير الطوسى الذى كان فى صحبته ، ليكون كاشفا لحال البـلاد الاسلامية التى يفتحها •

قتل الخليفة باشارة وزيره ابن العلقمى وانساب التتر يقتلون ويخربون ، ولم ينج من أهل بغداد الا اليهود والنصارى ، ومن لجأ الى ابن العلقمى [1] فهؤلاء وحدهم كان لهم الأمان •

هـذه صـورة لذلك العصر ، وكيف كان المسلمون والبـلاء بلاء ، وكان ما يفعله التتر ابادة لا تبقى ولا تذر ، ولا تفرق بين مذهب ومذهب ، اذ نهبت محلة الرافضة أهل مذهب ابن العلقمى ، ونهبت دور ناس لهم قرابات بابن العلقمى ، فأثار ذلك حنقه وهاجه ، ولعله ندم على أنه دبر ما دبر مما كانت عاقبته وخيمة على الاسـلام وأهله ولات ساعة مندم • وأنه مع هذه الصورة البشعة المؤلمة صورة أخرى أشد شناعة وأشد اقتتاما وهى تبين كيف كان أثر التعصب الطائفى اذ فرق المسلمين أولا ، وقدمهم لقمة سائغة للعدو أخيرا • ولا حول ولا قوة الا بالله •

الخلافة من بعـد بغـداد :

١١٢ — دخل التتار حلب بعد بغـداد ، وذهبوا الى دمشق ، فاستولوا عليها سنة ٦٥٨ من الهجرة ودخلوها ، ولكنهم لم يمكثوا بها أمدا طويلا ، فقد جاءت الجيوش المصرية فى آخر رمضان من السنة نفسها بقيادة ملكها المظفر قطز ، فلقد بلغه أنهم قاصدوه ، فبادرهم قبل أن يبادروه ، وتغداهم قبل أن يتعشوه فالتقى الجيش المصرى فى عين جالوت بالجيش التترى فانهزم التتر لأول مرة وتبعتهم الجيوش المصرية تذيقهم بعض ما أذاقوه الآمنين ، فقتلوهم وتشردوهم ، حتى انذعروا فى البلاد فارين •

ولم يكتف المصريون باجلائهم عن دمشق بل أجلوهم بقيـادة الظـاهر

---

(١) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ ص ١ •

بيبرس من بعد قطز عن البــلاد العربية كلها وثغورها • وبذلك تكسرت تلك الصخرة التى جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس عامة والمسلمين خاصة وهنا يجب أن نذكر أن الاسلام وصل الى قلوب هؤلاء التتر ، وذاقوا بشاشته بعد فترة من الزمان •

لهذه المكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة ، اتجه التفكير الى أن تكون دار الخلافة بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد •

أراد الظاهر أن يعيد الخلافة الاسلامية وأن يجعل موطنها القــاهرة ، وقد شغر منصب الخليفة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ الى سنة ٦٥٩ هـ ، حيث بويع المستنصر العباسى خليفة ليسير فى سياسة بنى العباس •

وان اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فيهــا رمز للوحدة ، وعسى أن يكون الرمز حقيقة •

وكان المظنون أن تعود الخلافة اسما لامعنى له ، وشكلا لا حقيقة له ، ولكن المستنصر أرادها قوة موجبة ، وأن يعيــد للاسلام معنــاه ، وللشكل حقيقته •

وقد استفاد الظاهر من وجود الخليفة عنــده ، وهو صاحب السلطان الشرعى فى نظر الأكثرين والجمهور الأعظم ، وقد جعــل المستنصر للظاهر سلطان المسلمين عامة لا سلطان مصر وحدها •

تقدم الخليفة ليثبت سلطانه وسلطان من عينه بقوة السيف ، فقتل ساعياء بدل أن يقتل ضعيفا مستخذيا •

بايع من بعده الظاهر أخاه الحاكم فى الثانى من المحرم ٦٩١ هـ •

وفى اليوم التالى لتوليه ارتقى المنبر يوم الجمعة ، وخطب داعيــا الى الوحدة والجهــاد ، وجاء فى خطبتــه ما يدل على آمله ، ورغبتــه فى الوحدة الاسلامية ، فقد جاء فيها :

« اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسـلام . والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العبـاد ، ولا سبيت الحـرم الا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء الا بارتكاب الجرائم ، فلو جاهدتم أعداء الاسلام ، لما دخلوا دار الاسلام . واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفـال ، وسبوا النسـاء والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخليفة الحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم العظيم ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الجد فى احياء فرض الجهاد ، واتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، فلم يبق معـذرة فى القعود عن أعداء الدين ، والمحـاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر هو السيد الأجل الكامل العادل المجاهد المؤيد ، ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الامامة عند قلة الأنصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت الخلافة بهمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله تعالى الى شكر هـذه النعمة ، وأخلصوا دينكم تنصروا ، وقاتلوا أوليـاء الشيطان تظفروا ، ولا يزعجكم ما جرى ، فالحرب سجال ، والعاقبـة للمتقين ، والدهر يومان ، والأجر للمتقين ، جمع الله تعالى على الهدى أمركم ، وأعز بالاسلام نصركم ، وأستغفر الله لى وللمسلمين ، فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم » (١) .

ونرى فى هذه الخطبـة دعوة الي الجهاد فى ظل الظاهر بيبرس ، وقـد اشتملت من الثناء عليه ما اشتملت ، وفيها دعوة الى جمع الكلمة .

ولكن هل عادت الخلافة العباسية كما ابتدأت ، ان عيشها فى ظل سلطان لا يجرى فيها دماء الحياة ، ولا يحيى مواتها ، لأنها تكون مانعة له .

ولذلك استمرت تتبادلها أيدي السلاطين من المماليك حتى جاء آل عثمان واقتطعوها وادعوها لأنفسهم فكانوا يلقبون بأمراء المؤمنين ، والدول الاسلامية تنتقص جزءا جزءا وما ينتقص يكون تحت حكم المسلمين .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثالث عشر ص ٢٣٨ .

الاندلس والمغرب:

١١٣ ــ كانت مصر بعد أن فتحها الله تعالى على المسلمين فى عهد أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه المكان الذى كانت تنبعث منه جيوش الفتح الاسلامى الى شمال افريقيا ، وعبرت البحر الى الآندلس ، وانسابت فيها الجيوش الاسلامية حتى وصلت الى جنوب فرنسا ، واحتلته أكثر من عشرين عاما • ولذلك نرى فى سكان جنوب فرنسا ما يدل على أنهم من بقايا الغزاة •

وانه مع اتساع ذلك الفتح ترك الفاتحون الجبال فى شمال الأندلس الى المغرب فاتخذت مثابة أوى لها المنهزمون من الوندال ورجال الكنيسة وأمراء البلاد الذين نجوا من حد السيف ، وما كان العرب ليهتموا بسكان هذه الجبال لأنهم كانوا أقوياء مسيطرين ، وان كان هؤلاء يكونون داء يخشى أن ينفجر وقتا ما ، فان قوة الجسم تهزمه لا محالة •

ولكن حكام الأندلس من بعد عبد الرحمن الناصر ، كان فيهم ضعف ، فمنهم من انغمر فى الشهوات يجترع منها اجتراعا ، ومن لم ينغمس فى حرام أترفه النعيم ، واسترخى بالعيش الفاكه ، وذهب البأس العربى ، وزاد الطين بلة الفتن التى توالت •

ولما تولى بعض الخلفاء بولاية العهد فى سن العاشرة استولى على الحكم الوزير أبومنصور العامرى ، وفيه بأس وقوة ، ولم يسترح فى حياته بنعيم • وكان سكان الجبال ابتدأوا يقتطعون أجزاء من أرض المسلمين • فردهم على أعقابهم خاسرين •

ولكن من بعده اضطربت الأمور ، فالأمويون اختلفوا فيما بينهم . ثم كان انحلال الحكم الأموى ، ومجىء ملوك الطوائف ، وصار كل اقليم له حاكمه ، فتفرق المسلمون فى الأندلس ، والعدو يترصدهم وينقص الأرض عليهم من أطرافها •

ولكن المرابطين بالمغرب جاءوا بقيادة أميرهم ابن تاشفين ، وأزال الحكم المتفرق ، وقاوم الفرنجة ، ولكن يجيء من بعد ذلك الموحدون ويخرجون المرابطين .

وهكذا أصبحت الأندلس عرضة للتفرق والانقسام ، وغارات المسلمين من المغرب ، وغارات الفرنجة من الشمال يقتطعون من تحت أيديهم الأرض مدينة مدينة .

وفى هذه الأثناء كان عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ؛ يردون جحافل الصليبيين عند بيت المقدس ، حتى ينتزعوه منهم ، وتتبعوهم حتى أجلوهم ، أو أضعفوهم ، فجاءت فلول منهم وانضموا الى المغيرين على المسلمين فى الأندلس .

فكانت حربهم صليبية ، تتعاون على المسلمين ، والمسلمون متفرقون ليس لهم غرض مقصود ، ولا جامعة تجمعهم ، بل تفرقوا أيدى سبأ ، فرقهم الهوى ابتداء ثم مزقهم الضعف انتهاء ، لأنه لا وحدة توحد لهم الغاية والمقصد ، وأعداؤهم قد توحدت غايتهم .

لقد أرسل المسلمون بالأندلس يستغيثون بمن يظنون فيهم القدرة على النجدة فلم يجدوا الا المماليك فى مصر ، مع بعد الشقة ، وعظم المشقة فى الاغاثة ، فأرسل حكام المماليك الى الترك العثمانيين الذين يمثلون القوة الاسلامية الكبرى ، أرسلوا اليهم يستحثونهم على معاونة اخوانهم المسلمين لينقذوهم وهم يعذبون وتفتش وتفتت محاكم التفتيش قلوبهم .

ومن الغريب أن المسلمين كان يحدث لهم ذلك كله ، وجيوش سليمان القانونى تدك أسوار فينا دكا ، وما كان كل ذلك الا أن الوحدة الاسلامية تفرقت بعد اجتماع ، وصار حب الغلب هو المسيطر ، وليس الرغبة فى اعزاز الاسلام والمسلمين ، والرغبة فى اعلاء كلمة الدين ، ونسى الجميع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يسلمه ولا يخذله ،

والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ، فاستنصر المسلم فى الكريهة والشديدة فلم ينصروه لأنه لا وحدة للمسلمين .

موت اللغـــة العربيـــة :

١١٤ ـــ لا نقصد بموت اللغة العربية ضياعها ، ولكن نقصـــد بذلك أن اللغات الأعجمية من الفارسية والتركية والرومية وغيرها من اللغات التى كانت قد طوتها اللغة العربية فى ظلها ابان علو شأن المسلمين ، والاسلام ، واعتبار القرآن الجامع بينهم ، ولو تنزلنا وقلنا كما يجمع الصليب النصارى ، والتلمود اليهود ، لكان كلامنا موضع ظن فى القول ، ولكن نعوذ بالله من هذا التشبيه الذى يخطر بالبـــال ، فالقرآن أعلى لأنه حق وغيره باطل ، ولا يشـــبه الحق بالباطل .

لقد كانت اللغة العربية هى الجامعة بين الشعوب الاسلامية تجمعهم دينا ، لأنها وعاء الاسلام ، اذ هى لغة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبها نزل القرآن ، ومن المفروض أن يعرف المسلم من اللغة العربية قدرا يصحح به دينه .

وهى لغة التفاهم بين المسلمين ، وبها يتعارفون ، ويتلاقون ، ويجتمعون ، وقد كان لعلماء الفرس وغيرهم المقـــام فى العلوم الاســـلامية التى دونوها باللغة العربية .

ولما تفرق الحكم الاسلامى ، واضطرب بسيطرة أهواء الملوك والحاكمين وسيطرة قانون الغلب بدل قانون الاسلام ، ولما صارت الأمور كذلك ، كانت اللغة العربية ، وكان المسلم يسير بين المسلمين ، لا يجد فيهم مجاهل لأنه يعرف خطابهم ، وتجمعه بهم لغة القرآن .

ولمـــاذا ضعفت اللغة ضعفا يصح أن يعبر عنه بالموت ، وان الموت لا يمكن تحققه ؟ لأنها لغة القرآن ، وما بقى القرآن فهى باقية ، وانهـــا اذا اعتراها عارض الفناء جددها القرآن وأعادها ، ان لم يكن كمـــا ابتدأت فان المحاولة تجددها ، وتمدها بعناصر العلم .

ونجيب عن هذا السؤال الحائر ، وهو : لماذا ضعفت العربية أو أوشكت أن تموت .

ونقول فى الجواب انه سنة الوجود تجعل اللغة كائنا حيا ككل الأحيـاء وحياة الحى تتبع المكان والبيئة التى يعيش فيها ، فان كانت تمده بالغـذاء القوى قوى ، وان ضعفت ضعف ، فكان ضعف العرب فى وسط ذلك الخضم الذى كان العصر العباسى وما حوله مؤديا الى ضعف اللغـة ، والناس انما يحاولون تقليد الأقوياء فى لغتهم ، فينطقون كما ينطق القوى ، فان كان فصيح اللسان قلدوه ، وان كان ملتوى البيان حاكوه ، وانا لنرى ذلك يجرى بين أيدينا ، فلما ضعف العرب ضعفت معهم لغتهم ، ولولا القرآن لماتت ولكنه باق فبقيت **« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون »** .

وضعف العربية كان له مظهران ، ولكل مظهر سبب قائم بذاته ، أولهما ، سيادة العامية . وثانيهما : احياء اللغات القومية لغير العرب لنزعة الشعوبية .

العاميـــة :

١١٥ ــ ابتدأ الذين يتكلمون العربية من كبار المتكلمين يلحنون ، فلا ينطقون بالفصحى سليمة من الخطأ فى أواخر الكلمات أو بنيتها وقد لوحظ ذلك فى العصر الأموى ، بل فى آخر عصر الراشدين . حتى أن اللحن ترتب عليـه أمران أحدهما خير ، وهو ضبط العربية بعلم النحو الذى يكون مقياسا لضبط آخر الكلمات ، والصرف الذى يضبط بنيتها .

ولقد كان اللحن من الخطباء غير كثير فى عهد الأمويين ، ولكنه أخذ يكثر ويزيد فى عهـد العباسيين ، حتى لقد روى أبو عمرو الشيبانى قال : « تكلم أبو جعفر المنصور فى مجلس فيه أعرابى فلحن فصر [1] الأعرابى أذنيه فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى فقـال الأعرابى : أف لهـذا ما هذا . ثم تكلم المنصور ، فلحن الثالثـة ، فقال الأعرابى : أشهد لقـد وليت هـذا الأمر بقضاء وقدر » .

---

(١) معنى صرها صرفها للاستماع .

وعن الواقدى: « صلى رجل من آل الزبير خلف المنصور ، وقرأ « الهاكم التكاثر » فاحن فى موضعين ، فلما ختم التفت الزبيرى الى من بجانبه ، وقال : ما كان أهون هذا القرشى على أهله » [1] .

وأخذ اللحن يفشو ، حتى أخذ الناس يتحللون من الفصحى الى العامية ، حتى لا يتعرضوا لتخطئة النحاة ، ومن لف لفهم ، كما ترى فى الخطبة بالعامية ، فى مواطن الفصحى ، وهبوط البيان العربى .

وان فشو العامية لهـذا السبب ، ولدخول الأعاجم الذين كانت تلتوى ألسنتهم بالفصحى فلا تحسنها ، فلما كثر اختلاط العرب بالأعاجم ازداد فشو العاميـة وكانت البـلاد العربية تدخلها العجمة ، ولكن بجوارها الفصحى ، أما فارس ، وخوارزم ، وخراسان وغيرها من بلاد الأعاجم فان العربية كانت العامية ، وبجوارها كانت لغتهم السائدة المسيطرة .

الشعوبية واحياء اللغات القديمة :

١١٦ — استيقظت الشعوبية قوية لجبة ، وهى التى تفضل الأعاجم على العرب ، وقويت فى العصر العباسى الثانى الذى صار الحكم فيه لغير العرب وان كانت بذورها قد وجدت فى العصر الأموى ، ولكن لم تظهر نباتا قد خرج نبته ثم أخرج شطأه الا فى العصر العباسى الأول ثم استوى على سوقه بعد ذلك فى العصر العباسى الثانى فى الدول التابعة للخلافة العباسية التى استبدت بالملك والسلطان ، فكان جزءا من سياستها أن تضعف شأن العرب وأن تعلى العنصر الديلمى ، ثم العناصر الأخرى غير العرب ، وما كانت ألسنة الأكثرين منهم تطوع للعربية ، وتطوع لها لغتهم الأصلية .

وكانت اللغة العربية القريبة من الفصحى حيث لا تكون حضارة تسيرها العجمة . وكان البدو من العرب والقريبون منهم يتشددون فى العربية ، وكانوا حريصين على ألا يساكنوا الأعاجم ، حتى لا يؤثروا فى لغتهم بالعدوى .

---

(١) كتاب المرحوم الأستاذ نجاتى رحمه الله لطلبة دار العلوم .

ويقول الفيروز آبادى صاحب القاموس المحيط فى مادة عكد ان عكاد جبل باليمن قرب مدينة زبيد ، وأهله باقون على اللغة الفصيحة • وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدى : ولا يقيم الغريب فى بلادهم أكثر من ثلاث ليال خوفا على لسانهم • ولسان البدو النازلين فى الجنوب من شبه الجزيرة العربية لا يزال الى اليوم قريبا من الفصيح ، ويشبهه فى بعض الوجوه [1] وان ذلك التشدد فى العربية فى مقابل النزعة الشعوبية التى بدأت تدعو الى غير العربية حقدا وعجزا ومهما يكن من الشعوبية فان سيل العامية لم يوقف •

ولما قبض آل بويه على الحكم طغى سيل العامية فى العراق العربى ونزحت العناصر العربية عنها ، هروبا من الطغيان الأعجمى ، ومن بقى فى العراق اندمج فى الأعاجم بالتزاوج وكل ذلك زاد العامية انتشارا ، والفصحى أفولا •

أما فى غير البلاد العربية فان حظ العربية حتى العامية أخذ ينقص ، وكلما انقبضت العربية ولو عامية انبسطت لغة الأقاليم وسيطرت ، واستيقظت من سباتها وقامت من مرقدها •

وقد نمت تلك الحال سريعا ، فما أن امتد نفوذ بنى بويه فى الأقاليم الشرقية حتى نشطت اللغات الأخرى واستردت حياتها ، وطوردت اللغة العربية من بلاد سكنتها وازدهرت فيها حتى صارت بلادها •

وهاهو ذا المتنبى فى القرن الرابع الهجرى خرج قاصدا فارس ، فما كاد يغادر بغداد ويدخل أرض فارس حتى هاله الأمر ، فلم يجد لسانا عربيا يخاطبه بل وجد لسانا أعجميا ، وقد قال فى وصف الحال عند شعب بوان :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان [2]

---

(١) تاريخ الادب العربى فى العصر العباسى ص ٣٩ للأستاذ المرحوم نجاتى •
(٢) الكتاب المذكور •

ولم يكن للعربية الفصحى نصيب الا في بعض المكاتبات والرسائل تكون بين بغداد وغيرها من البلدان وكان أولئك الملوك من الأعاجم يحرصــون على تشجيع الكاتبين بالعربية فى الأدب وان لم يكن مترسلا بل كان السجع يسوده ولذلك كان من بين هؤلاء الأعاجم من الأدباء من زخر بهم علم الأدب ، مثل مقامات الخوارزمى ومقامات بديع الزمان الهمذانى فكانت اللغة العربية وعاء الأدب فى الجملة •

ولكن بجوار ذلك وجد من كان يتعصب للفارسية فى الأدب ، فشجع الذين يسجلون أدبهم باللغة الفارسية ، ومن هؤلاء ، أو من أولهم السلطان محمود ابن سبكتكين الغزنوى الذى كان له نفوذ وسلطان ، فقد شجع الفردوسى على أن يكتب الشاهنامة بالفارسية ، وعلى أوزان الشعر العربى •

وان الفرس من أيام بنى بويه ومن شابههم أخذوا يهجرون العربية ليحيوا لغتهم ، ومنهم من جهل العربية جهلا تاما ، ومنهم من كان يعرف اللغتين ، ولكن خطابه ومعاملاته بلغته ، لأنها اللغة التى عادت الى الشعب ، بعد افتراق عنه ، وان كان الى خير منها ، وهى لغة القرآن •

وكانت اللغة التركية تجد لها حياة وقوة فى وســط المعترك اللغوى بين العربية والفارسية ، وصارت لسان الترك حتى اذا آلت الخلافة الاسمية الى آل عثمان رفعوا التركية ، وفرضوها على كل الأقاليم الاسلامية الخاضعة ، ثم كان أن انسلخت من العربية حتى فى الشكل والكتابة ولا حول ولا قوة الا بالله •

خلاصة ونتيجة :

١١٧ — اننا الآن مفترقون ، بل بيننا تناحر وتنازع فى بعض نواحينا • وأن ذلك داء اعترانا بعد أن لم يكن ، وعارض عرض على أصل كياننا ، ورأينا مقدساتنا كيف تتهدم بأيدى أعداء الله وأعداء الحق ، وأعداء الاسلام • ووجدنا من لحن أقوالهم ومراميهم أنهم يرومون البيت الحرام ، وروضة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال قائلهم بعد أن استولوا على ايلياء والمسجد الأقصى :

لقد صار الطريق الى مكة والمدينة مفتوحا ، وهم متفقون على باطلهم ، ونحن متفرقون متنازعون على حقنا •

داء لابد من أن نعالجه ، ولكى نعالجه لابد من معرفة الكيان الأصيل للوحدة الاسلامية الذى اعتراه الداء ، ولابد أن نعرف كيف دخل الداء . ولابد أن نعرف حقيقته وذاته ، فليس الطبيب الماهر هو الذى يستطيع أن يكتب الدواء انما الطبيب النطاسى هو الذى يستطيع أن يكشف الداء ، وقوة البناء الجسمى ، وأصل تكوينه ، وأبعاده ، وما أثر فيه فى الماضى ، وما يؤثر فيه فى الحاضر •

ولذلك اتجهنا الى أصل تكوين الوحدة الاسلامية • فذكرنا تكوين النبى صلى الله عليه وسلم • وكيف آلف الله تعالى قلوب المؤمنين • وكيف حولهم من عداوة على شفا حفرة من النار • الى وحدة تجمعها المحبة ، وتقربهم من نعيم الجنة ، وعز الدنيا والغلب العادل ، والفتح المبين •

ثم ذكرنا كيف استمرت هذه الوحدة بعد أن انتقل الاسلام بالعرب فجعلهم يندمجون فى غيرهم من الأمم • وكيف صار شكل الوحدة فى عهد الراشدين رضوان الله تعالى عنهم ، وكيف كانت المساواة تجمع والعدالة تقوى الوحدة ، وكيف كانت الأمة كلها عربا وعجما كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وكيف زالت الحجزات بين الأقاليم الاسلامية التى كانت تدين بالقرآن ، وحكم الله الذى كان الخلفاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولين لا ينطلقون الا به ، ولا يصدرون الا عن كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

وخيرات البلاد الاسلامية يفيض بعضها على بعض ، لا يحتكر اقليم على اقليم ، ولا يضن قوم بفيض خيرهم على الآخرين ، والتعارف يربطهم ، والمساواة العادلة تجمعهم ، والتعاون على البر والتقوى قوتهم التى يدرعون بها أمام أعدائهم ، وبه يهاجمون الشر فى مواضعه ، وتحقق فيهم قول الله

تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير** » .

ومن تكوين الوحدة وقيامها علمنا كيف يمكن اعادتها ، وكيف يستطيع الحكيم المصلح أن يعيد الجمع المتفرق الى وحدته والنفور المستحكم الى الائتلاف .

وقد صورنا كيف أخذ سوس الفرقة يتغلغل فى الأمة الاسلامية ، وكيف حلت الاقليمية محل الوحدة الاسلامية ، ولم تستطع أن تعيش معها ، والعدل يوجب أن يأتلفا ، لأن الوطنية يوجب الاسلام فيها ألا يعتدى الوطنى على غيره ، فان ذلك هو العصبية المقيتة وقد روينا فى ذلك قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان العصبية أن يعين قوم على الظلم » وبينا أن عناية كل وطنى بوطنه فى ظل الاسلام ، والجمع الاسلامى يجعل من الأوطان القوية المتحدة قوة للجماعة الاسلامية ، اذا كانت الهيعة لنصرة الاسلام واستجابت كل الأوطان القوية .

ولقد ذكرنا التفرق وكيف دخل شيئا فشيئا الى الجماعات الاسلامية ، حتى نسى الناس الاسلام الجامع ، ولم يذكروا الا الوطنية الجامحة المفرقة .

واننا بعد أن سرنا فى تلك الرحلة الشاقة رحلة التفرق والانقسام فابتدأنا من وحدة جامعة فى عهد الراشدين ثم سارت فى الدانية فى العصر الأموى ، ثم وجدنا أجزاء الجسم يتساقط بعضها عضوا عضوا ، ثم صارت أشلاء متفرقة وأخذت الذئاب تنوشها شلوا شلوا ، ثم أخذت تفترسها جميعا ، حتى انتهى الامر فلم نجد جمعا متلاقيا ، بل وجدنا أجزاء تنوشها ذئاب الغرب بل الشرق أيضا .

وما جاء القرن الرابع عشر الهجرى الموافق له المتمم للعشرين الميلادى . ولا يوجد اقليم اسلامى مستقل ، أو غير خاضع لنفوذ دولة أخرى غربية لا ترجو للاسلام وقارا ، بل انها صليبية فى ثوب جديد من الصليبية ؛ حتى أن ملك الانجليز عندما قابل المنتصر فى فلسطين قال له : لقد انتصرت فى آخر حرب

صليبية . والقائد الفرنسى فى الشام زار قبر صـــلاح الدين الأيوبى وقال ها نحن أولاء وقد عدنا يا صلاح الدين •

١١٨ ـــ والآن نلخص أسباب التفرق ، بل التجزؤ والسير فى طريق الفناء، كما رأينا فى سير التاريخ الذى سقناه فيما يلى :

أولها : وهو أعظمها أثرا ، فساد الحكم عند الحكام ، وصيرورته ملكية نتغالب مع غيرها ، وتطبيق قانون الغلبة على المسلمين بعضهم مع بعض فلم يفرق الحكام بين حكم نبوى يستمد أصوله من الاسلام ، وحكم الغلب والقهر •

وان فساد الحكم نجم من ثلاثة عناصر مخالفة كل المخالفة لأحكام القرآن وسنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

(أ) اعمال الشورى عند تعيين الحاكم ، وفى حكمه ، فان الله تعالى يقول « **وأمرهم شورى بينهم** » وان ذلك يقتضى ألا يختـار الحاكم الا بشورى المؤمنين وأن تكون بعد الشورى حرية المبايعة ، وأن يوفى الحاكم بحق البيعة ويوفى المحكوم بحقها ، وحقها من الحاكم العدل وألا يهلك الحرث والنسل وأن يعمل ما فيه خير المسلمين ، وأن يستشير حتما أهل الرأى والخبرة ، على حسب النظام الذى يناسب الزمان ، وحقها على المحكوم الطاعة فى غير معصية الله تعالى ، أو كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنشط والمكره الا أن يؤمر بمعصية . ومن حق المبايعـة النصيحة لأولى الأمر ان اشتطوا أو جاروا ، وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا • أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم » •

(ب) ومن عناصر الفساد جعـل الحكم وراثيا ـــ يتلقـاه الخلف عن السلف ، كأن الشعوب مادة تورث ، وأن الحكم حق ينتقل من مالك الى مالك ، وما نظر الاسلام الى الشعوب هذه النظرة ، وقد وصف الرسول هذا النوع

من الحكم بأنه ملك عضوض ، وأنه ترتب على جعـل الحكم وراثيا أن تولاه غلمان لا يدركون ، ويتلعب بهم .

وقـد نتج من اهمال الشورى ، وصيرورة الحكم استبداديا فى اقامته . وفى نظامه اهمال رأى الجماعة الاسلامية اهمالا تاما ، فانقطع الاتصال بين الحاكم والمحكوم ، وطغى الحاكم وذل المحكوم .

ومن فساد الحكم اهمال الأحكام الاسلامية ، فتشيع المحاباة ، وتبـاح الدماء ويهمل القصاص ، وتهمل الحدود التى أمر الله تعالى باقامتها ، واقامتها فريضة محكمة لا مناص من اتباعها والقيام بحقها .

(جـ) ومن فساد الحكم المغالبة التى كانت بين حكام الأقاليم بحيث ينظر حاكم كل اقليم الى الآخر نظر المتربص الذى يريد الفتك بصاحبه ، فان لم يسبقه سبقه ، والسابق والمسبوق فى النار .

(د) وشر مظهر من مظاهر الفساد فى الحكم الاسلامى أن يستعان بغير المسلم على المسلم ، كما استعان الفاطميون على الأيوبيين بالصليبيين ، وكما استعان ابن العلقمى بالتتر على من سمى خليفة المسلمين ، وكما روى من أن أول من فتح أعين التتر على المؤمنين ، وال ناقم أو ملك غاشم .

ومن ذلك النوع ممالأة الحاكم المسلم مع غير المسلم ضد بعض المسلمين ، وقد كان ذلك فى الماضى ، فكان الملك الأموى يمالىء الروم فى القسطنطينية ، وهو على عداوة مع العباسيين ، فكان هؤلاء يذهبون الى الأندلس ويهادونهم وأولئك يكرمون وفادتهم ، وكان العباسيون يمالئون شارلمان وغيره من الفرنجة الذين يساورون الأندلسيين ويحاولون أن يخرجوهم من ديارهم .

ومن هذا النوع سكوت الحاكم المسلم القوى عن معاونة من يستغيث من ضعفاء المسلمين ، كمـا فعلا العثمانيون مع أهل الأندلس ، وهم يستغيثون ولا مغيث وتركهم سليم الأول وسليمان القانونى حتى شردوا ، ومزقوا كل ممزق ، وذهبت دولة الأندلس ، غصن الاسلام الرطيب .

الطائفيـــة :

١١٩ ــ والسبب الثـانى من الأسباب التى فرقت المسلمين الطائفيـة : وكانت الطائفية أول طريق اتجه بالمسلمين الى الفرقة والانقسام . ولكن المعول الأول رد على صاحبه ، وذلك لأن الجدار الاسلامى كان قويا ، يحطم من حاول أن يحطمه ، ولكن الأثر امتد لما بعده .

فالطائفية ظهرت فى أسباب مقتل الشهيد ذى النورين عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وقد رأيت مما سقنا كيف ترتب عليها أنه نادى بالأمر من ليس أهلا له متمسحا بدم عثمان رضى الله عنه ، وكيف انقلب بعد ذلك أمر الحكم الاسلامى من خلافة نبوية الى ملك عضوض متوارث .

ولقد كانت الطائفية سببا فى الفتن أو الثورات المتوالية على بنى أمية أولا ثم بنى العباس ثانيا ، ونحن لا نقول ان الذين ثاروا على الحكم الأموى كانوا أقل فضلا من ملوك بنى أمية ، فما كان زيد بن على أستاذ أبى حنيفة أقل فضلا من هشام بن عبد الملك ، وكذلك ما كان محمد النفس الزكية ولا أخوه ابراهيم أقل فضلا من أبى جعفر المنصور ، ولكن مهما تكن أسباب الخروج عادلة فى ذاتها، فان الخروج ، وفشله يؤدى الى أمرين لا محالة .

أحدهما ــ توهين شأن الوحدة ، وبلبلة أفكار المسلمين نحو حكامهم ومن غير نتيجة .

ثانيهما ــ ان الخروج وان أضعف الثقة فى الحكام يزيد الحكام عنفـا ويزيد الشعب ضعفا وما ذلك من المصلحة فى شىء .

وقد ترتب على الطائفية أن انقسمت الحكومة الاسـلامية الى حكومات متفرقة . فكان الأدارسة بالمغرب ثم الفاطمية بالمغرب ومصر والشام ، وأخذت تنقص الأرض من أطرافها على العباسيين ، وكل ذلك على حسـاب الوحدة الاسلامية .

وكان من آثار الطائفية أن قامت دولة الناصر الأطروش بالديلم والجبل ، وقامت دولة الهادى ومن بعده باليمن ، وتوارث ذلك بنوه من بعده .

ولا ننظر أى هؤلاء أعدل ، وأقوم للحق والقسطاس ، ولكنها فرقة على أى صورة كانت . ومن التفريق يدخل الضعف ، وتذهب قوة الجمع . ويكون أمر المسلمين من بعد فوضى لا رابطة تربطهم .

وانه فى وسط الثورات الطائفية، أو الانقسام بسبب الطائفية وجدت النحل الفاسدة سبلها للدخول فى جماعات المسلمين هادمين ، مثيرين فتنة القول والاعتقاد ، كما كان الأمر فى القرامطة وغيرهم من الفئات التى تسهل دخول الانحلال الدينى الى القلوب ، فضلا عن الفرقة والانقسام وجعل بأس المسلمين بينهم شديدا ، وقد أخذهم الأعداء الذين كانوا يتربصون بهم من كل جانب .

وقد ذكرنا فى صلب البحث أثر الطائفية فى حرب التتر وزوال الدولة العباسية وفى حرب الصليبيين ، ولم يكن أثر الطائفية مقصورا على ما ذكرنا هنا ، وما ذكرناه من قبل ، بل كان لها أثر أشد وأفعل وأقوى تأثيرا . وربما كان تفرق الحكام أثرا من آثاره ، وذلك فى أمرين :

أحدهما : الافتراق النفسى ، فقد كانت كل طائفة تحسب نفسها مسلمين منفصلين عن الآخرين ، وكل فرقة تحسب أن أتباعها وحدهم المسلمون ، ولقد وجدنا فى بعض كتب الشيعة أنهم لا يعدون غيرهم من المسلمين مؤمنين ، وان كانوا يعدونهم من أهل القبلة ، ووجدنا أن الشيعة لا يقبلون شهادة واحد من السنة ولو كان فى ذاته عدلا مستقيم السيرة ، ويقبلون شهادة الشيعى ، ويردون بها شهادة السنى ، ولو كان الشيعى فاسقا فى ذاته ، ولا نريد أن نقول أن ذاك حق أم باطل ، ولكن أن نقول أنه فرقة فى النفوس وقد أدى فى الماضى الى أن يكون لكل دور ، ويؤدى فى الحاضر الى الضرر الدائم المستمر ، اللهم ألف القلوب فى الحاضر ، كما ألفتها فى الماضى ، اللهم انك رؤوف بعبادك ، فلا تمكن ذئاب الأرض منهم قليلا ، كما تمكنوا سابقا .

الأمر الثانى : اختلاف الأحكام المطبقة ، فالشيعة لهم اجتهاد فقهى ، والسنيون لهم اجتهاد فقهى وان ذلك لا خطر فيه فى ذاته ، ولكن له أثر فى الفرقة والانقسام فى داخل الدولة الواحدة ، وقد كان المستعمرون يوسعون الهوة بين الشيعة والسنة فى كل بلد يحكمونه ، ونريد ألا يكون هذا الباب مفتوحا يلج الشر منه دائما ، ولا نريد أن نمحو منه الاختلاف المذهبى فهو ميراث يكون تركة مثرية من الفكر الاسلامى ، ويجب احياؤه فى الدراسة ، وتحقيقه فى العمل . والله بكل شىء حفيظ .

احياء اللغات القومية :

١٢٠ — ذكرنا كيف ماتت اللغة العربية فى الأقاليم الاسلامية غير العربية فى المشرق . ولكنها استمرت باقية فى العراق والشام ، ومصر ، وشمال أفريقية على عجمة دخلت فيها ، ولكنها على أى حال استمرت باقية . وان حاول المستعمرون فى العصر الحديث أن يزيلوها . فالجزائر قد حوربت فيها اللغة العربية ، حاربها الفرنسيون اذ استولوا عليها أمدا غير قصير ، وحاربوها فى المغرب .

ولكنها استيقظت فى كل بلد حوربت فيه ، وأخذت تنهض من الكبوة التى أسقطوها فيها ، وانها سائرة بعون الله تعالى نامية قائمة ، وصارت عربية بالتعرب بعون الله تعالى ، أما المشرق وبلاد العثمانيين فقد زالت فيها اللغة العربية زوالا كاملا ، ولم تعد لغة التخاطب ، ولا لغة الدولة ، وان كانت مستمرة بين كثيرين من العلماء الذين عنوا بدراسة القرآن ، أو الدراسات الاسلامية بشكل عام ، فباكستان غلبت فيها الأردية ، والأفغان وايران سادتها الفارسية ، والعثمانيون وبلاد الأتراك سادتها التركية ، والمسلمون فى الهند والصين يتكلمون بلغاتهم ، ولا يعرفون من العربية الا ما يصححون به صلاتهم من حفظ الفاتحة وخطبة الجمعة فى تلك البلاد الشرقية ما عدا تركيا وأندونيسيا وفيها نحو مائة مليون مسلم أو يزيدون عن ذلك كثيرا أو قليلا ، وهم كذلك يتخاطبون بلغتهم ولا يتخاطبون بلغة القرآن .

ومسلمو الشرق الذين لا يتخاطبون بلغة القرآن يبلغون نحو ستمائة

مليون أو يزيدون ، ولا يجمعهم بالمسلمين الا اسم الاسلام ، وان جهل اللغة العربية فى تلك الأقاليم جعل أطراف البلادلا يعرفون أحكام الاسلام فى الأسرة والمعاملات المالية ، بل العقيدة ذاتها ، يؤمنون بالله على حرف أو انحراف ، ولا يتصلون بالعلم الاسلامى الذى يرفع درجاتهم الفكرية والنفسية •

وانه فى أطراف أندونيسيا ، يتزوج المسلمة البوذى والمسيحى ، وغيرهما ، ولا تعرف أن ذلك محرم عليها ، ويتزوج المسلم الوثنية ، ولا يعرف أن ذلك حرام عليه لأنه لم يقرأ قوله تعالى « **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النــار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه** » ولم يجدوا من يصلهم بالثقافة الاسلامية ، ولا يصــل اليهم العلم الاسلامى الا بلغاتهم التى تنقصها الثقافة القرآنية والنبوية ، وانه من المناظر التى تؤذى الحس أنه فى بيت الله الحرام حيث يجتمع المســلمون للتعارف فى ضيافة الرحمن ، وحيث مهبط الوحى ومنزل النبوة • نجد المسلمين لا يستطيع بعضهم أن يخاطب الآخرين ، الا باللغة الانجليزية لغة من حكموا بغير الحق أرضهم ، وحاربوا فى خفية الأمر دينهم الذى ارتضوه ، وكذلك الذين استعمرهم الفرنسيس يتكلمون بلغة الفرنسيس ، وليس فيهم من تذهب همته الى أن يحج بيت الله الحرام ، وهو يعلم العربية ليستطيع مخاطبة أهله •

واننا نجد فى المؤتمرات الاسلامية لا رواج للغة العربية الا بين العرب ، ونجد سكان أفريقيا وآسيا من المسلمين يتكلمون الانجليزية والفرنسية •

وان المؤتمرات التى هى مظهر الوحدة نجدها مظهر التفرق ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

كيف تكون الوحدة الآن

١٢١ — ان التفرق والتنابذ هو الظاهرة القائمة الآن ، وقد كان للمسلمين عذر من قبل لأنه كانت كل البلاد الاسلامية ، ان استثنينا دولة آل عثمان تحت السيطرة الأجنبية • فمصر والهند ، وكان المسلمون نحو مائة وعشرين مليون مسلم بهما ، تحت سلطان الدولة الانجليزية ، وشمال أفريقيا ، وكل البلاد الاسلامية بها كانت خاضعة لفرنسا وانجلترا •

ولما خرجت الشامات والعراق من سلطان العثمانيين تلقفتها فرنسا وانجلترا وكان العراق من نصيب الانجليز خاصة ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدول الاسلامية تتحرر من الاستعمار الصليبى بجهادشعوبها ودماء أهلها ، حتى تسلم الأمر حكام منها ، فصارت الباكستان دولة مستقلة ، وهى تضم الآن نحو مائة مليون مسلم • وأندونيسيا مثلها أو أكثر ، وأفغانستان وايران ، كلها بلاد اسلامية تحررت من النير الأجنبى الفعلى ، وتحررت مصر وشمال أفريقية ، والبلاد الاسلامية التى كانت تحت الحكم الانجليزى أو الفرنسى أو البلجيكى •

وهكذا رفع الأجنبى يده ، أو ردت يده مغلولة •

ولكن الأجنبى الغريب ربى ناسا من أهل البلاد ، كان يقربهم اليه ، ويدنيهم ، وقد آل أمر الحكم فى هذه البلاد الى أولئك الذين كان قد اصطفاهم أعداء الاسلام ، وأولئك يؤمنون بمن اختاروهم ولذلك كانوا على ولاء مع أولئك •

وصار المسلمون اليوم تتفرق حكوماتهم فمنهم من يوالون الغرب فى انجلترا وأمريكا ، ويرتمون فيهم ، ويجعلون لهم نفوذا بغير الجيوش التى تجوب الديار ، ولكن بالاتجاه الفكرى ، والمعونات المالية والعسكرية على أساس ألا يعملوا فيها الا ما يريده الذين أعطوهم • ومن هؤلاء من يوالون الشرق ، ويستمدون منهم المال والسلاح ، ويتكلمون بنغمتهم ، ويجعلون أنفسهم لهم تبعا ، ومنهم يتوسطون فيميلون لهذا تارة ، وللآخر أخرى • وبذلك اختار حكام

المسلمين التبعية فلم تفرض عليهم ، والمتبـوع دائما لا يشجع الاســلام بل لا يريد أن يكون تابعه للاسلام خالصا •

والشعوب ليست وراء الحكام ، بل هم منفصلون عنهم شعورا وايمانا ، ورغبة فى الوحدة والاتحاد بين المسلمين والاندماج فى وحدة اسلامية جامعة •

أول طـريق :

١٢٢ — وأول الطريق أن ننخلع من نير الأجنبى ، فلا يقال عن حاكم أنه ينزع منزعا غربيا وأنه ذو الحظوة عند أمريكا ، أو انجلترا ، أو غيرهما ، بل تكون نزعته اسلامية خالصة • ولا يقال عن حاكم آخر أنه ينزع نحو الشرق وهو الذى يوجه سياسته وهو منـه بمنزلة التـابع من المتبوع ، ولكن نريده اسلاميا ، ولسنا نريد أن نقطع العلاقات بين أى حاكم ، وأى أجنبى ، بل نريد أن يكون الحاكم أيا كان لونه رئيسا أو ملكا ، أن تكون كلمة الاسلام هى العليا ، وأن تكون العلاقات كلها دون العلاقة الاسلامية بحيث تكون هى الرابطة الأولى ، اليها تتجه النفوس وتتحرك الغايات •

ويكون الاسلام هو المستغرق للنفس المستولى عليها الذى لا تعرف سلطانا لغيره ، مهما يكن سلطان القوى ، ولكن حكام المسلمين لا يزالون فى غرة من أمر الذين أذاقوا البلاد الاسلامية الوبال ، مع أن نيات العـداء لا تزال واضحة للعيان ، فقد عملوا فى الحاضر ما لم يعملوا فى الماضى •

لقـد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم فى بقعـة من أرض السلام (فلسطين) ومزقوا أهلها كل ممزق ، وتركوهم يأكلهم العرى والجوع ، فلا مأوى يؤويهم ، ولا أرض يستقرون بها • ولقد يكون ذلك كالمبضع يقطع فى جسم حى قد ذهب عنـه المخدر ، أو كالسكين تقطع فى جسم حى ليحس بالألم فتكون له ارادة ، ولكن لم يتحرك المسلمون لذلك ، وتركوا الأمر للعرب وحدهم ، وكأنهم ليسوا مسلمين ، والعرب أنفسهم تدابروا فمنهم من له هوى مع أمريكا التى كان ذلك القطع تحت سمعها وبصرها ، وأيدت المفسدين من اليهود ولا تزال تؤيدهم

وتطغيهم ، ومن العرب الذين يزعمون أنفسهم ينتمون للنبى صلى الله عليه وسلم من يوالون اليهود باطنا ويوالون الأمريكان ظاهرا أو باطنا ٠

اننا الآن تحررنا من نيرالأجنبى الذى يعادينا ، وسلمنا أمورنا الأولياء منا ولكنهم لم تكن أعمالهم للاسلام خالصة كلها ولم يعملوا للوحدة كاملة مع أننا فى عصر التجمع الذى تتجمع فيه الدول المتفرقة تحت حلف ، أو أمر جامع أيا كان سبب ذلك التجمع ، وان الاقليم الذى يدخل فى كتلة لا نكاد نرى له وجودا بينهم ، ولكن الأقاليم الاسلامية تنفرد فيما بينها ، ويحاول بعضها أن يدخل فى حلف من أحلافهم فيكون كالواغل بين شرب يتبرمون به ، ولا يعطونه مما يشربون ٠

ان روح العصر توجب على المسلمين أن يتجمعوا فى وحدة حول كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، الأن الله تعالى يناديهم من وراء الخلود فى قوله تعالى كما تلونا : ((**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**)) ٠

انه لا بد أن نجتمع بعد طول الافتراق ، لأن الأمة الاسلامية تقوم فيها الروابط على وحدة الدين والعقيدة ، ووحدة المبادىء الخلقية الفاضلة ، والنظم الاجتماعية العادلة والعبادات الجامعة ، وفى كل يوم يمر يشعر المسلم بالوحدة ، ان أدى العبادات على وجهها ، فتلك الوحدة فى قلبه آناء الليل وأطراف النهار ، فانه فى الصلوات الخمس يتجه الى الكعبة المكرمة قبلة المسلمين أجمعين ، فاذا كان وهو يؤدى الصلوات يشعر أنه واحد من ألوف الملايين الذين يتجهون الى هذه القبلة ، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين رب الخلق أجمعين ، ومرتبط بالمسلمين فى بقاع الأرض بهذه القبلة التى توحد قلوبهم ومشاعرهم ، واذا كان ذلك الارتباط بالمكان فى الصلاة فهناك ارتباط بالزمان فى شعيرة أخرى من شعائر الاسلام وهى الصوم ، فانه اذا جاء رمضان ، ورؤى هلاله فى

مكان ألزم به جماعة المسلمين فى كل بقاع الأرض فيكون ذلك اشعارا لهم بأنهم أمة الله تعالى دعاهم الى الوحدة فيها ، كما أوجب العقل والشرع وحدانية الله تعالى ، فالصوم يوحد المسلمين باتحاد زمان العبادة ، كما أن الصلاة توحدهم بمكان الاتجاه فيها ، وفى الحج تلتقى جماعات من كل اقليم اسلامى فى بيت الله الحرام ، فى ضيافة الله سبحانه وتعالى ، ويتعارفون فيعرف كل اقليم آلام الآخرين وآمالهم ، ويتصل باحساسهم ومشاعرهم ، ويعرف ما يحتاج اليه كل اقليم ، وما يفيض من خيراته ، ليمد به الآخرين ، وبذلك تتحقق فى الحج أمور ثلاثة هى من رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أولها — اتجاههم موحدين متحدين لربهم واقامة نسكه ، وتذكر أبى الأنبياء ابراهيم ، والقيام بالمناسك وأداء العبادة الجماعية والاجتماعية والروحية وتعرف مهابط الوحى ، ومنازل الرسالة •

ثانيها — التعارف الانسانى ، وقوة التآخى ، والشعور بأن المسلمين جسم واحد •

ثالثها — التعاون فى دفع الضر ، وجلب الخير ، والتعاون فى الكسب الطيب ، والتعاون فى أخذ خيرات الأرض بحيث يأخذ كل اقليم مما عند الآخرين ، وقد وجه الله سبحانه وتعالى الحجيج الى ذلك بجوار أداء النسك ، فقال تعالى : ((**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ، فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وأن كنتم من قبله لمن الضالين**)) واقرأ قوله تعالى : ((**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**)) •

نعم جاء النص الكريم بأن الحج مع النسك الأعظم ، يشهد المسلمون فيه منافع لهم ، وأى منفعة أجل وأعظم من التعارف والتعاون على البر والتقوى ، وأن يعملوا على أن يفيض أهل كل اقليم على غيرهم بما ليس عندهم •

وقد كانت الأســواق التجارية مجنة وعكاظ وذو المجاز فى موسم الحج ، يتبادلون فيها البضـائع ، فلنتبادل نحن الصفقات المثمرة التى تتعاون فيهـا الشعوب الاسلامية ، وان الذى تنتهى منه بعد التعرف للعبادات الاسلامية أنها تومىء أو تصرح بالأخوة الاسلامية ، ويؤدى القيام بها على وجهها الى شعور كل مسلم بأن المؤمنين اخوة بحكم الاسلام وأن الأخوة الاسلامية فوق الجنسية والعنصرية ، وأن أسباب هذه الأخوة قائمة ، وأن العقائد والتكليفات وحدها كافية لاقامة وحدة اسلامية .

وقد قال فى ذلك باعث النهضة الاسلامية فى العصور الحديثة ، جمال الدين الأفغانى : « أما وعزة الحق ، وسر العدل لو ترك المسلمون أنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين لتعارفت أرواحهم ، واتفقت آحادهم » . ولكن واأسفاه على المسلمين !! كانت الشـعوب فى جانب وحكامها فى جانب آخر ، فقلوب بعض الحكام مع بعض من الأجانب ، وآخرون مع جانب آخر ، وقد توزعت المسـلمين فى الماضى الأمم الغربيـة فسيطروا عليها ، وأدنوا المروجين لهم ، وأبعدوا المؤمنين المخلصين لدينهم ولبلادهم ، فلما تحررنا من الأجنبى حكمنا نحن المسلمون من كانوا يدنونهم ، وبعـد عن الحكم من كانوا يعادونهم .

الوحـدة الاسلامية ووحدة العقيدة :

١٢٣ — تقوم الوحـدة الاسلامية على وحـدة الدين ، والدين عقيـدة وعبادة وفضيلة ، وتعاون على البر والتقوى وعدل .

فاذا قلنـا أن الوحدة الاسلامية تقوم على الدين . فمؤدى الكلمة أن تسود العقيدة المنزهة ، والعبـادة المتجهة الى الله ، والتعاون بين آحادها بل بينها وبين الناس أجمعين ما داموا يعملون فى سبيل الخير ، والفضـيلة التى تجعل الانسان لا يرتع فى مراتع الشر ، ولا يفسد فى الأرض ، ولا ينخلع عن انسانيته الى أن ينزو نزو القردة ، وينهل كالخنزير من معاطن النتن ، ثم هو يؤدى الى العدالة بين القريب والبعيد والعدو والولى ، والمسلم وغير المسلم ،

فالعدالة قانون الله وقانون الاسلام ، وقانون الانسانية السامية ، لقد قال تعالى فى النهى عن ظلم العدو البغيض « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** » وانه اذا قامت الوحدة الاسلامية على أساس الدين ، وأخذ المسلمون جميعا بأخلاق الاسلام التى علمها القرآن ، وأوصى بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ذهبت أكثر شرور العالم ، وكان المسلمون كما ابتدأوا مثلا عالية للفضيلة والانسانية العالية .

وقد فقد العالم ذلك بتفرق المسلمين ، وتأخرهم عن الصف الأول فى بنى الانسان ، واحتل الصف الأول من تخلقوا بأخلاق القردة فى نزواتهم والخنازير فى مقاذرهم ، وان الأخوة الاسلامية تقوم على عناصر ليس فيها اعتداء على أحد ، ولا تعصب ضد أحد ، انما تقوم على ثلاثة مبادىء كلها يتصل بالأخلاق الفاضلة :

أولها — شعور بالأخوة بين المسلمين بعضهم مع بعض ، يتحقق فيها قوله تعالى : « **انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** » ، وألا يكون منها اعتداء على غيرهم الا اذا اعتدى عليهم اقليم منهم .

ثانيها — وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية ، حتى يتضافروا جميعا على محاربة المذاهب الهدامة ، ومنع شيوعها بين المؤمنين خاصة ، وبين الناس عامة ، حتى لا يكون فساد فى الأرض .

ثالثها — ألا يكون من اقليم اسلامى حرب على اقليم آخر ، أيا كانت أساليب هذه الحرب سواء أكانت بالاقتصاد ، أو بالتحالف على مسلمين .

وقد يقول قائل : ان هذه الوحدة مخالفة لنواميس الاجتماع ، ان المجتمعات فى الأمم تقوم على وحدة الجنس ، أو الاقتصاد ، أو وحدة المكان ، كما فى أمريكا . وهؤلاء المسلمون فى أقاليم شتى فى الأرض فكيف تجمعهم وحدة دينية مع تفرقهم فى الأرض ، وتنوع اقتصادهم ، وتخالف عناصرهم ؟ ونقول فى الجواب عن ذلك :

ان قيام الاجماع الاسلامى على مبادىء الفضيلة ووحدة العقيدة هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات الدولية ، ونحن لا نريد بالوحدة تكوين دولة ، انما تكوين مجتمع اسلامى من عدة أقاليم .

ولا يعد الاجتماع العنصرى أو الاقتصادى أو المكانى أمثل الاجتماعات لتكوين الأمم ، وذلك لأن الجماعة الواحدة لا تتكون وحدة الا اذا اتحدت المشاعر والمنازع النفسية ، ولا تكون هذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط ، بل لا بد مع تبادل المنافع من اتحاد المشاعر النفسية ، وذلك لأن تبادل المنافع يحقق اتحادا وقتيا عند قيامه ، ويزول بزواله ، وهو عرض غير دائم ، واذا قامت أمة على أساس التبادل الاقتصادى أو الاشتراك فى المنفعه المادية ، فانها تكون غير مندمج آحادها بعضهم فى بعض .

وأن الاجتماع فى مكان واحد مع اختلاف العناصر يكون اجتماعا يحمل فى نفسه عوامل انحلاله اذا لم تكن معان روحية تمنع قوة العنصرية وتدفعها ، فلا بد من أن يظل العناصر المختلفة دين مهذب ، لأن العنصرية تفرض دائما تفضيل عنصر على عنصر ، ومع هذا التفضيل الاعتداء على غير هذا العنصر ، والعنصرية شكل من أشكال التجمع الحيوانى ، اذ تجتمع فصيلة من الفصائل وتقاتل الأخرى ، وتجتاز مكانها الذى تقيم فيه لتغالب الآخرين ، وبذلك كانت الحروب المستمرة حيث لا يكون دين جامع ، ولا تهذيب مانع .

فليس التجمع على أساس العنصرية الا بقية من بقايا الحيوانية المتخلفة فى الانسان .

وانا لنرى ذلك واضحا فى الدول التى تعامل الشعوب على أساس ألوانها وليست فكرة الشعوب الملونة والشعوب البيضاء الا صورة تحكم العنصرية وبقية من بقايا الحيوانية المتخلفة . بل أخص صفات الحيوان .

أما الاجتماع باسم الدين ، أو بعبارة أخص الاجتماع باسم الاسلام ،

فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الأخوة العامة بين المسلمين . والمودة والرحمة بينهم والتعاون الانسانى الكامل معهم ومع غيرهم من الدول التى لا تعتدى ، ولا تحكم باسم العصبية أو العنصرية .

فهذا الاجتماع الاسلامى تتكون منه أمة متحدة المشاعر الانسانية العالية ، متجهة نحو الفضيلة ، والمثل العليا التى تنزع بالروح الانسانية نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الانسان لخالق الأكوان وحده ، وعندئذ يعلو الانسان عن المغالبة الا اذا أعتدى عليه ، فالدفاع يكون واجبا فى هذه الحال . ويكون ذلك من الفضيلة ومنع الفساد فى الأرض ، كما قال تعالى : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .**

وانه فى الوحدة الاسلامية التى يكون أساسها تطبيق الدين تكون العدالة الحقيقية التى لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، اذ لا عنصرية فى الاسلام ، بل الذى فيه : كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، والناس سواسية كأسنان المشط .

وان المجتمع القائم على العنصرية هو فى أمريكا الشمالية ، وان فيها لعبرة لأولى الأبصار ، ففيها قد صارت الأمور فوضى فى الأخلاق وفى النفوس ، والانطلاق مقرر للبيض ، والحرمان والاضطهاد مفروضان على السود ، فانك واجد ظلما على السود لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى ، وما دون ذلك من قوانين ظاهرها المساواة فى الحقوق والواجبات انما هى خطوط مسطورة على قراطيس . ليس لها فى العمل مظهر يدل على وجودها . ولذلك هوى المجتمع الأمريكى من ناحية الخلق وضبط النفس الى ما لم يهو اليه مجتمع انسانى فى عصر حضرى .

ان العلو فى المجتمعات الفاضلة كالمجتمع الاسلامى ان تحققت وحدة المسلمين ، انما يقوم على أساس فعل الخير والتقوى ، لا على أساس نبل

الدم . تقوم هذه المجتمعات الاسلامية على أساس احترام الكرامة الانسانية التى هى حق مشترك بين بنى الانسان • كما قال تعالى : ((**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)) •

ان الفضيلة اذا سادت ذهب التناحر ، وسكت قانون الغلب •

انما تقوم الفضيلة الشخصية والاجتماعية فى ظل الاسلام الذى يدعو الى التعاون الانسانى العام ، والذى يدعو الى التسامح العادل ، بعد قمع الرذائل •

ونحب أن ننبه الى كلمة عامة نقول فيها أن الأديان السماوية كلها التى جاء بها الرسل من الله لا تدعو الى التناحر ، ولا تحرض عليه ، والتعصب الذى يؤدى الى الفرقة والانقسام بين البشر ، ليس منشؤه التدين ، أو الاستمساك بالحقائق الدينية السليمة ، انما هو من ضعف الاعصاب الذى يؤدى الى هوس فى التفكير وليس من التدين •

واذا كان التاريخ يذكر تناحرا بين الناس باسم الأديان ، فليس ناشئا عن الدين نفسه ، وانما هو ضعف الأعصاب عند الذين يتزعمون باسم الدين ، وضلال فى الفهم •

وفوق ذلك قد يتحول الدين عند الذين لا يدركون حقائقه ، الى معنى يشبه الجنسية العنصرية ، ولا يكون حينئذ التناحر منبعثا من ذات الدين ولا من مبادئه ، بل من العنصرية التى لبست لبوس الدين ، والدين منها براء ، وهم بمقدار تناحرهم يتخلفون عن مبادىء دينهم •

وان الاسلام يبث فى النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة ، وحب التعاون والتعارف بين بنى الانسان ، فشعار الاسلام هو التعارف • ولذا قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الاسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف)) • ووراء التعارف التعاون على البر والتقوى ، والتعاون على دفع

الفساد ، ولقد قال سبحانه وتعالى : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » .

هذه حقائق مقررة تشير الى معنى الجمع الاسلامى والوحدة الاسلامية وأنه لا عصبية ولا جنسية ، ولا اقليمية ، بل محبة ومودة ، واقرأ قوله صلى الله عليه وسلم « ان لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : قوم تحابوا فى الله من غير أرحام تربطهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور ، وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس ، « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » هذه هى الوحدة الاسلامية التى نريدها .

شكلها

١٢٤ ـ اننا نريد من الوحدة أن تتحقق معانى الأخوة ، والتعاون الاجتماعى والاقتصادى والحربى والسياسى ، والثقافى ، ولكن كيف تتحقق هذه الأمور ؟ أتتحقق باحياء الخلافة الاسلامية كما كانت فى عهد الراشدين ؟

ان ذلك هو الاجتماع الأمثل ، وخصوصا أنه قد وردت به الآثار ، وكان عليها الصحابة أجمعون • ولكن أيمكن الأخذ بها فى هذا العصر ، وأيمكن تحقق شروطها ، وهل من المصلحة بعد أن توزعت الأرض المسلمين ذلك التوزع أن تكون لهم دولة واحدة ، يرجع فيها الحكم الى امام هو أعظم الولاة ؟

ونقول فى الجواب عن هذا : اننا لا نرى أن تكون الوحدة قائمة على دولة واحدة لها حكومة مسيطرة على كل المسلمين • فان ذلك لا يمكن مع الوضع الهندسى للبلاد الاسلامية فى الأرض ، وخصوصا أن الأراضى الاسلامية ليست متصلة الأجزاء ، وأن الأقاليم كما ذكرنا عندما امتد اليها الفتح الاسلامى كانت لها شخصيتها والامام له السلطان عليها والتنظيم الكامل غير بعيد عنه ، ولكنه فى عماله وحكومته له استقلال ذاتى •

واننا اذا اتجهنا الى الوحدة الاسلامية ، فاننا نتجه الى أن تكون مناسبة للعصر ، ولا ننسى المبادىء الاسلامية ، فاننا اذا تأثرنا بروح العصر ، انما هو فى شكل الوحدة لا فى جوهرها ، فلسنا ممن يخضعون أحكام الاسلام لروح العصر ولكن الاسلام أمرنا بالقيام بحقائق مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها ، فنجتهد فى تعرف أقربها توصيلا لهذه الحقائق ، فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نسوغ لأى أحد أو نظام أن يتحكم فى أى حقيقة شرعية باسم أنها تناسب العصر أو لا تناسبه ، فحقائق الاسلام ثابتة مستقرة ولا يجوز التغيير فيها أو التبديل •

ان الوحدة التى نبتغيها لا تمس سلطان أى سلطان يقوم بالحق ، وينفذ

الأحكام الاسلامية فى جوهرها ولبها ولا تمس شكل الحكم فى أى اقليم اسلامى بالقدر الذى يجعل الوحدة أمرا قائما ثابتا ، ما دام يقيم العدل وينفذ الحق فى رعيته ولا يرهقهم من أمرهم عسرا ، فلكل اقليم أسلوب حكمه •

ان معنى الوحدة الاسلامية هى الذى نريده وهو غايتنا ، وهو أن نعتبر أنفسنا مهما تناءت الديار مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها فى أعماق أنفسنا ، وهى مبادىء الاسلام وشعائره ، وعبادته وعقيدته ، اذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة ، كما هو دين التوحيد الكامل الخالص من كل شرك •

ان الوحدة الاسلامية هى غايتنا • ويجب أن يتغياها كل مسلم ، ومن لم يؤمن بأن المسلمين أمة واحدة ، فقد عاند نصوص القرآن ودخل فى عداد الذين يشاقون الله ورسوله ، ولقد قال سبحانه : ((**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا**)) • لقد تفرقنا فى الماضى ، فأكلتنا ذئاب الأرض ، وأصابنا الذل ، ومزقنا شر ممزق ، واذا كانت العنصرية المقيتة قد فرقتنا ، فالقرآن الآن يجمعنا ، كما كان ينبغى أن يجمعنا من قبل ، واذا كان هوى الحكام وحب الغلب ضيعنا وضيعهم فى الماضى فانه يجب أن نجتمع فى ظل الاسلام ووحدته •

اننا كما قلنا لا نقصد بالوحدة دولة واحدة ولكن نريد أخوة شاملة ، واذا كانت الخلافة الكبرى يمكن أن تكون من غير أن يكون للمسلمين دولة واحدة ، بل تكون أقاليم مختلفة فى ظل اتحاد كامل ، فانه يمكن وجودها فى النظام الذى يتصور جامعا ، وذلك على أساس ألا يكون الاختيار مدى الحياة ، بل يكون على نوبات زمنية متبادلة ، وعلى أساس أن القرشية أو العربية ليست بشرط ، فقد علمت أن الحديث « الأئمة فى قريش » اخبار بأنباء المستقبل ، وليس تكليفيا ، وهو كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الامامة بعدى ثلاثون ، ثم تكون ملكا عضوضا » ثم قوله : « ان الأمر فى قريش ما استقاموا ، فان اعوجوا لحوا كما يلحى الشجر » أو كما قال النبى صلى الله عليه وسلم • وهكذا نحن لا نرى ذلك الشرط لا لأنه لا يتفق مع زماننا ، ولا لأنه لا يتلاقى مع المساواة العادلة التى نص عليها النبى صلى الله عليه

وسلم ، ولا لاضطراب الأنساب وجهلها ، وعدم معرفتها على وجه اليقين ، حتى ادعى القرشية بل الهاشمية من جعل لغير المسلمين عليه ولاية ، لا نبعد شرط القرشية لشيء من هذا ، ولكن نبعده لأن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه لا يدل دلالة قاطعة على أنه أمر تكليفى ، يجب الأخذ به ، وتجب مراعاته عند البيعة ، وتقديم الطاعة اذ أنه كما ذكرنا يحتمل أن يكون النص للتكليف ، ويحتمل أن يكون للاخبار ، وهو ما نرجحه ، واذا دخل الدليل الاحتمال بطل الاستدلال ، فلا دليل يلزم بالقرشية ، وخصوصا أنه قد وردت نصوص أخرى تدل على جواز أن تكون الامامة من غير قريش ، فكان عدم أخذنا بشرط القرشية ليس فيه رفض لأمر مقرر ، اذ لا يوجد أمر من النبى صلى الله عليه وسلم .

هذا وانا لا نجد أن الخلافة بعد الراشدين لم تكن محققة للوحدة الاسلامية لأنها صارت ملكية ، لا خلافة نبوية .

ان الوحدة الاسلامية يمكن تحقيقها من غير خلافة ، ولكن يمكن أن يكون للخلافة موضع فيها على أنها ليست الركن ، بل على أنها مظهر الوحدة .

وانه اذا تحققت الوحدة فى السياسة والحروب ، والاقتصاد فقد قامت الوحدة قوية منتجة مثمرة ، وتتحقق هذه العناصر بأن يكون أمر جامع وهو الجامعة الاسلامية .

الجامعة الإسلامية

١٢٥ — لقد نادى الامام جمال الدين الأفغـانى وصحبه الى الجامعـة الاسلامية ، ولم تذهب دعوته صرخة فى واد ، بل كانت منبهة للغافلين ، موقظة للنائمين ، واذا كانت الشعوب لم تستجب لها فى ابانهـا ، فلأنها كانت سابقة لأوانها ، وما يعيب صاحب الفكرة أن يكون سباقا ، وان لم يتحقق له ما يبغى وما يريد ، ما دامت الفكرة فى ذاتهـا صحيحة واجبة التنفيذ ، وتارك التنفيذ ملوم مقصر ، أو مغلوب معذور ، ولم يمنع تنفيذ تفكير الامام وصحبه الأكرمين ، الا جهل المسلمين ، وعدم ادراكهم مغبة استسلامهم للمستعمرين الذين كانوا لا يألونهم خبـالا فى دينهم ، وذات أمرهم ، وفوق ذلك كان العدو الأجنبى الصـليبى جاثما فوقهم ، لا يستطيعون أن يتصرفوا الا فيما يرضى عنـه ، ولا يرضى عن أن يكون جمع المسلمين حقيقة ، يتفقون فيما بينهم ولا يختلفون ، فانه فى الوقت الذى كان يصيح فيه جمال الدين الصيحات التى كانت تنفـذ الى القلوب كان رئيس أكبر دولة غير اسلامية تحكم المسلمين وتناوئهم ، يقف أمام نواب هذا البلد ، ويأخذ كتاب الله ، ويقول : ما دام هذا الكتاب فى الوجود فانه لا سلام .

والآن قد قبض الأجنبى يده ، وان كان كثيرون من الحكام يسـيرون فى ركاب بعض الدول غربا وشرقا ، ويصدرون عن أمرها ، فى شأنهم وشأن الرعايا المغلوبين بحكمهم .

ولكنا فى كتابتنا هذه نتجه الى الشعوب ذاتها . لقـد كانت الحجب من الحكام والأجانب تحول بين الامام جمال الدين والشعوب ، والآن يسوغ لنا أن نتجه الى الشعوب نواجهها بأمر دينها الذى ارتضته واتبعته ، وضاعت ، وأكلها أعداء الله تعالى وأعداء الاسلام يوم أن تركت أمورها الى حكام طغوا على الشعوب ، واستكانوا للهـوى أولا ، وشغلوا عن الشعوب ، واتجهـوا الى مرضاة الأقوياء ثانيا ، ثم استسلموا وذلوا وهانوا على الناس ثالثا ، ورضوا

بألقاب الملك والسلطان ، وكانوا الطاغمين الكاسنين . ان الشعوب هى التى يجب أن تنهض . ويجب أن يكون الحكام منهم ظاهرا وباطنا وقوة وايمانا ، ويكونوا على الأعداء لا على المؤمنين ، وأن يكونوا أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين .

واننا اذا قلنا الجامعة الاسلامية فاننا لا نريد جامعة الحكام أيا كانوا ، تتألف منهم كيفما كانوا ، وتصدر عن أمرهم سواء كان صـادرا عن الشعوب المؤمنة ، أم كان صادرا عن حكمهم الذى يتجافى مع ارادة الشعوب .

واذا كنا نريد لنا شعبية ، فاننا لا نبـاعد الحكام عنها مطلقا . انما نريد الحكام الذين يختارون من شعوبهم . ولسنا نبعـد الملوك أولا أو الأمراء . أو من يشبههم ، انما نريد الحكومات المقيدة بارادة الشعوب أيا كانت ملكية أم جمهورية ، فارادة الشعوب تتحقق فى الحكم الملكى . كما تتحقق فى الحكم الجمهورى ، فالوراثة الملكية لا تمنع من أن يكون الشعب هو الحاكم ، وأن يكون الوزراء ممثلين له ، غير خارجين عن أمره ، كما نرى فى الحكومة الانجليزية ، والبلجيكية والدول الاسكندنافية ، فان هذه الحكومات رؤساؤها ملوك يتوارثون فيها الملك خلفا عن سلف ولكن الشعوب هى التى تحكم ، وكما تقول القـاعدة القانونية الدستورية « الملك يملك ولا يحكم » .

اننا نريد من الحكومات الاسلامية أن تتمكن الشعوب من تحمل التبعة فى الحكم ، ولقد جربنا حكم الحكام منفردين عن الشعوب . اذ ليس عندهم فى الحكم ارادة فأدى الأمر الى الضياع ، والى الفرقة والانقسام . والى أن تتداعى علينا الأمم تداعى الأكلة على قصعتها فلم يبق لنا الا أن نترك الأمر للشعوب الاسلامية . وانها لرشيدة لن تضل ، وان ذلك حكم الاسلام اذ يقول الله تعـالى « **وأمرهم شورى بينهم** » ويقـول تعالى أيضـا مخاطبا نبيه : «**وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله** » ، ولقد جاء فى كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية :

« قد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة من النبى صلى الله عليه وسلم » وقـد قيل ان الله أمر بهـا نبيه ليتألف قلوب

أصحابه وليقتدى به من بعده ، وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحرب والأمور الجزائيـــة وغير ذلك ، فغيره صلى الله عليـــه وسلم أولى بالشورة ، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بذلك فى قوله تعالى : ((**وما عند الله خـــير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبـــائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضـــبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون**)) واذا استشارهم فان بين بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو اجماع المسلمين ، فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك وان كان عظيما فى الدين والدنيا . قال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**)) .

وان كان أمر قد تنازع فيه المسلمون ، ينبغى أن يستخرج من كل منهم رأيه ، فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عمل به كمـــا قال تعالى : ((**فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا**)) .

والتأويل فوق أنه قد يراد به تفسير الشريعة ومعرفة الأمر فيها يطلق على معرفة المـــآل ، كما قال تعالى : ((**هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قـــد خسروا أنفسهم ، وضـــل عنهم ما كانوا يفترون**)) .

والتأويل هنا المـــآل بلا ريب ، وان الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالشورى فى فهمهما وبناء المصالح الدنيوية عليهما من غير خلع للربقة ، ولا خروج عن الجادة المستقيمة ، ينتهى بالمسلمين الى أحسن مآل والى خير حال ، وانه بضدها تتميز الأشياء ، لقد جعلنا القرآن مهجورا وتركنا سنة النبى الله عليه وسلم وراء ظهورنا ، فالتقمتنا أفواه الشر . وتوزعنا الظالمون فى الأرض ، وصرنا فرصة المنتهزين ، يتسابق أعداء الله تعالى وأعداء الحق الينا ليستذلونا ، ونحن الأعزة بكتـــاب الله تعـــالى وبديننا ((**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**)) .

الشورى أساس الجامعة الإسلامية

١٢٦ — ان الجامعة الاسلامية يجب أن تبنى على الشورى ، لأنها الأصل فى كل أمر جامع للمسلمين ، لأن الحكم الاسلامى ، لا يقوم على أساس افنـاء الواحـد فى الجماعة ، بحيث لا يكون له رأى فى تكوينهـا ، وانما يقوم على أن الجماعة القوية هى التى تتكون من آحاد أقوياء ، فالبنـاء القوى لا يبنى الا من ابنات قوية صلبة ، تتماسك كل لبنة مع أختها ، حتى تقوم الدعائم قوية ثابتـة الأركان .

وان الشورى تربى الشعور بالعزة ، وتحمل التبعة ، وانه بالشورى يحس كل واحد بحق الجماعة عليه ، وحق الاسلام الذى أوجبه فى غير شطط ، ولا مجاوزة للحد ، ولقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » فالشورى كتب الله فيها التوفيق ، والاستبداد أيا كانت صورته كتب الله تعالى فيه اضعاف النفوس ، وفساد المـآل ، ولا يمكن أن ينهض الاستبداد بأمر لا تنهض به الشورى ، وان بدا نجاح الاستبداد فى أمر من الأمور فانه نجاح الى زوال ان لم تؤيده الشعوب مخلصة مؤمنة حرة فى التأييد ، وان المستبدين المخلصين ، وقليل ما هم ، ينتهون الى الرجوع الى الجماعات فى مآل أمرهم ، والا باؤوا بخسران مبين ، ولذلك يجب لتحقيق الأمر بشأن تحقيق الجامعة الاسلامية أن يكون الحكم فى كل اقليم اسلامى حرا تمام الحرية قد خلع سلطان الأجنبى فيه الشعب وحاكمه — يجب أن يكون الحكم فيه قائما على الشورى ، لا يستبد الحاكم بالمحكوم ، ولا تهمل ارادة الشـعوب ، لأن فى ذلك اذلالها ، ولا يعتز الاسـلام بذليل قط ، وان الاستبداد صـورة من صور الاسترقاق ، ولا يصح أن يسترق المؤمنون تحت حكم الاسلام ، ولا ندرى بأى سلطان يفرض الحاكم على المحكوم حكما لا يكون مستمدا من كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ان محمدا الذى كان يوحى اليه كان يستشير فى كل أمر لم ينزل به وحى ، وذلك كما قال ابن تيمية وغيره ليعلم الحكام من بعده أنه لا يستقيم أمر المسلمين الا بالشورى ، وليعلم كل انسان أنه ان استبد برأيه يخطىء وان أصاب وأصلح

فانه قـد أخطأ أيضـا ، لأنه بمقـدار استبداده يكون اذلاله للشـعب ، واذا ما ذل الشعب فانه يستسلم ، والاستسلام للحاكم سـبيل للاستسلام للأجنبى ، واذا كان المستبد عادلا فان الاستسلام له يؤدى الى الاستسلام للظالم ، ويكون من بعد ذلك الشر المستطير .

وان الاستبداد يمنع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما عماد الرأى العام الفاضل ، فالاستبداد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نقيضان لا يجتمعان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شريعة الاسلام ومذهب الجماعة الاسـلامية وخاصتها ، قال تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو أمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » .

وان الشورى ذاتها من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واذا لم تكن منه ،فهى ملازمة له ، لأن المشاورة استرشاد من الحاكم للمحكوم ، وهى من ضمن النصيحة لله ، ولأولى الأمر .

وان الذى فرق الأمة الاسلامية ذلك التفرق بعد أن جمعها النبى صلى الله عليه وسلم هو اهمال ارادة الشعوب فقد تململت القلوب ، واضطربت النفوس، فانصرفوا عن أن يرشدوا الحاكم ، لأن شعار المستبد الغاشم « من قال اتق الله قطعت عنقه » ، **وان الذين جعلوا** غير المسلمين يتوزعون الأرض الاسلامية بينهم هم الحكام المستبدون ، ولو راجعت أسباب سقوط الأقاليم الاسلامية فى أيدى غير المسلمين لوجدته استبداد حكامهم وتفرقهم مشاعر واحساسا وعـدم احساسهم بالوحدة الجامعة ، وهذا الثانى ثمرة الأولى ، فاذا شعر المسلم بأنه لا رأى له فى أمر بلده هانت عليه اذ قد استسلم للمستبد عادلا أو ظالما .

واننا ونحن نعمل على أن نجتمع اليوم يجب أن نتلافى عيوب المـاضى ، وان الجسم السليم لا يستعيد قوته الا اذا سلم من الأمراض التى أضعفته ونقى من الأدواء التى أرهقته ، وقد أرهق المسلمين الاستبداد ، فيجب أن يصلحوا بحكم القـرآن .

تنفيذ الأحكام الإسلامية قوام الجماعة

١٢٧ — ان الجامعة الاسلامية ليست اجتماع أبدان لقوم سموا المسلمين ، وانما هى اجتماع أقوام يدينون بدين واحد ، فالجامع بينهم دين ، ولا يعد الدين جامعا الا اذا تحقق فى ذات نفسه ، وقامت دعائمه ونفذت أحكامه فى خاصة الآحاد ، وذلك بالعبادات التهذيبية ، الصلاة والصوم ، وبالعبادات الاجتماعية الزكاة والحج ، والصدقات والنذور والكفارات ، وأحكام الأسرة التى تولى بيانها القرآن الكريم ، وفصل ما يحتاج منها لتفصيل النبى الأمين فقد تولى بيان أحكام الزواج والمحللات والمحرمات ، وحقوق الزوجين وأحكام الطلاق وأحواله وآثاره ، وأحكام الأولاد رضاعة ونفقة وغيرهما وبين النبى صلى الله عليه وسلم أحكام الأقارب وحقوقهم فى بيان يجمع بين التقنين والحكمة منه .

وبين القرآن الكريم أحكام الميراث ، ولم يترك فيها اجمالا الا قليلا بينته السنة النبوية الشريفة ، وهى كانت أحكام الأسرة كلها من القرآن الكريم مع بيان السنة النبوية الطاهرة ، لأن الأسرة قوام الجماعة ، والمجتمع القوى يبنى على أسس قوية ، ولذلك كانت عناية القرآن بالأسرة ، وتولى أحكامها القرآن ، وبينها أكثر مما بين العبادات ، لأن الله تعالى العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علما ، علم أن أحكام الأسرة فى الاسلام ستكون موضع المهاجمات ممن لا يرجون للاسلام وقارا .

ويسير ، مخالفين للدين ، أولئك الذين أشربوا حب المدنية الغربية ، وأرادوا أن يجعلوا الأسرة الاسلامية تحكم بأحكام الكنيسة التى منعت الطلاق ، ومنعت تعدد الزوجات .

وكان غريبا أن ينادى بعض المسيحيين أنه لا يمنع الأسرة الأوربية من الانحلال الا اباحة تعدد الزوجات ، واباحة الطلاق ، بينما يصك آذانهم ذلك النداء ، ويستجاب له هنالك نجد من المتفرنجين هنا من يلحون فى ضرورة تقييد تعدد الزوجات أو منعه ، وتقييد الطلاق أو منعه .

المعاملات :

١٢٨ — وفى المعاملات المدنية المـالية يجب أن يكون الاسلام هو الذى يحكم بالقرآن والسنة فأحكام العقود ، والحقوق والالتزامات يجب أن تسن تحت ظل القرآن ، فلا تكون العقود المحرمة فى القرآن والسنة ، فلا تباح العقود الربوية فى البيوع ، فربا البيوع حرام بالسـنة لما ورد فى كتب الصحاح ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد والبر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والتمر بالتمر ، مثلا بمثل يدا بيد ، والملح بالملح يدا بيد وفى رواية الشعير بدل الملح ، الى آخر ما ورد فى ذلك من أحاديث تؤكد هذا المعنى ، وبيان الفقهاء فى علة التحريم المطردة التى يبنى عليها القياس فى غيرها .

وربا البيوع هذا ثبت تحريمه بالسنة ، أما النوع الآخر من الربا وهو ربا الجاهلية ، وهو ربا الديون ، وهو الزيادة فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل . فان تحريمه ثبت فى القرآن الكريم وابتدأ تحريمه فى مكة ، فقد قال تعالى فى سورة الروم المكية : ((**وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئـك هم المضعفون**)) ونزل التحريم القاطع فى القرآن الكريم بعد الهجرة النبوية ، فقد قال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة**)) والربا هو الزيادة ، ولا شك أن تكرار الزيادة سنة بعد سنة يضاعفها أضعافا مضاعفة فالمضاعفة فى الزيادة لا فى أصل الدين كما فهم بعض الذين يأخذون بالألفاظ الظاهرة من غير تمحيص لمعناها . وتعرف دقيق لمبناها ، ولا محاولة لادراك الحكمة من تحريم الربا .

ولقد جاءت من بعد ذلك نصوص قاطعة فى التحريم ، قال تعالى : ((**الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا**

ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وأن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

هذا نص قرآنى قاطع فى تحريم ربا الديون ، وهو ربا الجاهلية ، وقد سئل الامام أحمد بن حنبل : ما الربا الذى لا يسع مسلما أن يجهله ، قال رضى الله تعالى عنه : أن تعطى الرجل دينا ، وتزيد فى الدين نظير الأجل ، ولكن ناسا ممن استهوتهم المدنية الأوروبية بعجرها وبجرها قد حسبوا أن نظام الفائدة يقوم عليه النظام الاقتصادى فى العالم ، فكيف نحرمه ، وينسى أولئك أن الاستعمار الاوربى كان يدخل وراء الربا ، وأن الربا نظام يهودى وأن الاستعمار يتخذه ذريعة لمآربه لدخول أى بلد اسلامى ، فمصر احتلت بالربا ، وبلاد أفريقيا كلها وبعض آسيا كان الربا فيها أحبولة الشيطان التى اصطاد بهـا ملوك المسلمين وحكامهم ، وقد يقول قائل المقلدين للفرنجة : كيف نتخلص من الربا ، وقد سال سيله ، وعم ، ونقول لهم : قد تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد روى الامام أحمد بن حنبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يأتى على الناس زمان يألون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال النبى الكريم : من ام يأكله ناله غباره » . وان ذلك من دلائل النبوة ، فان هـذا هو زماننا الذى ابتلينا به والذى تفرقنا فيه ، وأكلتنا ذئاب الأرض .

وأنه اذا كنا نحرم الربا فى كل صوره ، فانا أيضا نحرم القمار والميسر فى كل مظاهره ، فقد وجدنا عقود القمار التى تسمى التأمينات التى تعقد بين الآحاد والشركات تسير مع الربا جنبا لجنب ، وهو يلازمها ، فعقود التأمين على الحياة ، وعقود التأمين على البضائع من القمار ، وليس منه التأمينات الاجتماعية التى يتضافر فيها جماعة من الناس فى ظل الدولة ، أو بتنظيمها فى أن يكلفوا لكل من تهلك بضاعته ، أو تذهب نفسه ويترك عيالا ضياعا ، على أن يؤدى كل واحد جزءا من المـال بشكل رتيب شهرى أو سنوى ، وأن تكون الفائدة للمجموع تصرف من هذه المصارف ، والخسارة على المجموع ، فان ذلك تعاون ، والله تعالى يقول : « **تعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » .

وقـد يقول قائل : ان النظام الاجتماعى يقوم على الاقراض ، والاقتراض، ولا يتم ذلك الا بالفـائدة وان التأمينات بكل صـورها ضرورات اقتصادية ، ولا مناص منها ، فكيف تريد أن تهمل ذلك الجامعة الاسلامية اهمالا ، انها بذلك تهدم البناء الاجتماعى ، ولا يمكن أن تقوم مدنية بغيره اسلامية كانت أو غير اسلامية ، ونحن نقول فى الجواب عن ذلك : اننا نريد مدنية فاضلة تخلو من سحت الفائدة وسحت القمار معا ، وليس فيهما خير لا يمكن أن يتحقق من دونهما ، فاذا كان الشر ينتج خيرا ، فالخير لا ينتج الا خيرا وهو خير لا يشوبه شر .

واذا أريد نظام اسلامى ، فانا نقيمه على أساس التعـاون ، ومصارف الادخار التى يكون نظامها قائما على التعاون بين المقرض والمقترض ، بين المصرف ومن يعامله ، فان خسرا خسرا معا وان كسبا كسبا معا .

ويكون منه التأمين على البضائع ويكون القرض الحسن الذى لا فائدة فيه ، ولا ما يشبه الفائدة .

وأما التأمين على النفس فيكون بالتأمين الجماعى الذى هو التعاون على الصورة التى ذكرناها ، وفى الجملة نريد أن تكون الجامعة اسلامية فى نظامها ، وفى أحكامها وتأليفها .

الزواجر الاجتماعية :

١٢٩ — ونقصد بالزواجر الاجتماعية العقوبات التى تكون بجوار الجرائم ، ونقول فى ذلك :

لقد حـد الاسلام حدودا ووضع نظما للعقوبات ، وتولى القرآن الكريم بيانها ، وبيان نوعها ، ومقاديرها ، وأوجب على القائمين على الأمر تنفيذها .

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى القصاص ، وذكره على شريعة ثابتـة فى الديانات السماوية كلهـا ، وجعل ذلك علاجا للنفس البشرية التى من طبعهـا الحسد ، ويدفعها الحسد الى ارتكاب الجرائم ، والاعتداء ، وذكر قصة ابنى آدم

اذ قتل أحدهما أخاه لأنهما قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، ولنترك القول لبيان الله تعالى فى كتابه ، اذ يقول تعالت كلماته :

((واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، اذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال : انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك ، فتكون من أصحاب النـــار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين)) .

هذه جريمة ترتبت على الحسد ، وهى تدل على أن الحسد يدخل حتى فى ميدان التقرب ، وانك لترى أن أكثر الجرائم الانسانية تترتب على حســد فى النفس ، يترتب عليه حقد كمين يدفع الى الايذاء ، ولذا قال سبحانه بعد أن قص ذلك القصص الحكيم : **((من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون)) .**

ولقد قال سبحانه وتعالى : **((ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب)) .** وجاء النص بالقصاص فى الأطراف والجروح مع القصاص فى النفس ، فقال تعالى : **((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)) .**

ولقد نفذ النبى صلى الله عليه وسلم عقوبة القصاص فى الأطراف ، كما نفذ عقوبة القصاص فى النفس ، وكما قرر القرآن .

وان الاسلام يقرر أنه لا يذهب دم هدرا ، ولقد روى عن على كرم الله وجهه فى الجنة « لا يطل دم فى الاسلام » .

ولذلك شرع الاسلام نظام القسامة ، وهو أنه اذا قتل قتيل ، ولم يعرف قاتله حلف من أهل الحى أو القرية التى وجد فيها القتيل خمسون من أهل العدل والثقة ، يحلف كل واحد أنه ما قتله ، ولا يعلم له قاتلا ، فاذا حلفوا كانت الدية لأولياء المقتول ، يأخذونها من بيت المـال ، على أساس أنه واجب الدولة أن تحافظ على الدماء ، وما كان القتل الذى لا يعرف فيه القاتل الا بتقصير من الدولة ، فحق عليها أن تضمن دية من قصرت فى حماية أرواحهم وهم فى رعايتها ، أو من أهل الحى .

وأما أن تؤخـذ من أهل الحى فلأنه يجب عليهم أن يتعاونوا فى مقـاومة الجرائم ، ورعاية الأخيار ، والضرب على أيدى الأشرار ، وذلك من قبيل التعاون على البر والتقوى ، وكل تعاون على الفضيلة ومحاربة الرذيلة تعاون على البر والتقوى وهو مطلوب ، والسكوت عن هذا التعاون يكون اهمالا لأمر واجب الأداء، على أن كل مجرم أو قاتل يكون معروفا فى قريته أو الحى الذى يسكنه فى مدينة ، فلا يمكن عادة أن يجهله خمسون من العدول ، ويكون الجانى قد عرف من غير تجسس ولا تتبع للعورات ، ولا فتح باب للنميمة والسعاية والفساد .

الحـــدود :

١٣٠ ــ هذا بالنسبة للقصاص ، وهو العقوبات التى يكون الاعتداء فيها على حقوق العباد ، أو التى يكون فيها الاعتداء على حق للعباد غالبا .

وأما العقوبات التى تكون حقا لله فهى التى تسمى فى الاصطلاح الفقهى بالحدود ، والفرق بينها وبين القصاص أن القصاص قابل للعفو ، بل حبب اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى فى ختام آية القصـاص : ((**فمن تصدق به فهو كفارة له**)) وقوله تعالى : ((**فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان**)) أما الحدود فانه لا يجرى فيها العفو لأن ولى الأمر هو الذى يتولاها ، وهى حق لله سبحانه وتعالى ، ولأن اقامتها عبادة والعفو فيها يكون تخليا عن العبادة ، واقامتها قيـام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

فجرائم الحدود منكرات ، وانكار العقوبة عليها اثم • وقد وضع الله تعالى هذه العقوبات ، فلا يجوز لوال أو امام أن يتخلى عن القيام بها ، وهذه الحدود محاربة للرذائل ، ومحاربة الرذائل واجبة على أولى الأمر فى المسلمين ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ؛ فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » ولا شك أن ولى الأمر هو أقدر الناس على التغيير بيده •

والتغيير باليد له صورتان : الصورة الأولى المنع من الفعل عند الهم به ، وأخذ السبيل اليه ، وذلك عمل والى الحسبة ، فهو لمنع وقوع الجرائم قبل وقوعها ، فاذا وقعت أخذ بصاحبها الى القضاء لينفذ حكم الله تعالى فيه •

والصورة الثانية أن يحكم عليه بالحد الذى وضعه القرآن الكريم ، وبينته السنة النبوية ، وهو العقوبة التى قررها القرآن لتكون حدا بين الفضيلة والرذيلة، وبين الصلاح والفساد ، وقد طالب النبى صلى الله عليه وسلم باقامة الحد اذا ظهرت الجريمة من غير تجسس ، ولا فتح باب للسعاية والنميمة ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

« يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » •

وان الحدود هى حمى الله تعالى ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه •

اننا لن نكون أمة اسلامية الا اذا أقمنا حدود الله ، ويجب أن تكون سياسة الجامعة الاسلامية فى محاربة الفساد ، قائمة على تنفيذ هذه الحدود التى لا مناص من تنفيذها ، ولا سبيل لتركها وراءنا ظهريا ، كما هو الحال الآن ، الا أن بعض الأقاليم الاسلامية تقول انها تقيم الحدود ، وتنفذ الأحكام الشرعية جملة وتفصيلا ، وان صح أن هذا الاقليم أو غيره يقيم الحدود وينفذ الشرع فيما يتعلق بها ، فانا نرجو أن يكون ذلك حكما عاما ، لا هوادة فيه ، لأننا اذا لم

نقم الحدود لم يكن مجتمعنا اسلاميا ، ولا تتكون قط جامعة اســلامية ، لأن الجامعة كيان معنوى ، وليست تجمعا ماديا ، والاجتماع المعنوى يجب أن تقوم فيه الرابطة المعنوية وهى الدين ، وأحكامه المستمدة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والحدود كالقصاص ثابتة بالنصوص ولا مصدر لها الا الكتاب ، تعرض لهــا القرآن جميعا ، وعين العقوبات فى أكثرها ، وحددت السنة الباقى ، وكان أصل تحريم الجرائم فى القرآن ، فالسنة النبوية بينت أثر الجريمة ، وما يرتبه الشارع عليها فى الدنيا •

١٣١ ــ والحـــدود التى نص القرآن على عقوبتها حــد الحرابة أو قطع الطريق ، وحد السرقة ، وحد الزنى ، وحـــد القــذف ، واللعان ان عد حدا ، والبغى •

والحدود التى بينتها السنة حد شرب الخمر ، وحد الردة •

وحد الحرابة ثبت بقوله تعالى : ((**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عــذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم**)) •

وهذا الحد للذين ينتقضون على النظام العام فى الداخل ، ويخرجون بقوة ليغتصبوا من النـــاس أموالهم ، ويقتلوا حيث يكونون فى مأمن من أن يغيث فريستهم مغيث ، ويسمون (قطاع الطريق) وتكون لهم قوة فى افسادهم ، وأكثر الفقهاء يحصرون المجرمين الذين يعاملون هذه المعاملة فيمن يخرجون الأخذ المال سرقة أو اغتصابا ، أو يقتلون الأنفس فى جمع قوى ، يغالبون به قوى الدولة ويعمم الامام مالك جرائم هؤلاء المجرمين فيشمل اسم الحرابة ، من يجتمعون فى قوة لهتك الأعراض أو الاتجار فيها وفى المخدرات ، وانهم يشبهون فى الجملة العصابات الأمريكية التى تضيق الدولة الأمريكية بقضها وقضيضها بهم ، وقد عالجهم الاسلام بتلك العقوبات القاسية التى تجعلهم عبرة المعتبرين •

نعم انها عقوبات قاسية ، ولكنها زاجرة رادعة ، وهى تتكافأ مع جرائمهم لأنهم يقضون أمن الدولة ، وفريستهم الوادعين الذين لا حول لهم ولا قوة ، ومع وجودهم لا أمن ولا سلام ، ولا تستطيع الدولة تمكين الناس من أن يعيشوا فى سلام فى حلهم وترحالهم • والحد الثانى وهو السرقة ثبت بقوله تعالى : **« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم »** •

وان العقوبة بلا شك قاسية ، ولكن يلاحظ أنها فيمن يعتادون السرقات بدليل سقوط العقاب بالتوبة على ما فهم من اقتران التوبة بالعقاب أحمد بن حنبل وبعض الشافعية ، وروى منسوبا للشافعى ، وهو ما نميل اليه ، ويلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، واننا لو أحصينا ما اتفق عليه الأئمة من الفقهاء ، لوجدنا أنه لا يبلغ نصف العشر من السارقين ، ولكن قطع يد واحدة فى اقليم يكفى لردع السارقين • وتقليل هذه الجريمة الى حد ألا تكاد تكون ، واعتبر ذلك بحال الحجاز الذى يطبق فيه هذا الحد •

والحد الثالث حد الزنى ، وقد ثبت بقوله تعالى : **« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين • الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين »** •

وان العقوبات التى قررها الله سبحانه وتعالى فى ذلك الحد ، انما هى ليكون المجتمع فاضلا ، وليعيش فى ظل الفضيلة وليحفظ النسل ، ولكيلا تفسد الأنساب ، ولكيلا تعم الرذائل •

والكلام فى ذلك مفصل فى الكتب التى بينت هذا [1] •

---

(1) باب الحدود فى كتاب الجريمة والعقوبة للامام محمد أبو زهرة — الناشر دار الفكر العربى •

والحد الرابع حد القـذف ، وقد ثبت بقوله تعـالى : ((**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الا الذين تابوا من بعـد ذلك وأصلحوا ، فان الله غفور رحيم**)) وان هذا جاء عقب بيان حد الزانى ، وذلك ليحمى المجتمع من الترامى بالفحشاء ، ورمى المحصنات الغافلات بالفاحشة ، واذا شاع ذلك فسد المجتمع ، وهانت الرذيلة على النفوس ، فأقدم عليها من كان يتصون عنها ، ولقد جاء فى القرآن فى سياق بيان الافك ، الذى أفك به على أم المؤمنين عائشة ((**ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعـلم وأنتم لا تعلمون**)) ويقـول سبحانه وتعـالى فى هذا السياق أيضا : ((**ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة**)) [1] .

وان الذين يرجون الفسق فى أزمان الانحراف يتخذون من القذف ذريعـة لمآربهم ، وأنه حيثمـا انتشر الزنا فى أمة ، أو اسـتهان الناس بأمره لازمه الترامى به ، وفسد الجو ، وكان الرأى العام فاسدا مرذولا ، ولم يكن فاضلا مقبولا ، وان الرأى العام الفاضل يهذب النفوس ، والرأى العام الفاسد يحيى الرذائل ، ويحرض عليها ، ويستغل الناس فيه داعى الخير ، ثم يستحق اللعنة التى ذكرها الله تعالى لبنى اسرائيل ، اذ قال تعالت كلماته : ((**لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون**)) .

والحد الخامس عند من اعتبره حدا اللعان ، وقد جاء كشعبة من القذف ، فحد القذف يكون اذا رمى بالزنى امرأة ليست زوجته ، أما اللعان فيكون اذا رمى زوجته ، ويقول فيـه سبحانه : ((**والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصـادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين**)) .

---

(١) كتاب الجريمة والعقوبة . للامام أبى زهرة .

هذا هو اللعـان ، واذا تحالفا ، فرق بينهما تفريقـا أبديا الا أن يكذب نفسه ، وبعض الفقهاء قال : لا يعودان ، ولو كذب نفسه ، لأن الثقة بين الزوجين قد فقدت ، والعلاقة الزوجية قائمة على الثقة والمودة ، ولا يمكن أن تتحقق المودة الا مع الثقة ((**وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته**)) [1] •

حـد البغى :

وهذه حدود خمسة قد ثبتت بالقرآن ، وقريب منها فى الثبوت حد البغى ، وهو يهمنا فى بحثنـا بالنسبة للجامعة العربيـة ، وقد ثبتت جريمة البغى فى قوله تعـالى : ((**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقـاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون**)) •

ويجب أن نقف عند هذه الآية وقفة قصيرة وننبه فى هذه الوقفة الى أمرين :

أحدهما ـ أن الفقهاء يفرقون بين البغاة ، وقطاع الطريق أو أهل الحرابة أن أهل الحرابة يريدون الفساد لذات الفساد ، من غير أن يعتمدوا فى خروجهم على تأويل دينى ، وهم لا يريدون السلطان ، انما يريدون السلب والنهب والقتل فهم مجرمون ، وقد وجد فيهم الاتفاق الجنائى •

أما البغاة فانهم يخرجون بتأويل ، ولا يريدون القتل والسلب ، وانتهاك الحرمات ، وانما يريدون أن يجعلوا لأنفسهم سلطانا ، وقد يخرجون باجتهاد وقد يخرجون طالبين السلطان ، وقد نص القرآن على ذلك وهو أنه على جماعة المسلمين فرض كفاية أن يصلحوا بينهم ، فان عجز أهل الرأى من الجماعة عن الاصلاح فانه يكون على الجماعة ممثلة فى قوتها أن تقاتل البغاة لأن خروجهم يكون فتنة ، والفتنة تقمع بالسيف •

---

(١) المرجع السابق •

الأمر الثانى ـــ أن هذا النص الكريم يرشدنا الى ما يجب أن تتبعه الجامعة الاسلامية بالنسبة للذين يبغون على طائفة من المؤمنين بغـــير الحق ، فان هذا البغى يكون موجها الى احدى الطائفتين ابتداء ، وهو فى نهايته يكون موجها الى الجامعة الاسلامية كلها .

ولذلك يكون عليها أن تبتدىء بالاصلاح بين الطائفتين ، فان استمر البغى ، أو تبين بغى احداهما ، فان على الجامعة أن تقاتل الباغية حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت ، فان على الجماعة من بعـــد ذلك أن تعمل على جمع القـــلوب التى تنافرت ، والنفوس التى تدابرت وذلك بالتأليف والتقريب ، ولذلك قال سبحانه وتعـــالى : « **فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين** » .

وان النتيجة المؤكدة لذلك أن يكون للجامعة الاسلامية قوة رادعة ، ترد بغى الباغى وتنصف المظلوم وتمنع التقاتل بين المسلمين بعضهم مع بعض ، لكى يتحقق نص الآية ، ويتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » وقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يحقره ، ولا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله ، ومن كان فى عون أخيه كان الله تعالى فى عونه » .

١٣٢ ـــ وهناك حدان آخران ثبت مقدارهما بالسنة ، ولكن أصل التحريم الذى هو أساس التجريم قد ثبت بالقرآن وهما حد الشرب وحد الردة فشرب الخمر ثبت تحريمه القاطع الذى لا مجال للريب فيه بالقرآن اذ يقول سبحانه تعالت كلماته : « **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البـــلاغ المبين** » . فهذا النص قاطع فى التحريم ، وقد تولى النبى صلى الله عليه وسلم بيان مقدار الحد ونوعه ، فقد روى أنه ضرب شاربا أربعين نعلا ، فقدره بعض الفقهاء بثمانين ضربة ، لأن النعل جزءان ، وقدره

بعض الفقهاء بأربعين على حسب ظاهر اللفظ ، ورأى على بن أبى طالب أن يكون ثمانين جلدة ، آخذا من ذلك النص ، ومن اجتهاد فقهى ، فقال انه اذا شرب هذى واذا هذى افترى ، وحد الافتراء (أى حد القذف) ثمانون — فحد الشرب بهذا القياس العلوى ثمانون •

ولقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى شارب الخمر « اذا شرب فاضربوه ، فاذا عاد فاجلدوه ، فاذا عاد فاقتلوه » •

وقد روى أن بعض المسلمين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « اننا نعيش بأرض برد . ونستدفىء بالخمر أفنشرب ؟ • قال صلى الله عليه وسلم : لا ، قالوا: انهم لا يطيعون ، فقال عليه السلام : فقاتلوهم » •

وفى الحديث الأول نراه صلى الله عليه وسلم تدرج فى العقاب ، فجعل عقاب أول مرة بالضرب • فاذا عاد كان الجلد ، فاذا عاد الثالثة كان القتل ، لأن ذلك جحود بالتحريم فأشبه الردة •

وفى الحديث الثانى كان قتالهم لأنهم يجحدون ، ويحادون أمر الله وطاعة الرسول •

١٣٣ — الردة هى الخروج عن الاسلام ، والاسلام لا يكره الناس على الدخول فيه ، فالقرآن الكريم ينفى الاكراه فى الدين ، وينهى عنه ، فقد قال تعالى : ((**لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**)) ويقول تعالى مخاطبا نبيه : ((**انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء**)) ، ويقول سبحانه : ((**أفأنت تكره الناس ، حتى يكونوا مؤمنين**)) •

ولكن من دخل فى الاسلام لا يخرج ، لأنه لا يمكن أن يكون قد دخل بنيته مخلصا ثم يخرج ، انما الذى يدخل ثم يخرج ، هو من يظهر الاسلام ثم يخرج منه توهينا لشأنه ، ولايهام الناس بأنه لا يتبعه لأن الحق فى غيره ، وقد حدث فى صدر الاسلام يوم أن صارت كلمة الله تعالى هى العليا ، وصار هذا الدين

الكريم دين أهل القوة والغلبة أن دخل الناس فيه أفواجا ، ومنهم من دخل ، وقلبه مطمئن بالايمان ، ومن دخل اتباعا للقوة رغبا ورهبا ، ومنهم من دخل فى الاسلام ليفسده على أهله ، فكانت حماية العقيدة ، وحماية الاخلاص فى ضنيه توجبان أن يدخل حرا ، وتوجبان أن توصد الأبواب على من اختار الضلال على الهدى ، والنفاق على الايمان ، فكانت العقوبة الشديدة الرادعة التى تحمل من يريد الدخول فى الاسلام على أن يدخل مؤمنا • وكان عليه أن يقدر الخروج قبل الدخول •

لذلك كان العقاب الشديد الرادع الزاجر ، وهو القتل للرجل ، والحبس حتى تتوب للمرأة •

وكانت شرعية هذا العقاب بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من بدل دينه فاقتلوه » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم الا فى احدى ثلاث : نفس بنفس ، وزنية ثيب ، وردة بعد ايمان » • وقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، بل اشتركوا معه وعاونوه ، وردوا الردة فى كل أنواعها •

قد يقول قائل : ان ذلك لغرض الطاعة ، وانهم قد خرجوا على الدولة ، فحق عليهم أن يحملهم على الدخول فى الطاعة ولزوم الجماعة ، ولذلك قال لهم : « اما سلم مخزية ، واما حرب مجلية » •

وذلك حق لا ريب فيه ، وكما أنه يدل على ذلك يدل أيضا على أن القانون النظامى للدولة الاسلامية الذى يعد أساسا لقيامها هو الاسلام ، وهو الرابطة الوثيقة التى تربط أجزاءها آحادا وأقاليم ، وكل دولة تعد الخارج على قانونها المنظم لها خائنا أو خارجا ، فيحل قتله •

والاسلام فى قتله المرتد لا يخرج عن ذلك •

وأولئك الذين يقولون ان قتل المرتد ضد حرية الدين نقول لهم غير مترددين : ان قتل المرتد بعد استتابته هو من قبيل حرية التدين ، وأن

تكون حرية سليمة قائمة على ادراك الحقائق ، انها لمنع التلاعب بالأديان واتخاذها هزوا ولعبـا ، مما يؤدى الى اضطراب فى تطبيق القـوانين ، واضـطراب فى الأسرة ٠

واعتبر ذلك بحال البلاد التى أهملت عقوبة الردة ، فقد صارت الأمور الى فوضى ، يريد رجل أن يترك امرأته ٠ فيدخل فى الاسلام لأنه يبيح الطلاق ثم يطلقها وهو ما دخل الاسلام حقيقة ، وانما أعلن ذلك ليقضى لبانته ، وقد ضج المتدينون من ذلك ٠

ولو كانت العقوبة الاسلامية تطبق ماظهر ذلك الفساد ، ولا اضطربت الأحوال ذلك الاضطراب وما اتخذت الأديان هزوا ولعبا ، وقد اقترحنا علاجا لهذا الفساد أن توضع عقوبة أيا كانت ، وان كنا نرى أن عقوبة الاسلام هى الأردع والأمثل ٠

أحكام القرآن والسنة تعم البلاد الاسلامية :

١٣٤ ــ ان الأحكام الثابتـة بالقرآن والسـنة ، سواء أكانت لتنظيم العلاقات بين الناس ، أم كانت للزواجر الاجتماعية واجبـة ، فكل حكم ثابت بالقرآن أو السنة يجب أن يكون فى ضمن النظام العام الذى لا يختلف فيـه اقليم عن اقليم ، فلا يصح أن يحرم اقليم الربا ، ويبيحه اقليم آخر ، فانه حينئذ لا تكون جامعة اسلامية لأن أساس الجامعة الاسلامية هو تنفيذ أحكام الاسلام مجتمعين لا متفرقين ، والا كانت الفرقة أشد وأقوى ، لأن مؤداه أن بعض الشعوب الاســلامية تكون مستبيحة ما حرم الله ٠ والأخرى طائعـة ولا اجتماع بين عاص للاسلام وطائع له ، وان الذين غلبوا على ديارنا من الفرنجة وغيرهم هم الذين سهلوا لأبنائنا الخروج على المبادىء الاسلامية ليلتهمونا ، وليفرقوا ديننا ، ويفسدوا أمرنا ، وما جمعه الله تعالى لا يقبل التفريق وما فرقه أعداء الدين لا يقبل التصديق ٠

هذا بالنسبة للأحكام التى تثبت بالكتاب والسنة ، فانه لا مراء فى عموم تطبيقها ٠

انما الذى قد يكون الحكم فيه فى اقليم غيره فى اقليم ، فهو فيما وراء الكتاب والسنة من اجتهاد فى أبواب التعزير ، وما تقوم عليه المصالح فى المعاملات ، فان كل اقليم أدرى بمصالحه ، بشرط ألا يخرج عن نص شرعى ، أو يخالف ما علم من الدين بالضرورة وما انعقد عليه اجماع المسلمين مما حرمه الدين أو أباحه ونص على أنه حلال • فما جاء النص بأنه حلال لا مجال لتحريمه ، حتى لا يقع فى النهى ، فى قوله تعالى : **« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب »** •

١٣٥ — ومن الناس من يثيرون اعتراضا تحت تأثير الأفكار الأوروبية التى تهاجم الاسلام ، فيقولون ان الضمير العالمى ، لا يقبل تشويه الأجسام بقطع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو بصلب الجناة ، فان ذلك تعذيب للبشر ، وهكذا •• يرحمون الجناة ، ولا يرحمون فريستهم ، ولقد رد عليهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « من لا يرحم لا يرحم » ورد الله تعالى عليهم فى جلد الزناة ، بقوله تعالى : **« ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »** •

ونقول ما هذا الضمير العالمى ؟ أهو الضمير الذى أباح سفك دماء الأبرياء ، أم هو الضمير الذى سوغ اخراج المؤمنين من ديارهم وأموالهم يأكلهم العرى والجوع ، وأن لا مأوى لهم، انه لا يوجد ضمير عالمى يستنكر المنكر ، ويقر العدل ويمنع الظلم ، انما هو قانون الغابة الذى لا يرعى الا ولا ذمة ، ولا خلقا ولا فضيلة •

وان قطع الأيدى لا يوجد تشويها بل يمنع الجريمة ، وكم من أيد قطعها السراق ليأخذوا حليها ، وكم جريمة قتل وقعت فى السرقات باكراه ، وكم أجسام شوهت فى سبيل اكمال جريمة ، ان كل ذلك يقع بسبب جريمة السرقة ، فهل تشويه الأجسام يباح للمجرمين ، ويحرم على العادلين الذين يريدون أن يمنعوا الفساد ؟

وأولئك الذين يستكثرون عقوبة الحرابة للعصابات نسألهم : كم انتهكت

العصابات المحرمات فى المدن الأمريكية الكبرى ، حتى أن قائل الأمريكان يقول ان بعض العصابات لها ميزان من المال يبلغ فى مداره موازنة الولاية التى تعيش فيها تلك العصابة ٠

اننا فى هذا المقام ننصح أمريكا أن تأخذ بحكم القرآن ، فان تنفيذه فى واحدة منها يقضى على جميعها ، ولكنهم تعودوا أن يدافعوا عن الجريمة ، ولا يرتضوا الفضيلة ، ولو كانت علاجا لداء عندهم ، كشأن كل من استمرأ الشر واستطابه ، فانه لا يذوق الخير ولا يستطيبه ٠

اننا ضعفنا واستخذينا عندما كنا نسترضى أعداءنا على حساب الدين والقرآن ٠ فصرنا نهبا مقسوما ، يتقاسمنا الأعداء وتنوشنا ذئابهم ٠

ألا فلنرجع لديننا ، ولا يصح أن تكون جامعة الاسلام مستمدة للأحكام من غير الاسلام ، ولا تستمد الأحكام من الاسلام ، اذا جعلنا القرآن مهجورا واذا كان قائلهم يقول « اذا كان القرآن فى الأرض فلا سلام » ٠ فنحن نقول مقالة القرآن : ما دام القرآن قائما يطاع فى حكمه فالسلام يقوم ، ولا استسلام فى الأرض انما نصر الضعفاء ، ودفع الظلم ، وسيادة الفضيلة ، ونقول للذين يريدون ارضاء أعداء الاسلام باسم الضمير العالمى ، وخشية ملام الناس نقول لهم : أتخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ، توبوا الى الله ، وساهموا فى بناء الوحدة الاسلامية ، ولا تكونوا معاول هدم فى بنيانها ، وتعاونوا أعداء الله وأعداء الحق فى تقويضها ، كما كانوا ، وكما هم كائنون ٠

١٣٦ ــ وقد يقول قائل : اننا اذا جمعنا الأقاليم الاسلامية فى ظل القرآن والسنة ، فبأى المذاهب تكون الجامعة ، وما القانون المسطور الذى تنفذ أحكامه ؟ ان الناس الآن لا يخضعون الا لقانون مسطور ، فليس لدى كل انسان من عامة الناس القدرة على فهم نصوص القرآن ٠ وجمع المرويات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ذلك اجتهاد ولا بد أن يكون الاجتهاد لأهله من أهل العلم بالقرآن واللغة والسنة ، ومن لهم قدرة على الفهم والاستنباط ، وليس ذلك متوافرا الا للخاصة من أهل الذكر ، ولقد كان منذ عصر الصحابة

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيهم المجتهد الذى يفتى كعلى بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وفيهم المستفتى الذى ليس عنده دراية هؤلاء .

فما السبيل الى قانون مسطور ، وما المذهب الذى يختار ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك أنه قد قدمت بحوث كانت فيها دعوة لأن تكون الشريعة الاسلامية أساسا للقوانين فى البلاد الاسلامية . فما نقوله الآن ليس بدعا من الفكر ، ولا بديئا من القول نقوله ، ولكنا فيه متبعون ، ونحن ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وقد دعا الى هذا الأمر مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية فى انعقادين من انعقاده .

وقد حرك ذلك مجمع البحوث . لاتخاذ الأهبة . فألف لجنة لتقنين الشريعة ووضعها فى قانون مسطور .

وقد سنت لنفسها منهاجا مستقيما قويما .

(أ) جعلت لكل مذهب لجنة فرعية ، مؤلفة من رجال الفقه والقانون فرجال الفقه : يجمعون الأحكام فى المذاهب ، ورجال القانون يضعون الأحكام فى الصيغة القانونية ، وذلك لدربتهم على هذا .

فاخترنا لجنة فرعية لمذهب أبى حنيفة وثانية لمذهب مالك ، وثالثة لمذهب الشافعى ، ورابعة لمذهب أحمد بن حنبل ، وخامسة للشيعة الامامية والزيدية والظاهرية والاباضية .

وان هذه اللجان تسير فى طريقها قدما ، فى عزيمة ناهضة ، وقلوب مؤمنة مخلصة . وان هذه اللجان الفرعية سارت فى عملها ، تكلؤها عناية الله .

هذا ويلاحظ أن الأحكام التى دلت عليها النصوص القرآنية لا اختلاف فيها . واذا كان اختلاف ففى دلالة بعض الألفاظ التى تحتمل عدة معان ،

والقرآن حمال وجوه كلها حق ، وكلها خير ، ولا حيرة فيها ، ولا ما يشـــبه الحيرة • وأحكام الأحاديث فيما يتعلق بالعبادات الاختلاف فيها جزئى وقليل جدا ، وهو فى بعض التفريعات . ولا يكون فى أمر جوهرى قط ، انما هو فى بعض السنن فى الأركان ، وبعض النوافل •

وان السير فى طريق الجمع ليس بعسير ، بل هو تأليف بين مؤتلف ، وليس جمعا لأمر مختلف ، والله يوفق العاملين للوحدة الاسلامية المقدسة •

الثقافة في الجامعة الإسلامية

١٣٧ — انه لا تتحقق الوحدة الاسـلامية الجامعة الا بتوجيـه النفس الاسلامية الى اتجاه واحد • وقد بينا ذلك فى وحدة العقيدة ، ووحدة الحكم الاسلامى المأخوذ من القرآن والسنة ، بأن يكون الجميع خاضعين لحكمهما كما قال عليه الصلاة والسلام : « تركت لكم ما ان أخذتم به لا تضلون من بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » ، فذلك هو لب الاجتماع وبغيره لا تكون جامعة اسلامية ، وسمها ما شئت من غير أن تكون جامعة اسلامية ، بل سمها ، جامعة شرقية ، أو جامعة عربية ،لا تفلح جامعة من غير أن يكون الاسلام هو العروة التى تربطها والجانب الذى يركن اليه ، فالأحكام المقررة فى الاسلام هى عماد الجمع ، ودعامته •

ان الوحدة الثقافية تتضمن وحدة التفكير بين الأقاليم الاسلامية •

وفى الحق أن أصل هذه الوحدة ثابت فى الجملة ، ولكنه موثق بأفكار غريبة عند بعض المثقفين فى الأقاليم الاسـلامية على مقدار تأثرهم بأفكار الغرب اذ يخلطونها بالعقائد ، وانه يجب أن نقرر هنا أنه لا يوجد وحدة بين آحاد أهل دين ، أو أهل مذهب اقتصادى أو اجتماعى كما يوجد بين عامة المسلمين واخوانهم المؤمنين بشريعة القرآن • ولقد قدر لى وأنا فى الندوة الاسلامية التى انعقدت فى لاهور فى آخر ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، وأول يناير سنة ١٩٥٨ أن ألتقى بالوفود التى نزحت من البلاد الاسلامية على اختلاف الطوائف فيها فما وجدت ثغرة فكرية تحول بينى وبينهم • لا فرق فى ذلك بين جماعى وشيعى ، ولا بين صينى وروسى وتركى •

واذا كانت هناك فواصل بين أحد من الحاضرين ، فانها كانت بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمون بأسماء اسلامية ، كرجل كان يهدم أحكام آية المواريث ، ويدعى أنها وقتية ، وأمثاله ممن نبذ المؤتمرون كلامهم ، كما كان ينبذ الشواذ فى صحراء الجاهلية • وان السبب فى ذلك الاتحاد الفكرى أو تقاربه

هو وحده المصدر وهى نصوص القرآن ، وأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وان كان ثمة اختلاف فى طريق روايتها لا فى أصلها •

ونقول انهم يتفقون فكريا فى هذا الأصل ، ولكن الأكثرين مع الأسف عند العمل يتجانفون لاثم فلا يعملون بأحكام القرآن والسنة مع الايمان بأنهما الأصل ، ونريد أن يقترن الفكر بالعمل ، فلا تكون الثقـافة واحدة ، والعمل غير واحد •

ان وجود أصل الوحدة فى الثقافة الاسلامية أمر ثابت لا مجال للريب فيه ، فنواة الوحدة الثقافية الاسلامية والنفسية ثابت فى كل البلاد الاسلامية مهما تختلف فيها الطوائف والمذاهب • انما الأمر الذى نريده هو العمل على انماء هذه الوحدة ، وايجاد مجتمع فكرى موحد يبنى دعائم الاسلام ويقف حاجزا دون النزعات المنحرفة التى يحاول الأجنبى وصـنائعه أن تتغلغل فى نفوس المسلمين ، وبث الريب فى الحقائق الاسلامية ، ويحارب الذين اصطفاهم أعداء الاسلام ، ليحلوا عراه •

واننا فى هذا السبيل نتجه الى أمور :

جمع التراث الاســلامى :

١٣٨ ــ يجب جمع تراث الماضى فى كل البلاد الاسلامية ، لا فرق فى ذلك بين ما تركه فقهاء الأمصـار ، وما تركه علماء الشيعة الامامية والزيدية ، بله الاسماعيلية من مذاهب وآراء ، من فروع وأصول العقيدة مما لا يؤثر فى أصل التوحيد الذى هو ركن االعقيـدة الاسلامية مع شهادة أن محمدا رسول الله •

ان ذلك هو تراثنا جميعا لا تراث طائفة واحدة منا ، واذا كان الأوروبيون الذين لا يؤمنون بالاسلام يتجهون الى المذاهب يدرسونها ، فنحن أهلها أولى بها وبعلمها •

وقد يقول قائل : « ان فى بعض هذه المنقولات ، ما يتجافى عن بعض المقررات الاسلامية الثابتة » •

ونقول فى الجواب عن ذلك ان اعلانها قد يكون سبيلا للقضاء عليها لأن النور يميت ما لا ينمو الا فى الظلام ، وانها تحمل فى نفسها أحيانا كثيرة دليل بطلانها ، وبذلك يمتنع الناس من اعتناقها والأخذ بهـا ، وان على المؤمنـين مجتمعين أن يهـدوا الضـال ، لا أن يتركوه فى غيهب من الخطـأ لا يجـد فيه رشادا •

وان أكثر هؤلاء لم يصنعهم أجنبى ، وأصـل الاخلاص ثابت فيهم ، وكثيرون منهم طلاب حق فعلينا أن نبين الطريق الى النور وخطؤهم لا يمنع أن يكونوا معنا ، ولقد قال الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه فى الجنة « ليس من طلب الحق فأخطأه ــ كمن طلب الباطل فأصابه » •

ومهما يكن فى بعض الآراء من مخالفة للمنقول والمعقول فهو من التركة التى نقوم عليها ، ولا نهمل التركة ، لأن فيها بعض الزيوف ، بل يجب أن نفحصها فحص الصيرفى ليستبعد زيفها ، ويحفظ جيدها •

واننا بهذه الدراسة للتركة الاسلامية الثرية من غير محاولة لتفضيل طائفة على أخرى نحقق مقاصد ثلاثة :

١ ــ وصل ماضى الأمة بحاضرها ، فان كل حضارة لها اطار من الأفكار والموروثات تصل ما بين الحاضر والغابر ، وان تقدم هذه الأمة يجب أن يكون متصلا بتاريخها ، كما قال الامام جمال الدين الأفغانى حكيم الاسلام ، وأول داع الى الوحدة الاسـلامية فى عصرنا ، وباعث الوعى الفكرى فى كل بلاد الاسلام •

٢ ــ وألا يكون العـالم الاسلامى منحازا فى جانب من جوانبه ، بحيث لا يتجه الى الجانب الآخر ، ولا يتعرف ما فيه ، فتلك عصبية مذهبية أو طائفية تلتقى مع العصبية الجاهلية فى نتائجها وثمراتها ، وان خالفت فى منبعها وأسبابها ، فتلك نعرة جنسية نسبية ، وهذا انحراف فكرى وتعصب مذهبى •

٣ — أن تتقارب الطوائف الاسلامية ، فان دراسة التراث الاسلامى كله من غير تجزئة ، بحيث تدرس كل طائفة ما عند الأخرى — يقرب ما بين الطوائف ، ويزيل تلك النعرة غير الطبيعية التى خلفتها الاختلافات القديمة فى الماضى .

وان هذا يتحقق لنا به هدف مقصود ، وهو التقريب ما بين الطوائف ، بحيث يكون خلافها مذهبيا كالخلاف بين الحنفية والمالكية والحنابلة ونحن فى مصر ندرس بعض آراء الامامية على أساس أنه مذهب يؤخذ منه ، وكذلك ندرس الزيدية بل ندرس بعض آراء الاباضية .

ان التقريب بين الطوائف الاســلامية يجب أن يكون غاية مقصــودة فى الجامعة الاسلامية ، ان أسباب الخلاف قد زالت ، ومن الخطأ أن يبقى الخلاف الطائفى مع زوال أسبابه ، وكيف يكون بيننا تنافر فكرى بسبب أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر ، أو أنهما أفضل منــه « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت » ومعاذ الله تعالى أن يكون من ولئــك الأبرار من ارتكب خطيئــة أو اثما نحو الاسلام ، ولقد سئل الامام الشافعى عن أهل صفين ، فقال رضى الله عنه « واقعة قد كفانى الله شهودها ، فلماذا لا أبرىء لسانى من الخوض فيها » .

اننا نقول مع الأسف الشديد أن الخلاف الطائفى يشبه أن يكون نزعة عنصرية ، وان الذين يريدون الكيد للمسلمين يتخذون من ذلك منفذا ينفــذون منه الى صفوفهم ، ليقطعوا الوحدة الاسلامية ، فيجب أن نسد الطريق أمامهم .

وقد جرب المسلمون ذلك فى الماضى الذى ذكرناه ، فيجب أن نعتبر به ، فالماضى نور يضىء الحاضر .

ان الخلاف بين الطوائف ليس فى أمر ما يتصل بعقيدة التوحيد وبشهادة أن لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بالأصول التى تعتبر لب الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وغيرها مما جاء به نص القرآن الكريم ، وجل الخلاف الطائفى ليس فى مسائل تتعلق باللب ، وان ادعت بعض الطوائف أنها من اللب .

لهذه الأمور نرى أن الطوائف الاسلامية يجب أن تتفق وتتلاقى على محبة من الله ورضوان ، تحت ظل كتاب الله تعالى ، والسـنة الصحيحة ، والمقررات الصحيحة التى علمت من الدين بالضرورة • انه لا مانع من أن نختلف ، ولكن اختلاف آحاد فى مسائل علمية ، ولا يكون اختلافنا اختلاف جماعات وطوائف تفرق شمل الأمة ، وتجعلها قطعا متنابذة متنافرة •

تحويل الطائفية الى مذهبية :

١٣٩ ـــ لسنا نقصد محق الطائفية ، وادماج المذاهب الاسلامية فى مذهب واحد ، فان ذلك لا يجوز ، ولو جاز لا يكون عملا ذا فائدة لأن ادماج المذاهب فى مذهب واحد ليس عملا علميا عند العلماء فان كل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه ، تتجه فى مجموعها الى النصوص الاسلامية والبناء عليها ، وهو ثمرات جهود الأكابر العلماء فى كل مذهب ، وكل ادماج فيه افناء ، وليس من المصلحة العلمية فى شىء افنــاء تلك الجهود الفكرية التى قامت فى ظل القرآن والسنة الثابتة ، يجب أن تكون كل الجهود قائمة على أصولها ، يرجع اليها ويختار أصلحها للعمل وأكثرها ملاءمة مع مصالح الانســان فى كل الأزمان ، وأقواها اتصالا بالقرآن مع بقاء المصدر فى موضعه يرجع اليه •

وفوق ذلك فان المذاهب الاســلامية تراث علمى هو لجميع المسلمين ، لا لطائفة من الطوائف ، ومن المصلحة العلمية الاستحفاظ عليــه ليبقى تراثا خالدا •

وان الأمم الأوربيــة على اختلاف قوانينها تدرس القــانون الرومانى والشرائع القديمة ، لأنها ثقافة لابد منها ، فكيف نفكر فى اهمال جزء من ثقافتنا العالية التى كانت فى القرون المــاضية فى ظل الاسلام ، وحملت معها صــور الفكر فى تلك القرون •

وفوق ذلك فان ادماج المذاهب بعضها فى بعض فوق أنه لا يصــح أن يكون ـــ لا يمكن أن يكون ، بل هو أمر لا ينال ، اذ أن أســاس الادماج هو الاتفاق على مذهب واحد ، وأن الاتفاق فى الفروع على رأى واحد أمر غير

ممكن ، بل هو من قبيل المستحيل الذى لا يدرك ، فانا اذا خلصنا الفقهاء من التعصب المذهبى لا يمكن أن نقـدر اتفـاقهم فى منازعهم الفكرية ، وبيئاتهم الاجتماعية •

وهنا يثور اعتراض يبدو بادىء الرأى وجيها • وهو : كيف يمكن محو الطائفية ، وبقاء المذاهب التى تحملها هذه الطوائف ؟

ونحن نقول فى الجواب عن ذلك : ان المذهب ليس ملازما للطائفة ملازمة لا يقبل الانفكاك عنها ، ولا يتصور له وجود من غيرها ، فان الطائفة جماعة تتجمع حول مذهب تعتنقه ، وتدعو اليه ، ويعد كل من لا يعتنقه خارجا عنها ، وليس منهـا •

أما المذهب فهـو مجموعة علميـة تبقى حافظة كيانها ثابتـة ، لأنه تراث فكرى ، وهو أمر معنوى منفصل فى التصـور عن الجماعة التى تعتنقه ، فاذا دعونا الى محو الطائفية فمعنى ذلك ألا يكون ذلك التجمع الذى يختص فى موضع من الأرض بعنوان طائفى ، ويعد المتجمعون أنفسهم موجودا منفصلا عن غيره من المسلمين •

واذا انفصل المذهب عن الطائفية كان لكل مسلم أن يعتنقه أو بعضه من غير أن يدخل فى تجمع طائفى ، فيصح للسنى أن يأخذ بفروع الفقه فى مذهب الامام زيد من غير أن يعـد شيعيا زيديا ، وأن يتبع الامام جعفر الصـادق فيما صح النقل فيه عنه ، من غير أن يكون اماميا اثنا عشريا أو اسماعيليا ، ويصح أن يختار بعضا من المذهب من غير أن يدخل فى طائفته •

وان ذلك ينمى المذهب ، ويحييه ، وينشره ، ويكثر أتباعه ، فان انحيازه فى طائفة معينة ، قد يكون حجابا يمنع غيرها من أن يدرك ما فى هذا المذهب من آراء قيمة صالحة ذات فائدة خاصة ، أو ذات دليل أقوى أو أكثر ملاءمة للناس من غير مخالفة للنصوص ولا للمقررات الشرعية الثابتة التى لا يصح لعالم أن يخالفها •

وأنه من الحق علينا أن نقول : ان مصر منذ نحو أربعين سنة قد أخذت نظام الأسرة من المذاهب المختلفة ، فأخذت من الامامية والمالكية والحنابلة وتحالت من التقيد بمذهب أبى حنيفة ، فاجتازت بذلك الحاجزات المانعة ، غير ملتفتة للمنزع الطائفى .

ففى الطلاق المعلق أخذت بمذهب الشيعة الامامية ، فلم توقعه على تغيير قليل فيه اذ التفتت الى مقصد المعلق ، وأخذت بأن الطلاق الثلاث لا يقع الا طلقة واحدة ، وهو أحد الآراء فى مذهب الامام جعفر الصادق مذهب الامامية ، وقد قيل أنها أخذت من فتاوى ابن تيمية ، وهو قد صرح فى فتاويه بأنه أخذ من مذهب الامامية ، وان لم يصرح باسمهم فقد صرح باسم أئمتهم .

وفى القانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣ وهو قانون الميراث أخذ بمذهب الامامية فى جعل الميراث لمولى العتاقة أو كما سماه الامامية مولى النعمة اذا لم يكن وارث بالنسب أو السبب .

وفى القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ ، وهو قانون الوصية أخذ بمذهب الامامية فى جواز الوصية للوارث .

والمشروع الذى وضعته لجنة الأحوال الشخصية التى ألفتها رياسة الجمهورية سنة ١٩٦٠ ، أخذت من مذهب الامامية أن الطلاق لا يقع الا أمام شاهدى عدل ، وأخذت من مذهب الظاهرية أنه لا يقع فى غيبة الزوجة الا بعد علمها .

وهكذا اجتازت مصر كل حاجز يمنعها من اعتبار الامامية مذهبا وأنه يحق لبعض العلماء فى مصر أن يفاخروا العالم الاسلامى بأنهم أزالوا الحجزات التى تفرق بين الأمة الاسلامية فى الفروع ، وكانت فى هذا ترجح تلك المذاهب بالدليل أحيانا وبرعاية المصالح أحيانا مادامت لا تعارض نصا من النصوص الشرعية .

التعارف الاسلامى :

١٤٠ — نقصد بالتعارف الاسلامى أن يعيش كل مسلم فى أى اقليم من الأقاليم الاسلامية ، أو على الأقل يمكنه أن يعرفه فى دراسة للكتب أو برحلات يقوم بها ، أو نحو ذلك من طرق التعارف المختلفة ، وان السبيل لذلك أن تكون عند كل اقليم اسلامى دراسة كاملة لغيره من الأقاليم ، كما يدرس الاقليم ، ذاته فان كل أرض الاسلام ملك لكل المسلمين ، ولا يجوز أن يجهل انسان أرضه، فان جهل فقد سفه نفسه .

وانه لذلك يجب أن يدرس تاريخ دخول الاسلام فى كل اقليم اسلامى وكيف كانت حاله ، وما أقامه فيه من حضارات عادلة ، وما قوضه من عادات أو تقاليد لم تكن عادلة ، فيعرف تاريخ الاقليم فى جاهليته واسلامه .

وتعريف حال كل اقليم ، وما فيه من ينابيع الثروة والخير ، وحال هذا الاقليم فى معاملاته الخارجية ، وما ينبغى أن تكون عليه بعد الوحدة الجامعة ، فمثلا تعرف المنابع الطبيعية للثروة فى أندونيسيا وما فيها من خيرات الأرض مما لو تسابق اليه المسلمون لعمت فائدته لهم بدل أن يكون لأعداء الاسلام فى البلاد التى تتربص للاسلام بالمكيدة تدبرها ، وبالشديدة تنزلها .

ان كل معدن أو ركاز فى باطن أرض اسلامية هو للمسلمين أجمعين ، وليس لأهل الاقليم الا حصة فيه بمقدار نسبته فى تعداد المسلمين .

وانه لأجل أن يكون هذا التعريف كاملا يجب :

(أ) أن يكون من ضمن مناهج التدريس فى المدارس الاعدادية والثانوية موضع لدراسة تاريخ كل اقليم اسلامى وجغرافيته الطبيعية والاقتصادية ، وما تصدره من خيرات ، وما تكتنزه أرضها من فلزات ، وانه لمن التخاذل الاسلامى الذى يعد عارا أن يدرس الطالب المسلم جغرافية انجلترا وفرنسا وامريكا وتاريخ هذه البلاد ، ولا يعرف تاريخ باكستان ولا أندونيسيا ، ولا تعدادهما .

لنا أن نقول : ليس العار فى دراسة البلاد الأجنبية ، لأن هذه الدراســة علم ولا عيب ولا عار فى تعرف علم من أى جانب كان ، انما العيب كل العيب ، والعار أن يجهل تاريخ بلاد الاسلام ، واذا ذكرت لا يعرفها المثقف الا عن طريق الفرنجة ، وعلمهم فى ذلك شأنه تحرى كتابه ألا يذكروا الحقائق كاملة ، أو لا يذكروها سليمة كل الســلامة ، بل انهم ينقصون عــدد المسلمين فيها ، ويطففون فيهم •

لقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا التقى المسلمان فلم يتعارفا نقص من ايمانهما » فكيف تكون الحال ، ونحن نجهل أهل الاسلام ، وهم أهلنا ، وأرضهم هى أرضنا •

ان الدين الاسلامى دين تعارف ، ولقد روينا من قبل أن النبى صلى الله عليــه وسلم قال : « خير الاسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وللحديث معنى يؤدى من لفظه ، ومعنى يفهم بالاشارة وهو أن التعارف الاسلامى واجب •

وان الطلبــة يجب أن يهيأوا وهم صــغار على أن يفتحوا عيونهم الى المسلمين ، ليكون الاسلام وأهدافه فى قلوبهم منذ نعومة أظفارهم •

(ب) وأنه من طريق التعارف الاســلامى ايفاد بعوث علميــة من علماء المسلمين أهل الخبرة فى طبائع الأشياء ليدرسوا أراضى الاسلام ، وما عساه يكون فيها من خير ينفع الجميع ، ولا يقتصر نفعه على الاقليم ، وانه يجب مع ذلك القيام بتقويم للبلاد الاسلامية ، تحصى فيه مواردها ، وسكانها ، وتبين أحوالهم الاجتماعيــة ، وقد همت بذلك بعض الجماعات ، وأن تنظم رحلات مستمرة من شباب الأمة وكهولها ، ليعرفوا اخوانهم فى أقاليم الاسلام ، بحيث يوجد احساس عام ، باللقاء المستمر • ان كثيرين من المسلمين يتجهون الى المصايف الأوربية ، والأثرياء ينفقون أموالهم اسرافا وبدارا هنالك فى فرنسا وسويسرا اليهودية فى منزعها ، وفى تعصبها ، وايطاليا ، وهكذا •• بينما فى البلاد الاسلامية مصايف ومشات تهواها الأنفس ، وفيها متعة الرحلة ، ومتعة السياحة والاصطياف ، ومتعة اللقاء الاسلامى •

ونريد أن نذكر أمرا جديرا بالاعتبار ، واستخلاص العبرة والموعظة هو أن الأوربيين والأمريكان يستمتعون بالذهاب الى أسبانيا ، حتى ذكروا أنهــا أكبر بلد يستفيد من السياحة ، حتى قدروا مورده من السياحة بنحو مليار من الدولارات أو يزيد ، وما الذى يستمتع به الأمريكيون فى أســبانيا ، انهم يستمتعون بأمرين ــ أولهما ــ جمال الآثار التى تركها العرب وربما يكون ذلك بالمحل الثانى ، لا بالمحل الأول ــ وثانيهما ــ وهو المحل الأول ــ أن يستمتعوا بأنهم أخرجوا العرب ، وحولوا مساجدهم الى كنائس ، ومآذنهم الى أجراس ، وهذا النوع من المتعــة هو بالمحل الأول لا بالمحل الثــانى ، فاعتبروا يا أولى الأبصــار •

(جـ) وهناك طريق للوحدة والتعارف مفروض فى الاسلام ان أدركنــا معناه ، وعرفنا مغزاه ومرماه ، وهو الحج الى بيت الله الحرام ، فانه فريضة محكمة باقية الى يوم القيامة ، والحج كما أشرنا من قبل هو طريق للتعارف الاســلامى لو نظم على وجهــه الشرعى الصحيح ، وكان المسلمون الأولون حريصين على أن يجعلوا منه سبيلا للتعارف الاسلامى ، والروايات للأحاديث النبوية والدراسات الفقهية ، وانك لترى أن أبا حنيفة يلتقى بمالك فى موسمه ويتذكران مسائل الفقه ، ويلتقى بالأوزاعى فى سوق الخياطين بمكة ، وأحمد ابن حنبل يلتقى بالشافعى ويلقى عليه فقهه فى البيت الحرام ، وكان أبو حنيفة يلتقى بالامام محمد الباقر ، وابنه الامام جعفر الصادق ، ويأخذ عنهما ، وهو يحج الى بيت الله الحرام •

وقدكان الخلفاء الراشــدون حريصــين على أن يرأســوا موسم الحج بأنفسهم ، وظل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حريصــا على أن يلتقى بعمال الأمصار فى موسم الحج طول خلافته ، وكان يتعرف أحوال الحجاج ومن وراءهم من أهالى الأقاليم • وكان ينزل الى الحجاج من كل اقليم اســلامى يتعرف شؤونهم وأحوالهم ، ومعاملة الولاة لهم ، وكان يخطب فى عرفات خطبة جامعة ، يبين فيها علاقة الحاكم بالمحكوم ، وقــد سن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى خطبة الوداع سنة التعريف بالاســلام وبحقائقه فى موسم الحج •

وكان أئمة الفقه كما أسلفنا حريصين على حضور موسم الحج فيلتقى علماء الأمصار بعضهم ببعض فيتذكرون مسائل العلم وأحوال المسلمين ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال فيما ذكرنا من بعض لقاء الأئمة • وهكذا كان الحج فى الماضى مثابة للتعارف الاسلامى ، فهل لنا أن نطلب الى حكام الأقاليم الاسلامية الالتقاء فيه ليتشاوروا فيما بينهم ، وانه لن تكون لنا قوة فى الأرض الا اذا حققنا مقاصد الاسلام فى عباداته •

واننا نطالب الحكومة التى تتولى الآن ولاية البلاد فى الحجاز ، وسدانة الحرمين الشريفين أن تعمل على أن تمكن المسلمين من أن يتعرف بعضهم ببعض وأن تتعرف بالعلماء الذين يقومون بفريضة الحج ، وتقيم ندوات علمية بينهم ، فالفقهاء يجتمعون فى ندوات تتدارس الفقه الاسلامى ، والاقتصاديون يجتمعون فى ندوات لدراسة الاقتصاد الاسلامى ، والعمل على تنفيذ أحكام القرآن ، وكذلك المهندسون والأطباء ، وبذلك يكون الحج طريقا للتعارف والمعرفة كما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم •

ان هذا أمر يمكن تنفيذه من الآن ، وانه سينظم على وجه أكمل ، اذا قامت الجامعة الاسلامية •

اللغة العربية :

١٤١ — ان معرفة الداء سبيل معرفة الدواء ، وقد علمنا أن اماتة اللغة العربية فى الأقاليم الاسلامية ، واحياء اللغات الاقليمية كان هو الداء الذى عمل على تفريق المسلمين ، وذهاب ريح الدولة الاسلامية ، وان ذلك يشير حتما الى أن من الأصول الأولى للجامعة الاسلامية احياء اللغة العربية فى كل الأقاليم الاسلامية ، لقد كان المسلمون مجتمعين يوم أن كانت لغة الدولة ، ولغة الحكومات فى الأقاليم ، فكان حقا عليها أن تردها الى مكانتها ، لأنها لغة القرآن أولا ، ولغة الاجتماع الاسلامى ثانيا ، ووعاء العلم الاسلامى ثالثا • فلابد أن نعد هذا الوعاء ليكون للمسلمين أجمعين •

وانه مع هذا الاعتبار التاريخى لا يتم التعارف بين المسلمين الا اذا وجدت

لغة جامعة بينهم ، بحيث ينزل المسلم فى أى اقليم اسلامى ، فلا يتعذر عليه أو يتعسر الخطاب مع أهله ، ولا يستعصى عليه البيان الا بمترجم •

ولا نقصد بذلك اماتة اللغات الاقليمية التى انبعثت مع الشعوبية فى القرون الخوالى ، كما أسلفنا فى أسباب التفرق ، حتى لا تتحرك العصبيات الاقليمية التى يحاول أعداء الاسلام أن يحاربوا بها الوحدة الاسلامية بتأجيج نيرانها وانما نريد أن يتعلم المسلم المثقف بجوار لغة اقليمه اللغة العربية التى هى الجامعة بين المسلمين ، وهى لغة القرآن ، اننا نرى الشباب المثقف فى البلاد الاسلامية يتعلم مع قومه لغة أوربية أو لغتين ، فلو قلنا أن على المسلم المثقف أن يستبدل باحدى اللغتين الأوربيتين لغة تجمع بينه وبين اخوانه المسلمين لا يكون فى ذلك شطط أو ارهاق ، ولا نكون قد اعتدينا على قوميته ، وان كان يجب أن يكون نظره الى قومه من نظره الى الاسلام ، فلا يصح أن يعين قومه على خفض كلمة الاسلام ، وتعارف المسلمين ، اننا لنرجو أن يكون فى قلبه موطن لدينه فوق تعصبه لقومه ، والا كان معينا قومه على الظلم وتلك هى العصبية الجاهلية ، واذا كنا لا نعارض فى انبعاث القومية أو فى بقائها فانا نريدها قوة للمسلمين ، وبذلك يكون قومه فى حماية المسلمين ، لا فى حماية أجنبية لا تريد به الا الخبال والضياع ، كما ضاع من قبل •

اننا ننزل فى أى بقعة من أرض الاسلام فنجد من يستطيع التكلم بالانجليزية أو الفرنسية ، ولذلك لا يكون الانجليزى أو الفرنسى غريبا فى أرض الاسلام • بينما العربى اذا نزل فى أرض اسلامية يكون غريبا اذا لم يجد الانجليزية أو الفرنسية أو يجد مترجما بينه وبين أخيه المسلم •

واذا دخل الانجليزى أو الفرنسى اقليما اسلاميا وجد من المسلمين من يسارع بالتحدث اليه بلغته مفاخرا بذلك ، ونحن لا نريد أن نلغى تعلم الانجليزية أو الفرنسية كما لا نلغى اللغة القومية من التعليم ، ولكن نريد أن يكون للغة العربية مكان مثل الانجليزية أو الفرنسية ليتمكن المسلم من أن يخاطب أخاه المسلم المثقف من غير توسط مترجم ، أو توسط لغة أخرى •

أليس من العار أنه فى البيت الحرام ومهبط الوحى فى موسم الحج حيث يلتقى المسلم العربى بالمسلم الهندى ، لا يستطيع أحدهما أن يخاطب الآخر الا بالانجليزية أو الفرنسية .

وأليس من الغرابة أن يدعو الله عالم السر وأخفى باللغة العربية ، ويخاطب أخاه المسلم بالانجليزية أو الفرنسية ، واذا لم يكن العربى مجيدا لهاتين اللغتين كان المترجم بينهما .

ان وجود لغة جامعة أمر لابد منه فى تكوين الجامعة الاسلامية واذا كان لنا أن نختار لغة فأى اللغات نختار ؟ ان البداهة تقول : اللغة العربية . بل ان بعض القراء يجد غرابة فى توجيه هذا السؤال ، اذ لا موضع له ، لأن الأمر المتيقن الذى تقره البداهة لا يسأل عنه ، ويكون السؤال عنه غريبا فى المنطق والعقل .

ولسنا ندعو الى العربية احياء للعصبية العربية ، أو لأى معنى يتصل بذلك ، ولكن ندعو اليها ، لأنها أولا لغة القرآن ، ولغة السنة ثانيا ، ولغة العبادة الاسلامية ثالثا ، فهل من المسلمين من يصلى بغير قراءة الفاتحة بالعربية ، وهل من المسلمين من يكبر تكبيرة الاحرام فى الصلاة بغير العربية وهل فى المسلمين من يحرم فى الحج ، ويلبى بغير اللغة العربية ، وهل من المسلمين من يتلو القرآن بغير اللغة العربية . ويعتبر تلاوته عبادة .

لقد أوجب الامام الشافعى كما ذكرنا على كل مسلم أن يعرف قدرا من العربية يصحح به دينه ، وعلل ذلك بنزول القرآن باللغة العربية ، لا بلغة غيرها ، لأنه كيف يسوغ لشخص لا يعرف العربية أن يقرأ سورة الفاتحة من غير أن يفهم ما اشتملت عليه من حمد لله وضراعة اليه ، وبيان وحدانيته ورحمته ، وكمال سلطانه ، وكيف يسوغ له أن يقول : الله أكبر ، من غير أن يعرف معناها ، وكيف يسوغ لخطيب أن يخطب على منبر خطبة الجمعة بالعربية من لا يفهمونها ؟ بل كيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يتلو القرآن أو يستمع اليه من غير أن يعرف آيات الترغيب والترهيب ، والآيات الكونية

والآيات التى تبين الأحكام الشرعية من نكاح وطلاق وميراث ، ومعـاملات وحدود وقصاص •

لذلك نجد أن اللغة العربية هى التى تجمع المسلمين فى الحاضر ، كمـا جمعتهم فى المـاضى • فلسنا والحمد لله ندعو للعربية تعصبا للعرب ولكن ندعو اليها تعصبا للاسلام ، ورغبة فى الوحدة الاسلامية •

وان المسلمين المخلصين فى كل بقاع الأرض يدركون هذه الحقيقة ويؤمنون بها ، والمثقفون منهم يعلمون ذلك علم اليقين ، الا أولئك الذين طمس الله على بصائرهم فعموا وصموا « **انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » •

ان بعض هؤلاء الأعاجم الذين لا يعرفون من العربية شيئا سوغوا لأنفسهم الاجتهاد معتمدين على القرآن وحده • وهم لا يعرفون كلمة واحدة عربيـة وانهم قوم بور ، أو كمـا قال الفخر الرازى مقتبسا من القرآن لأمثالهم : « انهم قوم سدى » لم يهتدوا ولم يستمعوا الى كلمة الحق التى تهديهم •

ان اللغة العربية ليست لغة القرآن والسنة فقط ، بل هى لغـة التراث الاسلامى كله • فالفقهاء على شتى مناهجهم ومذاهبهم قد دونوا علمهم باللغة العربية وكذلك الفلسفة الاسـلامية والتصوف الاسـلامى ، وتفسير القرآن والحديث كل أولئك كان باللغة العربية •

وكيف يترك مثقف اسلامى علوم فخر الدين الرازى وعلوم الغزالى ، وعلوم محمود جار الله الزمخشرى ، وعلوم أبى بكر الرازى الشهير بالجصاص، وغيرهم من كبار علماء فارس وخراسان ، وعلماء ما وراء النهر الذين دونوا باللغة العربية كنوزا من العلم وآثار الفكر الاسلامى ، سواء أكانت فى المعقول أم كانت فى المنقول •

نعم ان بعض الآثار العلمية أو الأدبية كان يصدر بغير اللغة العربية ولكنه نادر ندرة تجعله غير مذكور فى الحساب ، وكان فى عصر محاربة اللغة العربية ومحاولة احياء اللغات القومية ، وليس على أى حال شيئا مذكورا •

١٤٢ — ان اهمال اللغة العربية اهمال لصدر تاريخنا ، وما ينبغى لمثقف مسلم أن يجهل تاريخ الاسلام ، ولا يليق بمثقف مسلم أن يقرأ عدة تراجم بالانجليزية لخطباء اليونان والرومان وخطب الانجليز ، وكتاباتهم ، ولا يقرأ خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطب على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وخليفة رسول الله صديق هذه الأمة .

ولكن هذه الأمور الغريبة صارت أمرا مألوفا عند أولئك الذين استضعفوا أنفسهم وارتضوا أن يكونوا تابعين لأعداء الاسلام . وذيولا لدولهم .

ان الشعوب الاسلامية على تباعد أقطارها كل لغاتها متأثرة باللغة العربية فالفارسية فيها ألفاظ عربية كثيرة . والأردية لغة باكستان أو لغة الهنود عامة فيها ألفاظ عربية تبلغ نحو ستين فى كل مائة أو تزيد .

وذلك لأن اللغة العربية كانت هى اللغة الجامعة فى الماضى ، حتى كان الافتراق ، فعندئذ ضاق ظلها ، أو تقلص ، واقتصر على من يتكلم العربية صحيحة أو عامية ، وان ندر الأول .

ولا أقول ذلك لأنها كانت المظهر الاجتماعى والتلاقى فقط ، بل أقول ذلك ، لهذا ولأن تعلم العربية للمسلم أسهل من تعلم أى لغة أخرى بالنسبة لتلك الأقاليم ، لكثرة الألفاظ العربية فى تلك اللغات ، ولأنهم يتلون القرآن ، بل منهم من يحفظونه وهو باللغة العربية .

ولذلك قال بعض أهل الخبرة : ان الباكستانى يستطيع أن يتعلم العربية وينطق بها فى مدة لا تزيد على ستة شهور مهما تكن سنه . ومهما يكن مقدار ثقافته .

ولقد حاولت باكستان أن تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية بدل الانجليزية التى لا تزال الآن اللغة الرسمية لهذه البلاد المسلمة ، ولكن حال دون ذلك أولئك الذين لا يزال يعشش فى رءوسهم الأجنبى بتفكيره ونزوعه .

وأنه بجوار أولئك الذين تملأ رؤوسهم الحضارة الأوربية ونزعتها يوجد وهم مضعف يتوهمون منه صعوبة تعلم العربية ، وغواش من الحواجز التى تحاجز بين الباكستانى وبين دينه الذى توجب حقائقه المقررة معرفة العربيــة لمن يريد أن يتعرف شؤون دينه من مصادرها العربيــة ، من القرآن والسنة النبوية • والفقه الذى استنبطه الأئمة الأعلام ، وغير ذلك مما يتصل بالدين معرفته •

وأنه مما يثير السرور فى بعض النواحى الاسلامية بالنسبة للغة العربية أن كثيرين من العلماء المتخصصين فى الدراسات الاسلامية من الهنــد وباكستان وفارس وأفغانستان وغيرها يعلمون العربية ويدرسونها •

ولقــد وجــدنا ليبيا عنــدما خلعت نير الأجنبى ، وقذفت به فى البحر واستعانت جامعاتهــا ومعاهدها بمن يدرس العلوم الاسلامية فى ذلك البلد العربى ، كان ممن استعين بهم بعض الشبان والكهول من علماء الهند المسلمين ، وبعضهم من تلاميذنا الذين كانوا يؤثرون أن يدرسوا العلوم الاسلامية باللغة العربيــة •

١٤٣ ــ اذا كان حقا على كل مسلم أن يتعلم حظا من العربية يصحح به دينه ، كما قرر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وكما شرحنا من قبل فانه حق على كل من يعرف العربيــة أن ينهض لتعليمها ، وان تعليمها لمن يجهلها من المسلمين فرض كفاية على جماهير العارفين بالعربيية عامة • فعلى غير العرب أن يتقدموا لتعليمها •

ان كثيرين من البلاد الاسلامية يريدون معرفة العربية لغة دينهم ليفهموا القرآن العظيم من لغته وليتصلوا بمصادر الشرع من غير وساطة تتوسط •

وهناك الجماعات الكثيرة التى ندبت نفسها لهذا العمل الجليل ، وانى لأعرف أن بعض العلماء من الهند وباكستان يقومون بوضــع معجم للقرآن باللغة الأردية ، ليسهل على من يحفظ القرآن أن يعرف بلغته معنى ما يقرأ ،

وان حفظـة القرآن فيهم عـدد كبير يضمن تواتر القرآن حفظا وتلاوة فى الأجيال .

وان وجود هذا المعجم بلا ريب يفيد من يتكلم الأردية ، وييسهل تعلم العربية ، فانه بهذا يحفظ عددا كبيرا من الألفاظ ، ومقابلها العربى فى أفصح وأبلغ كلام فى الوجود .

ان جماعات فى الباكستان تنشىء المدارس بامداد أهل الخير ، ولكنهـا لا تجد العدد الكافى من مدرسى العربية ، فعلى البلاد العربية مجتمعة أن ترسل المعلمين اليها ، فان تعلم العربية وتعليمها فريضة محكمة ، قال عليه الصـلاة والسلام : « تعلموا العربية وعلموها الناس » . ولا تسقط هذه التبعة الا اذا أجبنا أمر النبى صـلى الله عليـه وسلم . وهى لسان القرآن . قال تعالى : **« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين »** .

ترجمة العلوم الى العربية :

١٤٤ ــ قد يقول قائل ان تعلم اللغات الحية فى البلاد الاسلامية أمر لابد منه ، لأنها لغات العلم الكونى والانسانى ، وهذا العلم فى تجدد مستمر . وزيادة دائمة ، وقد تغلغلت آثاره فى كل المجتمعات الانسانية ، ومما انتهى اليه العلم غرائب ، لو ذكرت لأهل القرن المـاضى لكانت من العجائب المعجزات ، ولا يزال يخطو الى الأمام ، والتخلف عنه تخلف عن ركب الانسانية ، وما يسوغ أن تتخلف الجامعة الاسلامية عن الركب السائر ، والا كانت مأكولة لا محالة ، وكأنها تجتمع للتؤكل ، ولتلتهم ، فلابد من دراسة اللغات الحية بين المثقفين فيها ، واذا كان العلم بالعربيـة فرضا كفائيا ، فانا نحسب أن العلم الكونى فرض كفائى أيضا ، لأنه لا تستغنى عنه الجماعات ، ولابد أن يتولى كل اقليم من يتـابع الزيادة المستمرة فى علم الكون وعلم الانسـان ، والصناعات ، وما يستخرج من المواد الخام التى أودعها الله تعالى باطن الأرض ، ان ذلك أمر لابد منه وليس لنا أن نخالفه ، وان ذلك لكائن فى كل البلاد المتحضرة .

ولكنـه لا يكفى أن يكون بين المسلمين متخصصون فى هـذه العلوم ،

متتبعون لما يزاد فيها ، وما تكشفه العقول الباحثة بل لابد مع ذلك من أن تترجم هذه العلوم الى اللغة العربية لتستفيد منها انماء وحيوية ، ونجده فى عامها • ولقد كان الأقدمون من أسلافنا يقومون بنقل العلوم الى العربية : وقد أبلى فى ذلك غير العرب من المسلمين بلاء حسنا ، فابن سينا والفارابى وابن رشد وابن طفيل ، وغيرهم من العلماء ، جعلوا اللغة العربية تزخر بالعلم، حتى صار العلماء المسلمون أساتذة الغرب ، فى ذلك ، فنقلوا لهم منطق أرسطو، وسياسة أفلاطون فيما سموه المدينة الفاضلة •

ولقد كانت دار الحكمة ببغداد ، مملوءة بعلماء الفلسفة ، والترجمة لكل العلم الهندى فى تصوفه ، والعلم اليونانى فى منطقه ، وموازين البيان ، كما يرى فى كتاب الشفاء لابن سينا ، كانت الترجمة قائمة على قدم وساق ، حتى حالت عليها الحال ، كما قال تعالى : ((وتلك الأيام نداولها بين الناس)) •

وما ضعفت العربية الا يوم ضعف المسلمون ، وتخاذلوا عن نصرتها وعن القيام بحقها وانمائها المستمر ، كما فعل السلف ، وقد تركوا لنا فى ذلك تركة قويمة مثرية بالعلم الفلسفى فى كل نواحيه •

ان اللغات الحية تتبادل العلم وما ينتجه العلماء ، فانه لا يظهر كتاب علمى فى لغة من اللغات ، حتى تجده فيها قبل أن تنتهى طبعته فى لغته •

وان أهل كل لغة عندهم قسم قائم بالترجمة يتتبع الجديد من الكتب التى تحمل جديدا من العلم فيسارعون بنقله الى لغتهم ، ان لم يكن بالترجمة المتتبعة المتقصية فبالتلخيصات الوافية ، ويتولونه بالدراسة والفحص ، وان العلم لا يصح أن تقوم الحاجزات الاقليمية دونه ، وكما قال صاحب كتاب أصيل القرن التاسع عشر الذى ترجم الى العربية بعنوان التربية الاستقلالية : ان العلم كالماء والهواء لا يقع فى قبضة أحد ، فهو حق للانسانية كلها •

لهذا يجب أن يجتهد المسلمون ، لا فرق فى ذلك بين أعجمى النسب وعربيه فى تغذية اللغة العربية بالعلم الجديد لتسير فى الركب ، ولا يمكن أن يكون لنا مدنية اسلامية تفى وتكفى الا اذا زخرت لغة الجامعة الاسلامية بالعلوم •

ان الجامعة الاسلامية يجب أن تتبع ما ينتجه العلم فى الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ، وعلم الفضاء ، فينقل الى أمتنا العربية الاسلامية التى هى لغة جميع المسلمين ، لا فرق بين عربى وأجنبى •

ولا يقال أن العرب أولى بالقيام بهذا الواجب ، لأنها لغتهم ، لا يقال ذلك ، لأنها لغة الاسلام ، وليست لغة قوم دون قوم ، ونحن نريد من المسلمين خصوصا المثقفين أن يكونوا على علم كامل بالعربية ، ونريد لها الثراء بالعلوم الكونية وعلوم الحياة •

ولقد كان الذين تولوا نقل العلم الهندى والفارسى واليونانى الى العربية من الأعاجم فى أنسابهم ، وان كانوا عربا باسلامهم ، والأوربيون لا يعبرون عن العلم الاسلامى الا بالعلم العربى وان كان الذين قاموا به من سلالة فارسية أو بربرية ، أو غير ذلك •

وقد يقال أن اللغة العربية الترجمة اليها قائمة على قدم وساق ، والجامعة العربية تتولى ترجمة كتب الى العربية ، وذلك القول حق لا ريب فيه ، فان كبار الأدباء يترجمون •

ولكن الكتب المترجمة فى الآداب ، لا فى العلوم ، وفى البحوث الاجتماعية لا فى البحوث الكونية ، والجامعة العربية فى قسمها الثقافى لم تخرج عن ذلك النطاق ، بل سارت فى ذلك الدرب ، بل انهـا ترجمت بعض الكتب الأدبيـة والاجتماعية التى سبق أن ترجمت من قبل ، ولم تجر احصاء بما ترجم حتى يكون عملها انشاء ولا يكون تكرارا •

اننا نريد أن تزخر لغة الاسلام بالعلم ، وتتولى ذلك الجامعة الاسلامية ليتحقق الاكتفاء الذاتى بين الأقاليم الاسلامية •

وكما قلت ان تعلم اللغات الحية لا تغنى عنه الترجمة ، فان النقل عن علم لغة يقتضى معرفة هذه اللغة ، ولقد نقل الينا عن المرحوم الأستاذ الشيخ

عبد العزيز جاويش العالم العربى الأديب أن من ترجم كتابا من لغة الى لغة بلده ، فقد نقل علم أهل هذه اللغة الى بلده ، وهذا ما نريده .

ان دور الدراسة والانتاج يجىء دائما بعد دور الترجمة ، ان ذلك هو الترتيب الطبيعى .

لقد ابتدأت الترجمة فى آخر العصر الأموى ، وازدهرت فى العصر العباسى وخصوصا عصر المأمون ، وبعد أن زخرت العربية بالترجمة كانت الدراسة والبناء على العلم الذى نقل الى المسلمين ، ولذلك كان من فلاسفة المسلمين الذين تكلموا فى أرسطو وأفلاطون من لا يعرف اليونانية . كذلك نحن فى هذا العصر اذا زخرت البلاد الاسلامية التى تكون لغتها الرسمية العربية فيما بين أقاليمها وفى داخلها بالعلوم ، اذا أمكن وتحقق ذلك ، فانه سيكون بعون الله تعالى من بين المسلمين علماء فى الكون يكتشفون خواص المادة كما يكتشف علماء الغرب ، ويغزون العلم ، كما تغزى لغتهم به .

واننا نلاحظ أن بعض الدول العربية أراد القائمون على الجامعات فيها آن يدرس الطب ، وأن تدرس العلوم الكونية باللغة العربية ليسهل فهمها ، وانزخر العربية بنتائج علمهم . ولتتسع الترجمة فى هذه ولتتكون مكتبة عربية فى هذه العلوم .

وقد نفذت ذلك جامعات فى الدول العربية ، ولكن استنكرت ذلك مصر ، وما كان استنكارها ، الا لأنهم استثقلوا ذلك ، وأخفوا هـذا بأن قالوا ، ان اللغة العربية عاجزة عن أن تتسع لهـذه العلوم ، وما كان العجز الا فيهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وان ادخال العلوم الكونية فى اللغة العربية ليس بدعا أو جديدا ، انما هو فى المدارس الثانوية منذ زمن بعيد ، ولكن فى المدارس العربية ، وخصوصا بعد أن خرجت من الحكم التركى ، وخلعت الربقة الأجنبية، ولا يزال بعضها ممن استقل قريبا يرزح تحت نير اللغة الأجنبية ، وان الله تعالى منقذ لغة القرآن ، وان ترجمة العلم الكونى والطبيعى الى اللغة العربية يقتضى أمرين :

أحدهما : نقل كل المعلومات الى اللغة العربية بالألفاظ التى تتسع لها ألفاظ اللغة العربية من غير اجهاد ولا اعنات •

ثانيهما : الاتجاه الى تعريب الألفاظ الافرنجية بصقلها بصقل عربى • فان ذلك يزيد اللغة نماء •

جمـاعة علميـة :

١٤٥ — ابتدأت مصر من بين البلاد الاسلامية الى تكوين مجمع البحوث الاسلامية الذى يدعو الى مؤتمر كل عام منذ سنة ١٩٦٤ ، ولم يتخلف اجتماعه الا سنة ١٩٦٧ لأحوال كانت خاصة بمصر أو بالأحرى بالبلاد العربية ، وفى معناها العميق كانت تعم العالم الاسلامى كله ، لأنه يتصـل بنكسة الجيوش المصرية سنة ١٩٦٧ ، وقد أخذ اليهود أعداء الله وأعداء الانسانية بيت المقدس وقال طاغوتهم : الآن قد فتح الطريق لمكة والمدينة حيث جثمان النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى أعقاب ذلك حرق المسجد الأقصى مسرى النبى صلى الله عليه وسلم • ولذلك كان الأمر المانع من الانعقاد أمرا يهم المسلمين أجمعين •

كانت المؤتمرات الخمسة التى عقدت يدعى اليها ممثلون الأربعـين دولة اسلامية لا يتحرى فيها مذهب ، بل انها جامعة فى الجملة للمذاهب الاسلامية من حنفية وشافعية ومالكية ، وجعفرية ، وزيدية •

ولقد قرر كل مؤتمر قرارات كثـيرة تهم المسلمين جميعـا ، وخصوصا فيما يتعلق بالمسجد الأقصى ، وانتهاك الحرمات الاسلامية فى فلسطين ، وايلياء أرض الله المقدسة التى جبن بنو اسرائيل أن يدخلوها فى عهد موسى ، وقالوا لموسى : ((**اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون**)) •

ولقد كانت القرارات تكتب وتحرر ، وارجع اليها فى قرارات المجمع من أول مؤتمر الى الأخير ، ولكن لا تنفـذ ، ومهما يكن الأمر فى ذلك ، فان عدم تنفيذ قراراته ليس بتقصير من المجمع ، ولكن الذين يجيئون اليه من الوفود الاسلامية يحضرون اليه على أنهم دعوا اليـه ، وساهموا فى مناقشاته أو لم يساهموا ثم ينفض ، ويعودون الى بلادهم •

والحق أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ، لأن فعل أى شىء يوجب أن يكون للحكام رأى فيـــه ، وأن يكونوا مؤيدين له ، ولكنهم فى جانب ، والذين حضروا فى جانب آخر ، وما أحسب أن وفدا منهم حاول أن ينفذ أمرا مما قرره المؤتمر كانشاء صندوق لتأييد المقاومة أو نحوه •

ومهما يكن الأمر فى مجمع البحوث الاسلامية الذى أنشأته حكومة القاهرة وتولت تكوين أعضـــائه ، فانه يصلح أن يكون نواة لتكوين مجمع اســـلامى شامل ، لا يكون تحت رعاية دولة اسلامية واحدة ، بل يكون تحت رعاية الجامعة الاسلامية ممثلة فى مجلسها الذى سنتكلم فى تكوينه من بعد •

وان الخواطر التى تجول فى نفوسنا بالنسبة لهذا المجمع المرتقب ، أن يكون ممثلا لكل المسلمين من أقصى الصـــين الى المحيط ، وأن يكون للأقليات الحق فى رفع أمورها وبيـــان أحوالها لذلك المجمع ، وأن يكون فيه ممثلون لها ، يكون لهم الحق فى تعرف أحوال المسلمين ، وبيـــان أمورهم ، والنظر فى رفع الظلم عنهم •

ان الملاحظ أن المجمع القائم ، وكله خير ، وان لم يكن فيه كل الخير ، أن أعضاءه جميعا من البلاد العربية فليس فيه عضو من باكستان ، ولا الهند ، ولا أفغانستان ولا ايران ، بل ان بعض البلاد العربية غير ممثلة فيه ، فليس فيه عضو من البلاد الحجازية ، ولا من سوريا ، بينما فيه عضوان من لبنان ، وربما يكونون ثلاثة وليس فيه عضو من المذهب الجعفرى • ولا المذهب الزيدى ، وان كان الجعفرية يدعون الى مؤتمره ، وليس فيه أعضاء من المسلمين فى وسط آسيا ، وان كان يدعى الى المؤتمر علماء من فضلائهم ، ويكون بهم التعارف الاسلامى ، وان لم يكن كاملا ، لأنه لم يكن بين كل المسلمين أو كل علمائهم •

١٤٦ ــ ان مجمع البحوث الاسلامية كان فى الأصل الباعث عليه أن يكون جامعا للدراسات العلمية الاسلامية فى كل البلاد الاسلامية ، وليكون حلقـــة اتصال علمى اسلامى بين المسلمين أجمعين •

وما كان يؤدى ذلك الواجب الا اذا كان له استقلال فى دراسته عن كل الأقاليم ، حتى عن مصر الذى أنشأته ، وقد حافظ الذين أشرفوا عليـــه على

استقلاله ، فكانت آراؤه لا تتقيد بالآراء التى تدعو الى بعضها الحكومة المصرية ذاتها •

وان ذلك بلا ريب فخر لحكومة مصر ، وللمشرفين عليه ، اذ لم يحاولوا أن يفرضوا عليه آراء معينة ، وان الاستقلال الفكرى فى جماعة علمية هو طريق نجاحها •

واذا كان ثمة من تجاهل هذا الاستقلال ، أو تجاهل قراراته ، فان ذلك لا يضير المجمع ، وقد انتهى الى قرارات علمية أعلنها ، ودرس أمورا أخرى وحاول أن يشرك فيها علماء المسلمين فى كل البلاد الاسلامية ، فله قرارات فى نظام الفائدة ونظام التأمين بكل ضروبه ، وقد أرسل الى العلماء نتيجة هذه الدراسة فى التأمين ، فلم يجد مجيبا الا بين عدد قليل ، لا يمكن أن نقول : انهم يمثلون الفكر الاسلامى تمثيلا كاملا •

وان ذلك المجمع أراد أن ينشىء له مراكز اسلامية فى كل بلد اسلامى ، وتتولى هذه المراكز دراسة الاسلام والمسلمين دراسة علمية ، كل مركز يدرس حال الاسلام فى بلده ، ويعمل على تثقيف شعبه والشعوب القريبة منه بالاسلام •

ولكن لم يتم شىء من ذلك ، لأنه يجب أن تتوافر مع رغبة الشعب ارادة الحكومة ومعاونتها ، وقرر أن ينشأ فى كل بلد اسلامى صندوق مالى ليمد المجاهدين من الفدائيين المرابطين حول الأرض المقدسة ليجعلوها سما زعافا على محتليها ، وهم يريدون منها أن تكون لبنا وعسلا •

وأردنا أن ننشىء مكاتب للدعوة العامة الى الجهاد ؛ لأن العدو احتل جزءا من أرض الاسلام بل من أقدسها على المسلمين ، فأصبح الجهاد فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ، بل على كل مسلم ومسلمة كل فى حدود ما يستطيع ، فالكاتب بقلمه والخطيب ببيانه ، وذو المال بماله ، ومن يستطيع حمل السيف بسيفه استجابة لقول النبى صلى الله عليه وسلم : (جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم) وانا ان تقاعسنا عن الاستجابة لله ولنداء رسوله صلى الله عليه وسلم ألقينا نحن المسلمين بأنفسنا الى التهلكة ،

أولم نستمع الى أمر الله تعالى فى قوله : « **وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين** » •

لقـد دخل العدو بيت المقدس ، وتحقق نبـأ الله تعالى فى القرآن : « **ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسـأتم فلهـا ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كمـا دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبـيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** » •

لقد دخلوا المسجد وتبروا ما علوا تتبيرا ، بل حرقوه ، فهل نعود الى الله تعالى ونجتمع ؟ هل ننتظر الى أن يذهبوا الى الروضـة الشريفة ، والمسجد الحرام بعد المسجد الأقصى ؟ •

قرر مجمع البحوث الاسلامية أو قرر مؤتمره الأخير وما قبـله انشاء مكتب لبيان ذلك ، ولكن لم ينشأ المكتب ، ولم يبدأ العمل •

١٤٧ — لقد ذكر من قبـل فى ذلك البحث أن مجمع البحوث الاسلامية نواة لمجمع أوسع شـمولا ، وأعم نفعا وأكثر عمـلا ، ولكن ثمة معوقون لا يؤمنون به ، فقد حدث أن أحد المسئولين ذهب الى أحد المؤتمرات الاسلامية فى آسيا ودعا الى نقيض ما قرر المجمع فى مصر ، نعم ان المؤتمر لم يوافق على ما طلب ولكن هذا صور أن المجمع فى مصر يوجد من لا يؤمن به ، وبعضهم من المشتغلين بالمسائل الاسلامية ومن له اشراف عليه •

واذا كان نواة للمجمع المرموق المطلوب ، فانه بلا ريب يجب أن يكون فى ظل الجامعة الاسلامية ، ومجلس ادارتها الذى سنتكلم عنه قريبا ، لكى يكون له الاستقلال الكامل ، وان كانت حكومة مصر قد راعت استقلاله ابتداء ، ولم يمس استقلاله الا أخيرا ، وان كان مسا خفيفا •

وانه اذا كان فى ظل الجامعة الاسلامية ، وقد تكونت ، فان قراراته ستكون

موضع التنفيذ ، اذ أن الحكومات الاسلامية ستكون منفذة لقراراتها وقرار الهيئات المستظلة بظلها الوارف ٠

وانه يجب أن يكون له فروع فى البلاد الاسلامية كلها تتولى دراسة الاقليم وحاله الحاضر ، وما يحتاج العلم الاسلامى فيه ، ويكون لفرع المجمع نوع اشراف على الدراسة الدينية فى تلك البلاد ، وتوجيهها بحيث لا تكون مجانبة لما تدعو اليه مقاصد الجامعة الاسلامية التى هى القوة المسيطرة على الثقافات كلها ٠

وغير بعيد ما ذكرناه من أنه يجب أن يكون ممثلا لكل الأمم الاسلامية فى مركزه العام ، بحيث يكون المركز العام له أعضاء ، ممثلون للمجامع الفرعية ٠

وان المجمع الرئيسى وفروعه يجب أن يعنى عناية خاصة بالأقليات الاسلامية فى كل البلاد ، بحيث يمدها بالثقافة الاسلامية ، ويعينها على رفع الظلم ان كان ، ويسهل لها الانتقال الى بلد اسلامى قريب ان لم يتيسر رفع الظلم لكيلا يعيشوا مستضعفين فى الأرض ، والله تعالى يقول : « **ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا ، ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما** » ٠

وانه يجب على المجمع بعد دراسته أن يبلغ مجلس ادارة الجامعة الاسلامية حيال هؤلاء المستضعفين ، وليستعد لعمل ما ينبغى عمله سياسيا ودوليا ، بل حربيا ان أوجبت الحال ، حتى لا يخذل مسلما فى موضع يحتاج فيه الى النصرة ، فان رفع الضيم هو سبيل العزة ٠

وقد سارت الدولة العثمانية تنحدر نحو الهاوية من وقت أن تركت الأندلس تأكلها ذئاب الانسانية ولم تمنعها قوتها الحربية من التردى وان حاول حكامها أن يسموا أنفسهم أمراء المؤمنين •

الجماعة العلمية أوسع شمولا :

١٤٨ — اذا كان المجمع الاسلامى واسع الشمول فى الاتصال بالبلاد الاسلامية وهو المنبه لما يجب من الدراسات الدينية عامة ، واليه ينتهى التجمع العلمى الدينى للاسلام ، واذا كان كذلك ، فان الجماعة العلمية أشمل فى موضوعاتها من مجمع البحوث وفروعه ، وان شئت فقل ان مجمع البحوث الاسلامية مع شموله هو وفروعه ، عندما توجد ، شعبة من الجماعة العلمية ، اذ هو شعبة العلم الاسلامى واحياء تراثه ، ونشره ، وتثقيف المسلمين بالثقافة الاسلامية الصحيحة ، والجماعة العلمية يدخل فى عموم موضوعاتها ، اذ أنها تشمل كل علوم الحياة والدين •

فهى التى تنظم الدراسات الاقتصادية ، والدراسات الهندسية والدراسات الكونية والطبيعية والدولية وهكذا •

انه لا بد أن نتسلح بكل ما يتسلح به أعداء الاسلام ، وهم الآن يتسلحون بالعلم ، بل ان سلاحهم ثمرة لعلومهم فاذا لم نعد لهم العدة ضعنا بينهم ، والله تعالى يقول : ((**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**)) ، وقوة هذا العصر العلم فهو قبل شجاعة الشجعان ، بل ان شجاعة الشجعان لا تغنى شيئا بجواره •

وان هذه الجماعة العلمية المكونة من كل خبراء العلم فى الهندسة والطب والكون ، والطبيعيات ، والكيماويات ، والفضاء وغيرهم من أهل الخبرة •

وان عمل هذه الجماعة العلمية :

أولا: دراسة ما تحت يديها من العلوم ونشره فى الأوساط العلمية فى البلاد الاسلامية ، ومتابعة تنفيذه لدى جهات الاختصاص •

ثانيا : متابعة الدراسات المختلفة فى اللغات الحية ودراستها والاشارة الى ترجمة ما ينبغى ترجمته منها • وما يكون فيه فائدة العلم فى البلاد الاسلامية فى دأب ومن غير قصور •

ثالثا : تشجيع الدراسات الخاصة • وتهيئة الأسباب للدارسين الباحثين فى الطب وسائر العلوم •

رابعا : أن يكون لهـذه الجماعة فروع فى كل الأقاليم الاسلامية توافيها بالبحوث المبتكرة ، والمتبعة ، وما يستجد فى البلاد الأجنبية من معلومات فى الكون والانسان • اننـا يجب علينا أن نساير ركب العـلم • ولا نتخلف عنه ، فان من يتخلف عنه يعيش فى ضـلالة عمياء ، لا يعرف فيها ما يعوقه وما يحميه •

انه قد أنشىء فى مصر مراكز قوميـة للبحث العلمى ، وهى بسبيل أن تنتج ، ولكن انتاج التابع ، وأحيانا تجيئنا الصحف السيارة بخبر عن طبيب مصرى ينسب اليه اختراع دواء أو مهندس ينسب اليه ابتداع آلة من الآلات • ونتمنى أن يعم ذلك البلاد الاسلامية وأن يكون العمل اسلاميا ، والانتـاج اسلاميا •

لقد علم أسلافنا أوربا علم الطب ، وغيره ، ولا نريد أن نعود معلمين لهم كما ابتدأنا ، ولكن نريد أن نسابقهم فى الركب ، ولا نتخلف عنهم ، وانما يذهب ضياعا من يكون وراء القافلة التى تسير ، لا يصح أن نرضى بمقام المخلفين عن العلم ، بل نريد السبق اليه ، فلهم عقول ولنا عقول •

ان المتعصبين من الأوروبيين ، ومن لف لفهم ينسبون تخلفنا الى ديننا ، « **كبرت كلمـة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا** » ولو عكسوا لكانوا منصفين ، لأننا ما تخلفنا الا يوم تركنا ديننـا ، ولم نتدبر قرآن ربنا ، وهو الذى يحث على العلم ، ويطلب النظر فى الكون •

ان أول آية نزلت من القرآن الكريم هى الدعوة الى العلم ودراسة الانسان اقرأ قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » .

وان الدعوة الى النظر فى الكون منثورة فى القرآن لا تكاد تجد سورة من سوره الا وجدت فيها دعوة الى النظر ، اقرأ قوله تعالى : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** » .

واقرأ قوله تعالى : « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج** » وهكذا نجد الكثير من تلك الآيات البينات فى القرآن الكريم ، ولكننا تركنا التبصرة ، وتبصر أعداؤنا فسرنا وراءهم ، فهل لنا أن نعلم علم الكون ، وأن يكون لنا معشر المسلمين جماعة تقودنا اليه .

الوحدة الاقتصادية

١٤٩ — قلنا أننا نقتبس أحكام الوحدة ونظمها مما سنه الفاروق فى عصره رضى الله عنه . فقد كان لكل اقليم شخصيته ، وأمير المؤمنين مسيطر عليهم . وموجه أوامره اليهم ، خصوصا ما يتصل ببيان الأحكام الشرعية ، فكانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى التى يصدر عنها بيان الأحكام الشرعية .

وكان الاقتصاد الاسلامى متصلا بين أجزاء الدولة غير منقطع ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام فى حكم الأقاليم الاسلامية فى عهد الفاروق ، ومن بعده فى عهد عثمان وعلى ، ثم من بعد ذلك فى عهد الملوك الذين حكموا باسم الخلافة الاسلامية ، وكانت الوحدة الاقتصادية قائمة حتى بعد تفرق المسلمين ، فلم يكن ثمة جمارك مانعة ولا مكوس ظالمة ، الا ما ابتدع من ذلك فى عهد العثمانيين .

وان الارتباط الاقتصادى جزء جوهرى من الوحدة الاسلامية ، لأن قوى الامم فى هذا العصر تقوم على الاقتصاد ، فأمريكا مثلا قوتها قائمة على الاقتصاد الأمريكى ، وان مواردها أعظم الموارد ، ومصانعها من أعظم المصانع ، والاقتصاد أداة من أدوات الحرب بل هو أقوى عدة .

وهو فى كثير من الأحيان يبعث الحروب، وليست الحروب الآن أكثرها الا تنازعا على ينابيع الثروة فى الأرض ، فحيثما كانت هذه الينابيع أشرأبت اليها الأعناق ، وتحركت المطامع نحوها ، وكان التكالب للوصول اليها أو الاحتفاظ بها ، والمغالبة المستمرة فى خفاء واعلان هى الاستيلاء على ركاز الأرض ومعادنها .

وانه بسبب تفرقنا الذى أنتج ضعفنا قد صارت ينابيع الثروة عندنا التى هى فى حوزتنا وفى أرضنا وفى ملكنا معشر المسلمين موضع تنافس أعدائنا ، بل قد أخذها الذين يقاتلوننا جهرا وفى الخفاء ، يأخذونها منا لتكون قوة لهم يمدون بها أعداءنا ، وحكامنا يصادقون الذين يدبرون قتلنا ، ويغتالون الخير فى أرضنا ، ويأخذونه أخذا لما ، ولا يلقون الينا الا الفتات المتساقط من أيديهم .

يجعلون منا أدوات الاستغلال ، وآلات العمل ، والنتــائج لهم ، فنحن مسخرون لهم ، وما أبقونا الا لهذه السخرة . وأضعفونا وأمدوا اليهود وغيرهم بالأسلحة التى يقتلوننا بها . وليمكنوهم من الاستيلاء على الأرض المقدســة ، ويفتحوا لهم الطريق الى البيت الحرام ، والروضة الشريفة الطاهرة .

لذلك كان لا بد أن يكون لنا اقتصاد موحد لينتفع المسلم بخيرات أرضه ويذهب عنه رق الاستغلال بعد رق الاستعمار ، ورق السخرة التى تجعلنا نحن المسلمين كأننا عبيــد الأرض ، وان الوحدة الاقتصادية تتقاضانا أن نتعاون جميعا على استغلال ينابيع الثروة التى تجود بها أرضنا والتى تكتنزها فى باطنها لتكون لنا أولا وبالذات ، ولا يكون لغيرنا الا ما يفيض عن الأقاليم الاسلامية ، بعد أن تستوفى حاجاتها منها .

ان الأجنبى يستولى على نفط الحجاز كله وعلى نفط الكويت كله وعلى نفط العراق كله وعلى نفط ايران كله، ولا يعطى أهل البلاد الا القليل ، ويجعل له أصدقاء ممن يطوعون أنفسهم لصداقته ، ويؤثرونه على قومهم ولا يؤثرون قومهم ودينهم عليــه . ويتعللون بالتعللات لتبرير تلك الصداقات ، وانه لمن المؤسف حقا وصــدقا أن مدخرات الدول المنتجة للنفط ترســل الى المصارف الأوروبية ، وتختزن فى خزائنها ، وتنفق من غلاتها تلك الدول فيما يفيــدها ولا يفيدنا ، فهى تأخذ منا الأصل ، وتأخذ بعض ثمرات الأصل من أموالنا ، وكل هذا يستخدم ضدنا ، ويرسل أسلحة تستعمل للفتك بنا فى ميادين القتال . ولازعاج الآمنين .

وفى المجتمعات الدولية يلوون ألسنتهم بالبــاطل ، وان وجد فى بعضهم

شعور بالحق جمجموا ولم يتكلموا • لأن العداوة المستكنة فى قلوبهم تجعلهم يترددون فى الحق • وان رأينا من بعضهم كلمة ، فليست للانصاف المجرد ، انما هى من قبيل المغالبة فى أمرنا أو الرغبة فى أمر يريدون أخذه بتلك الكلمات المعسولة •

١٥٠ — ان البلاد الاسلامية قد جمعت خيرات الدنيا ، ففيها معادن الأرض ، فاذا اتجهنا الى استخراج كل هذا من أرضنا لأنفسنا فأقمنا المصانع ، حيث يكون وقودها بجوارها ، وجمعنا حصاد الأرض ، ووزعناها بالقسطاطس بيننا كانت لنا قوة ، وكان لنا العيش الوفير والخير الكثير ، وما كنا عالة على غيرنا فى قوتنا أحيانا ، ولا كلأ فى ثمرات أرض مثلها عندنا ، وما كنا من بعد ذلك أجراء لغيرنا ، وكأننا الغرباء فى ديارنا • اننا لا نستطيع الانتفاع بخيرات أرضنا الا اذا تعاونا جميعا على استغلال ينابيع الثروة ، ولا يكون لغيرنا منها الا ما يكون فائضا عن حاجة كل اقليم اسلامى كما أشرنا • لقد كان المسلمون الأولون يعرفون ذلك التعاون فى صدر الاسلام ، ومن بعده حتى تفرقوا وتدابروا • وتدخل عدو الاسلام فيما بينهم ، فصاروا تابعين لغيرهم ، ليس لهم ارادة فى شؤون أموالهم ولا تصريفها ، يؤكلون ، ولا يأكلون ، ويسخرون لمنافع غيرهم ، ولا ينتفعون ، ويتنازع الأعداء على أرضهم ، كما تتنازع الذئاب على قطيع من الشاء •

ان التعاون الاقتصادى الذى أوجبه القرآن الكريم ، وهو الذى يكون الوحدة الاقتصادية ، يتقاضانا أمورا :

أولها : أن يكون أهل الخبرة الذين ينظمون الاقتصاد فى أرضنا منا لا من غيرنا ما دامت فينا الكفايات ، واذا نقصت كفايات رجالنا — زودناهم بالعلم فى بعوث نبعثها ، أو برجال ندعوهم يزودوننا بما ينقصنا من علم على أن يكون توجيههم هنا ، تحت سمعنا وبصرنا •

واننا اذا اتجهنا مضطرين الى احضار خبراء من غيرنا ، نطلبهم من البلاد التى لم نجرب عليها شرا أو تكون مصلحتها فى أن يقوم الاقتصاد بيننا على أسس سليمة ، وعلى أى حال نشدد الرقابة عليهم ولا نترك الأمر فرطا •

ثانيها : أن تكون المؤسسات الاستغلالية منا ، وتكون رؤوس أموالها منا ، لا من غيرنا ، فتكون لنا بالرجال والمال ، فان الأجانب عندنا لا يريدوننا الا مسخرين ، ولا يلبثون الا قليلا حتى يتخذوا أموالهم سبيلا للتحكم فينا ، كذلك كانوا يفعلون فى الماضى ، وانهم يتربصون بنا الدوائر لنقع فيما وقعنا فيه من قبل ، فعلينا أن نتخذ من الماضى عبرة ، والا وقعنا فريسة أيديهم ، ان شركات النفط فى الأراضى الاسلامية ليست فى أرض الاسلام ، انما هى فى انجلترا وأمريكا ، ويجب علينا أن نجعلها فى أيدينا بشركات منا ، فان كسبت هذه المؤسسات نلنا الكسب كاملا • وان خسرت خسرنا وعالجنا أسباب الخسارة •

ان هذه الشركات تستمد حكوماتها القوة منها ، وتمدها حكوماتها بالقوة •

ثالثها : ان التعاون الاقتصادى أو الوحدة الاقتصادية التى نتغياها توجب أن يكون للمسلمين نقد موحد ، يكون للتعامل فيما بين الأقاليم الاسلامية بعضها مع بعض ولا يلغى بذلك النقد الاقليمى ، بل انه يبقى ليسهل التعامل بين الشعب فى الاقليم •

فيكون بجوار النقد الاقليمى نقد موحد جامع تنسب اليه كل النقود الاقليمية بمقاديرها ، فيقدر فيه الدينار العراقى والكويتى ، والليرة السورية ، وغيرها من النقود الاقليمية •

وذلك ليسهل التعامل بين البلاد الاسلامية من غير أن يتخذ النقد الأجنبى وسيطا فى التعامل بين البلاد الاسلامية فيرفع ويخفض على حسب ما يريد الأجانب فينا •

مصرف اسلامى عام :

١٥١ — رابعها : يجب أن يكون للمسلمين مجتمعين مصرف كالمصرف المركزى فى أمريكا ، ولكن يكون هذا اسلاميا خالصا ، ويقوم على ما يحله الاسلام ، وما يحرمه يكون ممنوعا ، وان ذلك المصرف يجب أن يكون خاليا من ايداع

النقود بفائدة . فان مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية قرر فيما قرر أن فوائد المصارف ربا ، ما دام المقرض يأخذ الفائدة من غير أن يعرض للخسارة ، وقد جاء ذلك القـرار فى المؤتمر الأول وقد أيده المؤتمرون ، وأرسـل الى علماء المسلمين فى كل البقاع الاسلامية ، فلم ينكر ذلك أحد من علماء الدين وان ضج حوله بعض علماء الاقتصاد الذين يؤمنون بالاقتصـاد الحاضر المشوب باليهودية أكثر من ايمانهم بالقرآن الكريم ، ومبادىء الاسلام .

وان المصرف يقوم بأعمال جليلة منها :

(أ) أنه يمـد المؤسسات الاسـلامية التى تستخرج خيرات الأراضى الاسلامية من ينابيعها ، والمؤسسات التى تصنع من هذه الكنوز التى تخرجها الأرض ، ويسهل تبادل السلع بين المسلمين .

على أنه فى امداده للمؤسسات الانتاجية لا يستغلها بالفائدة ، بل يكون شريكا لهذه المؤسسات ان ربحت شاركها بسهم مقدر فى ربحها ، وان خسرت كان عليه من الخسارة بمقدار ما أسهم فى رأس مالها المستغل .

وقـد حقق ذلك صديقنا المرحوم الأستاذ محمد عبد الله الخولى ، وقد قام فى مصر مصرف ابتدأ صغيرا وحرم الفائدة تحريما قاطعـا ، وسار على نظام الاقراض مع المشاركة فى الكسب ان كسب من أقرضه ، وعلى تحمل الخسارة معه بمقدار ما أعطى ان خسر .

وقد قام ذلك المصرف بأعمال جليلة ، واتسع نطاقه ، وانتقل من مدينة الى مدينة ، ولكن سرعان ما حاربه الذين يؤمنون بالاقتصاد الربوى اليهودى ، أكثر من ايمانهم بالقرآن، فوئدت فكرته فى مهـدها ، بعـد أن بدا خيرها . ومنشىء ذلك المصرف استدعته ألمانيـا لتستفيد من تجربته وخبرته ، فكان خيره لغيرنا .

(ب) ومدار أعمال ذلك أنه يسهل تبادل النقد الموحد بين البلاد الاسلامية ،

ويكون له فروع فى كل بلد اسلامى ، ليسهل التبادل النقدى ، ولا يكون ثمة عسر فى ذلك التبادل .

(جـ) أنه يسهل نقل حاصلات البلاد الاسلامية بعضها الى بعض ، مع الاحتفاظ بقيمتها من غير وكس ولا شطط .

ومن الحق علينا أن نقول : اننــا وجدنا بادرة خير تتجه بالمسلمين الى الوحدة الاقتصادية .

فقد كان من قرارات المؤتمر الاسلامى الذى انعقد فى باكستان فى الشهر الماضى (شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٠) ــ من وزراء خارجية البلاد الاسلامية أو من انتدبتهم الحكومات لحضور ذلك المؤتمر ــ تكوين مصرف اسلامى ، وعهدوا الى المندوب المصرى أن يعمل على اعداد مشروع لانشاء هذا المصرف مع من يرى الاستعانة به من الخبراء فى الاقتصاد .

ونحب هنا أن ننبه الى أمرين لا بد من العناية بهما :

أولهما : أن يكون الخبراء الاقتصــاديون الذين يعينون برأى المندوب المصرى الفاضل من الذين يؤمنون بالقرآن ، أكثر من ايمانهم بالاقتصاد المولود فى أحضان اليهود .

ثانيهما : أن يكون ذلك المصرف خاليا من المعاملات الربوية ، والا لا يكون اسلاميا ، بل يكون له من الاسلام الاسم دون الحقيقة .

وصار مصرفا ككل المصارف وفائدته تكون سياسية لا دينية ، والله الهادى الى سواء السبيل .

لا جمارك بين المسلمين :

١٥٢ ــ وخامسها : أن تزال الحاجزات الجمركية بين المسلمين ، فلا مكوس ولا ما يشبهها تؤخذ من الحاصلات الزراعية ، والمعادن التى تصدر من بلد

أسلامى الى آخر ، وذلك لأننا أمة واحدة بحكم الاسلام وهو الحكم الذى لن ترضى حكومة غيره ، وأن المكوس أو الجمارك هى نوع من الاحتكار وتؤدى اليه ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال « المحتكر خاطىء ، والجالب مرزوق » فاذا نحن فتحنا الأبواب ليأخذ كل اقليم حظه من خيرات الاقليم الآخر ، فقد فتحنا باب الجلب ، وغلقنا باب الاحتكار ، وبحسب المال فتحنا باب الرزق الحلال وغلقنا باب الحرام .

وان عمر بن الخطاب الذى فتحت أول ما فتحت فى عهده الأقاليم ، ما كان يضع محاجزة بين اقليم وآخر ، لأن خيرات الأرض لمالك الأرض والسموات ، توزع على عباد الله كل بحسب حاجته .

واذا كان لا بد من وضع جمارك فعلى ما يخرج من الديار الاسلامية الى غير المسلمين ، فانه لا يصدر الى غير المسلمين الا ما يفضل عن حاجات المسلمين جميعا ، فلا تصدر مادة تكون نادرة فى اقليم اسلامى الا بعد أن يستوفى حاجته ، ولا يستورد من بلد غير اسلامى مادة تكون موفورة فى اقليم اسلامى ، ولو كان الاقليم المستورد محتاجا الى هذه المادة ، فانه يستوردها من الاقليم المسلم .

ولذلك يجب أن تكون هناك دراسة اسلامية شاملة لخيرات كل اقليم ، وما يحتاج اليه مما لا يكون عنده ، ويرسل فائض خيره الى من يحتاج اليه ، ويرسل اليه ما لا يكون عنده .

وبذلك يتحقق الاكتفاء الذاتى للمسلمين ، وأرضهم تكفيهم ، ويفيض منها فائض يرسل فى تنظيم دقيق الى غيرهم .

ان الأراضى الاسلامية فى آسيا وافريقية وبعض أوربا ، فيها من الخيرات ما يكفى البلاد الاسلامية الضرورى منها والحاجى والترفيهى .

ان الوضع القائم غير سليم ، ان من البلاد الاسلامية كمصر من يستورد

القمح من أمريكا ، ومن فرنسا ، بل من استراليا ، وهى فى أشد الحاجة • بينما للجزائر وحدها تستطيعأن تمد البلاد العربية كلهـــا ، وهى تتجاوز المائة فى الحسبة ، وقمحها أجود قمح ، ولكنها تصدره بالثمن لغير المسلمين لتشترى به أسلحة ، ولعله من بعد ذلك يباع المسلمين •

وهكذا غير القمح مما يحتاج اليه ، ولا يستغنى عنه ، يجتلب من البـــلاد الأوروبية ، ولعله فى الأصل مجلوب من أرض اسلامية ، والوسيط يتحكم فى المسلمين شراء وبيعـــا ، فهو يشترى بأبخس الأثمان ، أو بأقل ما يمكن أن يشترى به ، ويتحكم فيه ، ويضن به على البلاد التى تحتاج اليه من البلاد الاسلامية حتى تخر له صاغرة ، ويشترط لها ما يشاء من الشروط لأنها محتاجة اليه ، وهى فى الحقيقة غنية بأرضـــها من الأقاليم الاسلامية ان اتجهت الى توحيد الغاية •

ان الأرض الاسلامية فى كل الأقاليم الاسلامية تكفى أهلها ، ولا تحتاج قط الى غيرها ، وغيرها هو الذى يحتاج اليها •

ان البلاد الاسلامية فيها كل الأجواء ، ففيها النباتات التى لا تنبت الا فى الأجواء الحارة ، وفيها الدوحات من الأشجار القوية البعيدة الجذور فى الأرض التى تكبر فى البلاد الباردة ، وفيها المعادن والكنوز ، وفيها كل ما يتصور أن تنتجه أرض ، ولكن كان الاستعمار فى الماضى يحرمها من ثمراتها ويستبد هو بكل خيراتها ، وما يبقيه لا يكفى الا ما يقيم الأود •

وانه اذا كانت الوحدة الاقتصادية بين البلاد الاسلامية لا تحتاج الى غيرها ، وغيرها يحتاج الى ما عندها ، وانّنا اذا اعتمدنا على أرضنا وعلى أنفسنا اتجهنا الى استخراج كل ينابيع الثروة فى بلادنا ، فاذا كنا لا نطالب أمريكا بقمحها ولا روسيا بما عندها • ولم نستجد من هنا وهناك ، فاننـــا لا محالة واجدون فى أرضنا كل شيء وسنعمل على استخراجه ، فنستخرج من السودان ما نطيب به أرضه ونحيى مواته ، وأن فيه ســبعة ومائة مليون من الأفدنة صالحة للزراعة ، وفيها أطيب الفاكهة التى تترك من غير جنى ، حتى تتعفن ،

وتصير مصدر داء ، بدل أن نجنى منها ثمرا يانعا ، وطعاما شهيا ، والعراق فيه نحو ستة وثلاثين مليونا من الأفدنة ، لا يزرعون منها الا نحو سبعة ، والباقى واحات شاسعة قد أهملناها ولا نأخذ منه قليلا ولا كثيرا ، ونتكفف مع ذلك أيدى الذين لا يألوننا الا خبالا .

اننا حينئذ نحيى موات أرضنا ، ونستنبت نباتها ونستغل خيراتها . وانه اذا كان لدينا ، الاكتفاء الذاتى ، وقد صار فينا مهندسون ، وصناع مهرة أقمنا المصانع لتصنيع بلادنا ، وأصبحنا لا نحتاج الى آلات نستوردها ، ولا الى معدات نطلبها ، بل نقدم لغيرنا ما يفيض عن حاجات الأقاليم الاسلامية ، ونمد الانسانية بكل طاقاتنا ، ولا نكون فرصة تنتهز ولا منالا لمن يريدنا أتباعا له من هذا المعسكر أو ذاك المعسكر ، بل نكون سادة فى أنفسنا ، وسادة لما وهبنا الله تعالى من خيرات ، ولا نكون طعمة يتطعمها غيرنا .

الهجـرة

١٥٣ ــ يقول الله تعالى مرشــدا هاديا : ((**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليــه النشــور ، أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ، فاذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصــبا فستعلمون كيف نذير**)) يحرضــنا القرآن الكريم على ألا نكون أحلاس الأرض ، بل نهــاجر حيث السعة ورغــد العيش ، ويقول سبحانه فيما تلونا آنفا ((**ومن يهاجر فى سبيل الله يجــد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة**)) .

وانه يلاحظ أن الأمريكان الآن بمالهم يأخذون أبناءنا اليهم ، ليعمروا ديارهم ، ويقوموا بالواجبات التى تتقاضاها الحياة عندهم .

وانه فى الوحدة الاســلامية يجب أن تكون الهجرة الى أرض الاسلام ، فيهاجر أهل الخبرة من الأقاليم التى فيها علم مادى بالحياة وما فيها من مادة ليستخرجوا ينابيع الثروة فيها ، ويمنعوا أن يجىء اليهم الذين يستغلونهم لأنفسهم ، ويتعرفون الينابيع ليستلبوها .

نريد أن تهاجر هذه الكفايات العلمية الى الأقاليم الاسلامية ، وفيهــا الخير العميم والنفع العظيم ، وارضاء الله سبحانه وتعالى ، ورضوانه تعالى أكبر .

وانه فوق هجرة العلماء فى داخل البلاد الاسلامية بحيث يتوافر فى كل بلد اسلامى رجال من أهل الخبرة فى الزراعة والصناعة ، وادارة الدور المالية خصوصا فى الشعوب المتخلفة فيها .

انه فوق هذه الهجرة العلمية ، يجب أن يفتح باب الهجرة ، من البلاد الآهلة بالسكان الى البلاد القليلة فى أعدادها ، لأن السكان فى البلاد الاسلامية يتكاثفون فى اقليم ، ويقلون فى اقليم ، وكما يفيض كل اقليم اسلامى بما عنده

من فائض الى الأقاليم : فخير فائض هو الأنفس البشرية ، فالبلد الذى تتناسب أرضه مع عدده لقلتها نسبيا بالنسبة لعدد السكان تفيض بالأيدى العاملة على البلاد التى فيها هذه الأيدى •

ان كل الأراضى الاسلامية فى مجموعها يزيد على ما يحتاجه كل السكان لو تعاونت كل الأقاليم فى توزيع سكانها على حسب الحاجات •

اننا نجد بعض البلاد الاسلامية قد اكتظ بسكانه حتى بلغ أقصى درجات الكظة •

ونجد بعض البلاد الاسلامية خالية ممن يعمرها ، كما ذكرنا فى السودان ، وفى العراق ، ومثلهما كثير •

فاذا فتح باب الهجرة ، ونظمت ، وأحس كل مسلم أنه اذا انتقل الى أرض من أرض الاسلام ، انما ينتقل الى أرضه ولا يكون غريبا بها ، فان ذلك يكون فيه الخير ، وتستخرج خيرات المسلمين ، ولا تكون مجاعة فى بلد اسلامى ، ويمن الغرب بأنه يسارع الى اغاثته ، وهو يأخذ ماله ، ويدفعه الى هـذه المخمصة •

وبهـذه الهجرة وبما ذكرنا ينتفع المسلمون بكل قواهم ومواردهم من زراعية ، وصناعية ، ومعدنية ، وانسانية •

اللهم هيىء لنـا من أمرنا رشـدا • وأذهب عنا الأهواء التى فرقتنا ، واهدنا الى ما يجمع الشمل ، ويكشف الغمة •

وحدة السياسة الخارجية

١٥٤ — نقصد بوحدة السياسة الخارجية أن تكون علاقة الأقاليم الاسلامية متحدة فى عداوتها وولائها ، وذلك يقتضى أمرين :

أحدهما : ألا يكون بين أى اقليم وآخر من الأقاليم الاسلامية خلاف سياسى يجعل أحدهما يناوىء الآخر فى سياسته بالنسبة للعلاقات الخارجية . ولكل سياسته الداخلية ، ونظمه الدستورية والقانونية بشرط ألا تكون على خلاف القرآن والسنة ، فالأحكام الثابتة بالقرآن والسنة من غير تأويل عامة بالنسبة للمسلمين أجمعين ويتبع ذلك بلا ريب أن تكون الشورى هى أساس النظام وعلى أساسها يكون النظام . ومن غير تدخل فى أصل الحكم أيكون فى بيت واحد ، أم يكون من غير تعيين ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فانه يجب أن يتحقق مبدأ الشورى فى الاختيار وفى الأحكام ، وتنفيذها ، فلا استبداد ولا ما يشبهه ولا ما يؤدى اليه بأى صورة من الصور .

ثانيهما : ألا يدخل أى اقليم من الأقاليم الاسلامية فى أى اتفاق سياسى منفردا ، لأن ذلك قد يؤدى الى أن يتخالف المسلمون فى اتفاقاتهم ، فيوالى هذا دولة يعاديها اقليم آخر من الأقاليم ، فسدا للذريعة لا يجوز الاتفاق الانفرادى لأى ولاية أو اقليم اسلامى ، حتى يكون الجميع على ولاء واحد ، واننا فى وحدتنا الاسلامية نتبع التجربة التى حدثت فى عهد الراشدين ، ثم فى عهد ملوك المسلمين : عندما كانت الوحدة الاسلامية قائمة ، وان لم يكن النظام اسلاميا من كل الوجوه على ما أشرنا من قبل ، اننا نريد وحدة فيها حرية الأقاليم فى ادارة شؤونها ، ولكن لها وحدة جامعة هى الجامعة الاسلامية ، وقد يكون لها استثناء جزئى بأن يكون اقليم ناء قد اضطرته الأحوال لأن يعقد عقد عدم اعتداء مع الدولة التى تجاوره ، فان ذلك يجوز أن يقع ، ولكن يجب اعلام مجلس ادارة الجامعة الاسلامية ، ولمجلس الادارة أن يوافق عليه ليكون موثقا من الجامعة الاسلامية ، ويشترط لموافقته ألا يكون فيه ما يمس اقليما أو ولاية اسلامية .

وان الوحدة فى السياسة الخارجية توجب أن يكون المسلمون مجتمعين قوة دولية موحدة ، فلا تشذ واحدة منها عن الأخرى .

وقد يكون من الخير أن يكون لكل اقليم صوت مستقل فى المجتمعات الدولية ولكنهم عند التصويت فى أمر يجب أن يكون صوتهم متحدا ، ليكونوا قوة مرهوبة يحسب حسابها ، وان ذلك التكتل يقع فى المجتمعات الدولية على بقاء كل دولة من الكتلة بصوتها الذى تبديه ، فدول أمريكا الجنوبية تكون كتلة دولية ، ولكل دولة صوتها المستقل مع اتحادها جميعا ، وهى تتفق قبل التصويت : والدول الاشتراكية تكون كتلة ، ولكل دولة صوتها ، ولكنها متحدة فى السياسة العامة والاتجاه السياسى العام .

وان ذلك المبدأ يسير على أساس أن الوحدة الاسلامية ليست دولة واحدة ، ولكن لكل اقليم شخصيته مع الاتحاد العام فى العمل والغاية ورفعة البلاد .

الأحلاف :

١٥٥ — أساس السياسة للوحدة الاسلامية أن تكون محايدة فى الجملة لأنه مع تنازع المآرب والغايات فى دول العالم لا يصح أن تنحاز لمجموعة من الدول ضد مجموعة أخرى ، لأنها لا تكون عاملة للاسلام ، بل تكون عاملة لمن انحازت اليه .

ولذلك لا يصح أن تشترك الوحدة الاسلامية فى أى حلف ، وذلك لما يأتى :

أولا : انها ان اندمجت فى حلف فقادة الحلف ، والدول العظمى فيه هى التى تسيره ، وتوجهه ، وفى هذه الحال تفقد جزءا من استقلالها السياسى ، ولأنها تكون سائرة مع القوى ، ظلم أو عدل ، استقام أو اعوج ، واعتبر ذلك بحال بعض الدول الاسلامية التى دخلت فى حلف الأطلنطى فانها لا تسير سياسته ، وليست عندها الطاقة لأن تسير سياسته ، أو يكون لها دخل فى

تسييرها • ولقد حدث أن أسلحة الأطانطى كانت مسخرة لضرب البلاد الاسلامية التى تريد أن ترفع نير الاستعمار عنها ، كالجزائر ، فان أسلحة ذلك الحلف هى التى كانت تضرب ثورة الجزائر التى انتهت بأن ألقت الاستعمار فى البحر المتوسط •

وانه عندما أراد أعداء الحق انشاء حلف سموه حلفا اسلاميا كان المقصود منه أن يجعل المسلمين جميعا فى قبضة الأمريكان الذين لا يرجون للاسلام وقارا ، وسياستهم ضد الاسلام على خط مستقيم •

وثانيا : ان الأحلاف تجعل الجامعة الاسلامية تتعرض للهجوم ممن كان الحلف ضدهم •

وثالثا : أن هذه الأحلاف فى واقعها فى هذه الأيام تناقض مبدأ الاسلام فى أن الأصل فى العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، اذ يقول الله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة**)) ويقول سبحانه تعالت كلماته : ((**وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**)) وفوق ذلك فان الأحلاف العسكرية فى حروب هذا العصر الذى أساسه التغالب ، ولا يتحرى العدل ، بل يقع فى الظلم ، هو تعاون على الاثم والعدوان • والله تعالى يقول : ((**وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**)) •

ورابعا : أن الاسلام دعا الى ألا يقاتل المسلمون من لا يقاتلون ، بل يكون غير منحاز ، ولقد قال تعالى بعد الأمر بقتال المعادين للاسلام الذين يعتدون على المسلمين ، قال سبحانه وتعالى : ((**الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**)) ويأمر المسلمين بألا يقاتلوا من يلقى السلام ، فيقول سبحانه : ((**يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله ، فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبتغون عرض**

الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ، فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » •

وهكذا نجد النصوص القرآنية وأعمال النبى صلى الله عليه وسلم تدل على أن التحالف الذى يدعو الى التكتل ، وأن يكون المتحالفون ضد طائفة من النـــاس ، ولا يكون أســـاس التحالف دفع الظلم ، ومنع الأذى ، بل يكون الاساس هو المغالبة بين مذهبين ، أو اتجاهين ، أو نوعين من الناس ، ويكون فيه خروج عن الاســـلام وبذلك يفترق الحلف عن الميثاق الذى يكون للمودة والمعاونة •

العهود أو المواثيق أو الأحلاف الفاضلة :

١٥٦ ــ اذا كانت المحالفات مــع غير المسلمين لا تجوز ، فالمعاهــدات تجوز ، وفرق بين الحلف والمعاهدة لأن الحلف اتفاق على الحرب ، والاتفاق على الحرب مع غير المسلمين يجر الاقليم الاسلامى الى أن يحارب ، سواء أكانت الحرب جائزة فى الاسلام أم لا ، لأن الحرب فى الاســلام لا تجوز الا لدفع الاعتداء ، أو لدفع الفساد فى الأرض كما قال الله تعالى : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »** فالحرب الاسلامية حرب فاضلة تدفع اليها الفضيلة وتظللها الفضيلة ، وذلك غير مضمون فى الأحلاف المطلقة التى تكون ضد مذهب ، أو ضد جماعة ، أو تكون عونا للقوى فى الأرض غربية وشرقية ونحو ذلك •

وان هذا يدفعنا الى أن نقول ان نوعا آخر من المحالفات العادلة يجوز ، كالمحالفة التى تكون للعمل على معاونة الضعفاء ، كحلف الفضول الذى عقد فى مكة قبيل البعثة المحمدية ، فقد عقد فى دار عبد الله بن جدعان حلف قوامه أن المتحالفين يتحالفون لينصرن الضــعيف على القوى ، وليأخذن على يدى القوى ، مارسا حراء وثبير ، ومابل بحر صوفة •

فان هذه محالفة دفعت اليها الفضيلة والنخوة العربية ، وهو فضيلة فى

ذاته ، ولذا قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « حضرت بدار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » ، فهذا النوع من الأحلاف لا يوجد مع الأسى والأسف ، انما الذى يوجد هو الأحلاف الآثمة التى يتحالف فيها الأقوياء ، ليحتازوا العالم ، ويفرضوا على الناس ما يفرضون وهى أحلاف فى أساسها كما ذكرنا تعاون على الاثم والعدوان .

وهذا النوع الذى نستنكره ، وندعو الجامعة الاسلامية الى ألا تؤيده غير الحلف الفاضل الذى أقره النبى صلى الله عليه وسلم ، وندعو الجامعة الاسلامية أن تكون الجامعة الدولية التى تحث على الفضيلة فى الجماعات ، كما يحث الاسلام على الفضيلة بين الآحاد .

وان نصرة الضعفاء ولو كانوا غير مسلمين أشد أنواع البر تقربا الى الله تعالى ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « ابغونى فى ضعفائكم فانما تنصرون وترزقون بضعفائكم لأن العدل خلق الاسلام » ، والله تعالى يقول : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » .

هذا هو الأمر بالنسبة للأحلاف حلالها وحرامها .

أما العهود الموثقة ، فانها تكون انهاء للحرب ، أو تنظيما للسلم . وانه كان لابد للاسلام من أن يضبط العهود والمواثيق ، لأنه جاء لنقض ما يكون باطلا ، وسن ما يكون حقا ، وينظمه .

وان المعاهدات قبل الاسلام كما هى الآن يتخذها القوى لفرض سلطانه على الضعفاء ، حتى اذا قوى الضعيف نبذها ، وقاتل لاخراج نفسه من ذل الضعف الى غطرسة القوة ، وهى الآن كذلك كما أشرنا من قبل ، والاسلام دين العدل لا يفرض المعاهدات الا لمنع الحرب ، أو لانهاء القتال ، أو لتنظيم سلم عادل .

واذا كان الاسلام قد قرر فيما قرر أن الأصل فى العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو فساد يجب دفعه ، فالمعاهدات تكون لانهاء حرب عارضة ، والعود الى حال السلم الدائم واقرار بها وتثبيت لدعائمها لكيلا يكون بعد ذلك اعتداء الا أن يكون نقضا لعهد .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد العهود والمواثيق لتثبيت السلم فعقد مع نصارى نجران وعقد مع اليهود الذين كانوا ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

ولقد جاء فى كتاب كتبه لليهود يثبت فيه عهده ، جاء فيه :

« لكم ذمة الله وذمة رسوله ، على أنفسكم ، ودينكم ، وأموالكم ، ورقيقكم وعلى كل ما ملكت أيمانكم . لا يطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون ، من سافر منكم فهو فى أمان الله ، وأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا اكراه فى الدين » .

وهذا عهد تفيض معانيه بالأمان والحرية ، ولكنهم نقضوه ، وتآمروا مع المشركين ، والشدة تحيط بالمدينة ، والبلاء بلاء ، وما جزاء الخيانة الا أن ينزل بهم ما كانوا يريدون أن ينزلوه بخياناتهم لله ولرسوله ، وللحق والذمة ، وقد كان الصحابة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقدون المعاهدات للموادعة والمسالمة ، ولمنع الحرب ، ومن هذه المعاهدات معاهدة الامام عمر رضى الله تعالى عنه لأهل ايلياء « بيت المقدس » وقد جاء فيها ما نصه : « هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أهل ايليا من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ، ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ، ولا من حيزها ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء أحد من اليهود » .

المعاهدات لا تقر الظلم :

١٥٧ ـ ان المعاهدات الاسـلامية تكون لأمرين : أولهما تثبيت السلم والعمل على استمراره ، وثانيهما : اقامة العدل ومنع الظلم ، ولذلك لا يقرر الاسـلام اطلاق أيدى من يعاهـدونه من الملوك أو الكبراء فى ظلم الرعايا وارهاقهم •

وان الفقهاء المسلمين قد نظروا فى المعاهدات التى تعقـد مع الملوك أو الحكام وقرروا أنها تكون على أساس العدل ، ومصلحة الرعايا قبل مصلحة الملوك والحكام ، ولذلك كان العهـد قائما على أن يعـدلوا مـع رعاياهم ، ولا يرهقوهم • ولقد جاء فى كتـاب المبسوط للسرخسى من فقهـاء الحنفية ما نصه :

« اذا طلب ملك الذمة العقد على أن يترك يحكم فى أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح فى دار الاسلام ، لم يجب الى ذلك ، لأن التقرير على الظلم مع امكان المنع حرام ، ولأن الذى يلتزم أحكام الاسلام فيما يرجع الى المعاملات فشرطه بخلاف موجب عقد الذمة باطل فان أعطى الصلح والذمة على هذا بطل من شرطه ما لا يصلح فى الاسلام ، لقوله صلى الله عليه وسلم : كل شرط ليس فى كتاب الله باطل » •

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين عند اقرارهم العهود والمواثيق التى تسوغ بقاء الملوك على عروشهم يحكمون فى رعاياهم مع بقائهم فى عهد مع المسلمين يشترطون العدل ، لأن الشروط التى تقبل فى المعاهدات هى الشروط العادلة ، وكل شرط فيه ظلم للرعايا يكون باطلا ، وفى موضع اللغو ، ويبيح للمسلمين التدخل لمنعه •

وان ذلك هو الذى يجب أن تعطيه الجامعة الاسلامية فى عهودها لتضرب الأمثال للناس فى اقامة العدل ورفع الظلم ، ولتكون جامعة أسست على تقوى من الله ورضوان ، ولينتشر العدل ، ويذهب الظلم ، ولتملأ الدنيا عدلا ، كما ملئت زورا وظلما •

الوفاء بالعهود :

١٥٨ ــ الوفاء بالعهود أمر أوجبه الاسلام ، وحث عليه ، ولو كان صاحب العدل مشركا ، ولقد قال تعالى فى ذلك : ((**كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رســوله ، الا الذين عاهدتم عنـد المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين**)) •

ولقد جاء الأمر الصريح بالوفاء بالعهد فى قوله تعالى : ((**وأوفوا بالعهد، ان العهد كان مسؤولا**)) •

وأن دين الفضيلة والعدالة يوجب الوفاء بالعهد : ولقـد قال تعـالى : ((**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**)) والوفاء بالعهد فى ذاته فوق أنه عدالة وفضيلة هو قوة ، والنكث فى العهد ضعف ، ولقـد قال تعـالى مؤكدا وجوب الوفاء بالعهـد : ((**وأوفوا بعهـد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعـد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة انما يبلوكم الله به • وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة • ولكن الله يضـل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم**)) •

وأن هذا النص فيه تشديد على وجوب الوفاء بالعهد ، وتغليظ لنقضه ، ويشير الى أن أشد النقض ما كان بين شعب وشعب ، ويريد الناقض أن يزداد قوة ، أو أن تكون رقعة أرضه أقوى •

وان الآية الكريمة تدل على أمور :

أولها : أن العهد الذى يذكر فيه اسم الله ، أو يعقد باسم الاسلام هو عهد الله تعالى ، فمن ينقضه ينقض عهد الله تعالى وميثاقه ، فجرمه عظيم ، وليس اعتداؤه مقصورا على من نقض عهده •

ثانيها : أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة ، لأنه يأمن فيه جانب الاعتداء ، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام ، والسلام تطمئن فيه الشعوب ، وتستقر ، ولذلك شبه من ينقض عهده بحال الحمقاء التى تغزل غزلها تحكمه ، وتقوية ، ثم بعد ذلك تنقضه انكاثا أى أجزاء صغيرة متفرقة مشعثة ، وذكر أن النكث فيه زلل للقدم بعد ثبوتها ، اذ أنها تثبت بالسلم الذى أوجده العهد ، وفى السلم قوة وثبات ، والنقض ازالة للأمن وللثبات المستمر ، والاطمئنان الدائم •

ثالثها : أن النص الكريم يشير الى ما يدفع الى النقض من طبائع الملوك الذين لا يبغون سلاما ، وهو ارادة اتساع رقعة الملك ، ونماء القوة على أساس من الظلم والارهاق •

ولذلك قال تعالى : ((**أن تكون أمة هى أربى من أمة**)) أى لا يصح أن تدفعكم الرغبة فى زيادة الرقعة ، وكثرة عـدد المحكومين ، وقوة العتاد على النقض ، لأن النقض زلل يؤدى الى الضعف ، والى الانزعاج المستمر ، والى الخوف ، والى التعرض لتهلكة الحرب ، وضعف ثقة الناس ، ومتى ضعفت ثقة الناس فى دولة لا يطمأن اليها ، ولقـد وصفت احدى الدول الكبرى المعاهدات بأنها قصاصات أوراق ، فلما احتاجت الى عقـد المعاهدات لم تجد من يطمئن الى عهودها فنفرت منهـا كل الدول ، وكل القوى ، وانه يجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد الا اذا ظهرت بوادر الخيانة ، ولا يصح النقض لمجرد خوف عدم الوفاء من غير بوادر الخيانة ، ولقـد روى أن المؤمنين شكوا الى النبى استعداد المشركين بعد صلح الحديبية ، فقال لهم صلى الله عليـه وسلم ((وفوا لهم واستعينوا الله عليهم)) •

ولكن اذا ظهرت الخيانة ، وقامت امارتها وجب أن ينبذ اليهم عهدهم ، ويعلنوا بذلك ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ((**واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء**)) أى يرد عليهم عهدهم ، ويعلنون •

الخلاصة :

١٢٤ — أما بعد ، فانه يجب أن تتحقق الوحدة الاسلامية فى السياسة الخارجية ، وتقوم على أساس من الحكم الاسلامى الصحيح ، والمصلحة الاسلامية التى يدعو اليها الاسلام ؛ وأن يكون العدل أصلا من أصول هذه العلاقات ، فانه الميزان الحق والمقياس ، والميزان الذى لا يخطىء ، وهو مبدأ الاسلام فى المعاملات الانسانية آحادا وجماعات .

وانه يجب التنبيه هنا الى أمر ذى شأن ، وهو مبدأ من مبادىء الاسلام المقررة الثابتة .

ذلك الأمر أنه اذا حصل اعتداء على الأقليات الاسلامية من الدولة التى تعيش فيها فانه يجب على الجامعة الاسلامية ، أن تتصل بهذه الدولة لتمنع الظلم الواقع على تلك الأقلية المسلمة ، فان المسلم أخ للمسلم لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ، كما صرح النبى صلى الله عليه وسلم .

وان النبى صلى الله عليه وسلم قرر ذلك المبدأ الجليل ، فلا مناص منه ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل الجيوش الاسلامية لمقاتلة الروم ، بعدما تبين أنهم يؤمنون من دخلوا فى الاسلام من الغساسنة فى الشام ، فكان القتال المرير فى غزوة مؤتة وتبوك ، ثم جهز جيش أسامة فى آخر حياته ، وأوصى بأنه ينفذ بعد وفاته .

وان ايذاء المسلمين ، كما هو واقع فى بعض البلاد الافريقية فتنة لهم فى دينهم ، وقد قاتل النبى صلى الله عليه وسلم قريشا ، لأنهم كانوا يفتنون المؤمنين فى دينهم والفتنة أشد من القتل . وقد قال تعالى : ((**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله**)) .

انه يجب أن تكون الجامعة الاسلامية عزا للمسلمين فى قلتهم وكثرتهم . ليكونوا أمة وسطا للخير فى هذا العالم الذى يموج بالفتن ويموج بالشر ، كما قال الله تعالى : ((**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**)) فلتكن تلك الأمة الوسط ، وهى المثلى .

وَحْـدَة الجُـيُوش

وحدة الجيوش فى الجامعة الاسلامية :

١٦٠ ــ لسنا من رجال الحرب ، ولا من العارفين لأساليبه ، ولا ممن عنوا بدراسة تاريخ الحروب العالمية من عهد نيبال الى عهد هندنبرج ، ولم ندرس الا تاريخ الحروب الاســلامية فى غير استقصاء لمناهجها ، ولا نعرف دقيق لأساليبها ، ولذلك نترك الكلام فى ذلك الى أهل الخبرة فى الحروب الذين مارسوا بعضها ، ودرسوا جلها ، ولهم فى ذلك بحوث فى مجالاتها ، وكلامهم فيها هو المجدى فى مثل هذا الموضوع .

ولكنا نريد أن نقول كلمة صغيرة فى هــذا المقام فيما يتعلق بالوحــدة الاسلامية ، وما تتبعه الجامعة الاسلامية مشيرين غير مبينين ، لأننا لا نملك البيان ولكيلا نكون كحاطب ليل .

(أ) انه يجب أن يكون للمسلمين وحــدة رئيسية لجيوشهم ، هى التى تدير وهى التى تهيىء ، وهى التى تجيب عند أول هيعة ، وتكون قوة الجيش للمسلمين جميعا ، لا لقوم دون قوم ، ولا اقليم دون اقليم .

(ب) وانه يجب أن يكون فى كل اقليم اسلامى قوة تحمى الاقليم من غارات من يجاورونه حتى لا يراد بسوء ، وأن يكون فى كل اقليم وزارة للحرب .

ولكن يجب أن يكون نظام هذا الجيش الاقليمى خاضعا للجامعة الاسلامية ، وأن يكون تحت اشراف مجلس جامعة الدول الاسلامية والجيش الكبير الجامع لكل القوى .

(ج) ويجب أن تزود القوى الاسلامية كلها ، بالمواد الفتاكة التى تكون فى قــدرة كل دولة ، فان ذلك يدخل فى مضمون قوله تعــالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » ، فان القوة تختلف فى الحاضر عنهــا فى الماضى ، وأن

تزويد القوى الاسلامية بكل ذلك فرض كفاية لا يصح أن تتخلى عنه الجامعة الاسلامية ، وأن ذلك يقتضى أن يتجه علماء البحث والدراسة الى متابعة ما تتسلح به الجيوش فى البلاد المختلفة ، ولا ينى علماء المسلمين عن هذه المتابعة ، على أن تصنع فى الديار الاسلامية ، انه لا يمكن أن تكون الأمة حربية اذا كانت تستمد أسلحتها من فضل غيرها ، فقد يعطى ، وقد يمنع ، وهو فى العطاء والمنع لا يلاحظ الا مصلحته هو ، وأن هذا الفرض الكفائى يجب على الأمة مجتمعة ، وممثلة فى مجلس ادارة الجامعة الاسلامية ، ويجب على الخصوص على العلماء الباحثين الذين يؤهلون لذلك وعلى الأمة الاسلامية مجتمعة أن تهيىء لهم الأسباب ، بأن تعد لهم المعامل التى يجرون فيها تجاربهم، والمواد التى تتكون منها ، وبالمال الذى يحتاجون اليه .

ان البلاد الاسلامية أرضها غنية بكل ما يمكن أن تكون منه تلك الأسلحة المختلفة ، وان البلاد التى تستخدم الذرة بكل أنواعها ، يأخذون من أفريقية ومن غيرها المواد المكونة لها .

ولسنا نطلب ذلك ليكون من الجامعة الاسلامية اعتداء ، بل هو لدفع الاعتداء ، والمحارب مأخوذ بسلاح محاربه فيجب أن يكون فى يده ما يماثل ما فى يد خصمه ، وأن المعتدى ان شعر بذلك تردد فى اعتدائه ، أو امتنع عنه ، فالاستعداد أنفى للاعتداء ، ويجعل المعتدى يتردد فيه .

واعتبر ذلك بما بين أمريكا وروسيا ، فكلتاهما لا تفكر فى الاعتداء على الأخرى مع شدة التنازع المادى ، واختلاف المذهب الاجتماعى ، لأن كلتيهما تخشى ما عند الأخرى .

فنحن نريد السلاح لا لنعتدى ، ولكن نريده لنكون فى آمن منه ، وان الشر يدفع بمثله ، وكما قال على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة : « ادفعوا الحجر من حيث جاء فانه لا يدفع الشر الا شر مثله » . وبعبارة أخرى لا يمنع الشر الا الاستعداد لدفعه ، وأبلغ أنواع الاستعداد هو الاستعداد العامى فى تلك الحرب العالمية .

وان وجد شر قاتل ، وهو الحرب بالمبيدات ، لأن الذين فقدوا سلطان الضمير الانسانى يحاربون بالآفات التى تهلك الحرث والنسل ، وتبيد الزروع فى منابتها ، فيجب علينا أن ندرس هذا لنعاملهم بالمثل أن أقدموا عليه •

واذا كنا فى بعض كتاباتنا قررنا أن الاسلام لا يعمل على الاعتداء على الشعوب الآمنة ، ويمنع اتلاف الزرع واتلاف الحيوان فى غير مأكله ، فان ذلك كان فى الحروب الماضية التى كانت لا تتجاوز معسكر السلطان ، أما الآن فان الحرب حرب شعوب ، ولأننا نريد ان نمنع الأذى عن الشعوب الاسلامية ، بل نريد أكثر من ذلك أن نمنع التفكير فى الأذى •

مجلس للقيادة :

(د) وانه يجب مع ما سبق أن يكون ثمة مجلس للقيادة الحربية الاسلامية يجتمع فيه أولئك القواد من الأقاليم الاسلامية يمثل كل اقليم عضو أو عضوان أو أكثر ، وأن يكون هناك قائد اسلامى عام ، يضع الخطط بالاشتراك مع أهل شورى الحرب •

(هـ) وانه يجب مع ذلك أن تكون فى الجامعة قوة للأمن داخلية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وليكن من بين الشعوب الاسلامية فى التكوين السياسى مجلس للأمن مكون من أعضاء يمثلون الأقاليم الاسلامية وأن يكون لهذا المجلس قوة تمنع اعتداء اقليم على اقليم •

فاذا اعتدى اقليم على اقليم كان لمجلس الأمن ، أو عليه أن يتدخل لمنع الاعتداء ، بل انه يجب أن يتدخل عند حصول الاختلاف الاقليمى ، وذلك تحقيقا لقوله تعالى : « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** » •

فهذه القوة الاسلامية التى تكون تابعة لمجلس أمن الدولة الاسلامية تكون لتردع الجانى ولتحمله على الجادة ، وليفىء الى أمر الله •

اننا لا نضمن اخلاص كل الحكام ، ولا نضمن الدخيل المفسد ، فلابد من قوة رادعة ، والله سبحانه بكل شىء محيط •

مجلس الجامعة الاسلامية :

١٦١ — هذه العناصر المختلفة من تنفيذ أحكام الله تعالى التى وردت بها النصوص الشرعية ، ووحدة السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات بين الأقاليم الاسلامية ثم تنظيم الحرب ، وكل ما يتعلق بها ، ومنع البغى من اقليم على اقليم كل هذا يحتاج الى رياسة موجهة ، تتفق مع بقاء شخصية كاملة لكل اقليم فى أرضه ودائرته •

وان هذه الرياسة لا يمكن أن نجعلها لواحد منفردا عن أهل الشورى ، فقد جربنا ذلك فى حكم الملوك الذين تسموا باسم الخلفاء اذ أنهم كانوا ينفردون بالأحكام ، ومن حولهم ظل لهم ، لا ارادة لهم بجوار ارادتهم ، واذا كانت لهم ارادة ، فانما يحطون بها على هوى هؤلاء الملوك الذين سموا أنفسهم خلفاء وأمراء المؤمنين •

واذا كانت خلافة كخلافة أبى بكر وعمر ، فانهم كانوا يستشيرون ، وما كان أهل شوراهم يقولون غير الحق مرضاة لهوى أحد وكان لعمر نوعان من الشورى :

أحدهما — الشورى الخاصة ، وهى التى كان يصطفى بها كبار علماء الصحابة مثل على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وهؤلاء كانوا يستشارون فيما يستغلق من الأمور •

وثانيهما — شورى عامة ، كان يدعو فيها الى ظاهر المدينة كل البالغين الراشدين من أهل المدينة ، وذلك فى المسائل التى لا تعالج حالا خاصة ، بل يكون فيها تقرير لأمر دائم ، أو تكون علاجا لحال لها خطر وشأن •

ومن ذلك ما دعاهم لأجله عندما أراد أن يترك أرض العراق وفارس فى أيدى زراعها ، فقد جمع أهل البلاد وقال لهم رأيه : واستمعوا الى رأى مخالفيه الذين كانوا يريدون تقسيمها كغنيمه •

وقد استمرت المناقشة ثلاثة أيام ، وانتهت بالخضوع لرأى عمر رضى الله عنه عندما ساق لهم الآية الدالة على أن الأرض تبقى فى أيدى الزراع ، وخراجها يكون للمسلمين ممثلين فى ولى الأمر وبيت مال المسلمين •

ومن شوراه رضى الله عنه العامة أن بلغه تكاثر أهل فارس على المسلمين ، فأراد أن يخرج بنفسه الى الغزو فجمع أهل المدينـــة ليستشيرهم فى ذلك • فتكلموا فى ذلك ، وأشار عليه على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة بأن يبقى حتى لا يكون ما يدع وراءه من العورات أشد مما يلقى المسلمين ، وحتى لا يشتد كلبهم على الجيوش الاسلامية ويقولوا هذا أصل العرب ، وان قتلناه ، تفرقوا ، فنزل عمر رضى الله عنه عند ذلك الرأى •

١٦٢ — من بعد أن جاء ملوك بنى أمية ، ثم ملوك بنى العباس ، وان تسمى ملوك الدولتين بأسماء الخلفاء وأمراء المسلمين — من بعد ذلك أهملت الشورى فتحكم الفرس والترك ، وانحلت الوحدة الاسلامية ، على ما ذكرنا مما أثر فى هذا الاجتماع الاسلامى وتفرق بعده المسلمون •

لذلك كان لا بد أن تكون الرياسة الاسلامية لغير واحد • وقد تنتهى الى واحد يختـــار من بينهم لمدة ، وليس لمدى الحياة ، وقد نعد هذا هو خليفـــة المسلمين ، ونعده أمير المؤمنين ، ويكون أميرا لهم حقا وصدقا •

ولكن كيف يتكون هذا المجلس الذى ترجع اليه أمور ثمانمائة مليون مسلم موزعين فى الأرض ؟ يتكون هذا المجلس من عناصر ثلاثة :

رجال لهم خبرة فى السياسة والادارة ونظم الدول ، ورجال لهم علم فى الاسلام ، ورجال لهم خبرة فى الحروب •

وهؤلاء يكونون أولى الأمر فينا الذين أمرنا الله تعالى بطاعتهم ، اذ يقول : **« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ، ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »** •

وان أولى الأمر الذين أمرنا بطاعتهم صنفان ، العلماء الذين يتعرفون الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، والثانى الحكام • وهذا ما يقرره العلماء وابن تيمية فى هذا ، اذ يقول « وأولو الأمر فى هذا صنفان : العلماء والأمراء وهم الذين اذا صلحوا صلح الناس . فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله وما يفعله طاعة لله ورسوله، واتباع كتاب الله تعالى » وليس معنى كون العلماء من ولاة الأمر أن أقوالهم حجة فى ذاتها ، فليسوا كالأحبار عند اليهود والنصارى أقوالهم حجة فى ذاتها ، انما هم مستنبطون مفسرون للكتاب والسنة ، وليس كلامهم حجة الا بمقدار سلامته فى استخراج الحكم من مصدره فالمصدر هو الأصل المتبع ، ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة يقول : « ليس لأحد أن يأخذ بقولنا الا اذا علم من أين أخذناه » •

والأمراء هم الحكام ، ويدخل فيهم المحاربون ، فهم أمراء الحرب أو ولاتها •

كيف يختار مجلس الادارة :

١٦٣ ــ يختار غير الحربيين من مجلس الادارة وهم العلماء الذين يديرون السياسة الاسلامية ، ويوثقون الصلات بين الأقاليم المختلفة ، ويعرفون حاجات

كل اقليم ، ويراقبـون شئونه ، ويوثقون العلاقات الاقتصـادية ، يختارون بالانتخاب ويختار مدير السياسة بالانتخاب من المجالس النيابية فى كل اقليم ، يختار مجلسه النيابى واحدا أو اثنين ، ليمثل الاقليم فى مجلس ادارة الجامعة الاسلامية •

ويختار المجلس الأعلى الاسلامى فى كل اقليم اثنين من العلماء أو أكثر ، وذلك للرقابة على تنفيذ القوانين الاسلامية ، فى ظل القرآن والسنة وما ينبغى اتباعه فى الاقليم • وذلك ليكون المجلس ممثـلا لكل عناصر التكوين للجامعة الاسلامية •

وان مجلس الجامعة الاسلامية هو الذى يختار من يرى أن يضمهم اليه من قادة الحروب ومن يرى الأمور فيها ، ويلاحظ أنه ينبغى أن يكون مجلس الجامعة ممثلة فيه كل المذاهب الاسلامية ، فيكون فيه علماء من المذهب الزيدى وآخرون من المذهب الجعفـرى ، وغيرهم من المذهب الأباضى ، ثم المذاهب الأربعة ، ولا يلزم أن يبعث كل اقليم فى مذهبين مختلفين ، بل يلاحظ أن يكون مجموع أعضـاء المجلس فيهم هؤلاء الممثلون للمذاهب لا أن يختار كل اقليم ممثلين له من كل المذاهب ، فان ذلك يجعل العدد كثيرا ، وكلما كان فى دائرة معقولة من حيث العدد كان الاتفاق أقرب •

وننبه الى أمرين جديرين بالاعتبار :

أولهما ـــ أن هذا مجلس يختار رئيسا له ، ويعد ذلك الرئيس هو الامام الأعظم للمسلمين أو هو الخليفة أو هو أمير المؤمنين ، كما أشرنا من قبل ، على أن يكون اختياره لأمد معلوم كما قلنا من قبل ، ولا يكون مدى الحياة •

ثانيهما ـــ أن اختيـار هذا الرئيس يكون بأكثرية خاصة ، وهى الثلثان للحاضرين على الأقل ، والعزل بمثلهما أيضا •

وقرارات المجلس تكون ملزمة لكل المسلمين ، ولا تجوز مخالفتها •

هذا واننا نرى أن يكون مكان مجلس الادارة هو المدينة المطهرة ،حيث جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنها المدينة التى كان يقيم بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الاسـلام ، ولأنهـا كانت موطن الخلفاء الراشدين الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان ، وما خرج على عنها الا لأجل الحوادث .

أما بعـد :

فهذه خواطر عرضت أبدينها، وقد دفعنى اليها أمران :

أولهما — ما نراه الآن من التدابير بين المسلمين ، حتى أنه ينظر حكام القـوم من المسلمين الى اخوانهم من المسلمين نظرة من لا يربطه به رابطة ، ويؤثرون ولاء غير المسلم على ولاء المسلم ، وتنزل النازلة بقوم من المؤمنين فلا يحس بأنه منهم ، وهم منه . ونجد هذا الفريق يوالى تلك الدولة من أعداء الله والايمان ، ونجد الآخر يوالى دولة أخرى ، بينها وبين الأولى عداوة ونحن تبع لهما فى عداوتهما ، وان تحابا فليس لنا معهم أمر يراعى ، وخيراتنا لغيرنا ، والله تعالى يقول : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه** » .

الأمر الثانى : ما نراه فى تاريخنا وما أسعفنا به ديننا من وحدة اسلامية دكنتنا من أن نهـاجم الباطل فى مواطنـه ، فأزلنا حكم الأكاسرة ، وحررنا شعوبهم ، وأزلنا حكم الرومان فى الشرق ، ورفعنا راية الحرية والمساواة : بالمؤاخاة التى كانت بيننا ، والمحبة التى كانت تربط بيننا ، والتى كان يتـألم المؤمن فى الشرق لما ينزل بأخيه فى الغرب ، حتى تحقق فينا قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وان تلك الخواطر التى سقناها لا ندعى أنها نظام وضـعناه ، ولكنا استمليناها من حال المسلمين فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، وعهد الراشدين الذين أحيوا السنة وأماتوا البدعة .

وقد يقول قائلون اننا خياليون ، لأن الواقع لا يؤيدنا ، وكان يجب أن نوائم بين ما ندعو اليه وما يمكن تحقيقه .

ونحن نقول ان المبادىء الثابتة لا يمكن أن تستمد من واقع هو الداء الذى نشكو منه ، واذا كانت دعوتنا الرجوع الى حالنا فى عهد النبى والراشدين خيالية ، فانه لا صلاح قط ، ولاسبيل الى الرجوع الى عزة الدين ، وقوة اليقين ، وخير لنا حينئذ أن نستبدل بدين العزة دينا آخر نتسربل فيه سربال الذلة ، ان الحكمة القديمة تقول : « انما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها » .

ان العمل يجعل الأمور حقائق واقعة ثابتة ، فلنعمل « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » .

« تم بحمد الله »

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

مؤلفـــات الامام

الشيخ محمد أبو زهرة

- المعجزه الكبرى (القرآن)
- خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) ٣ أجزاء فى مجلدين
- تاريخ المذاهب الاسلامية (جزءان فى مجلد واحد)
- العقوبة فى الفقه الاسلامى
- الجريمة فى الفقه الاسلامى
- شرح قانون الوصية
- الأحوال الشخصية
- احكام التركات والمواريث
- محاضرات فى النصرانية
- فى المجتمع الاسلامى
- مقارنات الأديان
- الوحدة الاسلامية
- الدعوة الى الاسلام
- التكافل الاجتماعى فى الاسلام
- العلاقات الدولية فى ظل الاسلام
- محاضرات فى الوقف
- محاضرات فى عقد الزواج وآثاره
- الملكية ونظرية العقد
- الولاية على النفس
- **أبو حنيفة** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه)
- **مالك** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه)
- **الشافعى** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه)
- **ابن حنبل** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه) .
- **ابن تيمية** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه) .
- **ابن حزم** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه) .
- **الامام الصادق** (حياته . عصره . آراؤه . فقهه)
- **الامام زيد** (حياته . عصره آراؤه . فقهه) .
- تنظيم الاسلام للمجتمع
- تنظيم الأسرة وتنظيم النسل
- الخطابة
- تاريخ الجدل
- بحوث فى الربا

تطلب جميع مؤلفات الامام محمد أبو زهرة

من ملتزم طبعها ونشرها :

دار الفكر العربي

الادارة : ١١ شارع جواد حسنى ــ القاهرة
ت : ٣٩٢٥٥٢٣ ــ ٣٩٢٠٩٥٦

فروع البيع :

الفرع الرئيسى :

٦ أ شارع جواد حسنى ــ القاهرة ت : ٣٩٣٠١٦٧

فرع الدقى :

٢٧ شارع عبد العظيم راشد ــ متفرع من شارع شاهين بالعجوزة
ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر :

٩٤ شارع عباس العقاد ــ المنطقة السادسة ــ مدينة نصر ت : ٢٦١٩٠٤٩

وكذا من جميع المكتبات الشهيرة داخل وخارج جمهورية مصر العربية

كما تطلب من :

مؤسسة دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت

ص.ب ٦٠٥٦/السالمية 22071

ت : ٥٧١٨٥٧١/٥٧٤٨١٦٥

شركة دار الاشعاع للطباعة
١٤ ش عبد الحميد ـــ جنينة قاميش
السيدة زينب ـــ القاهرة
ت : ٣٦٣٠٤٦٩

